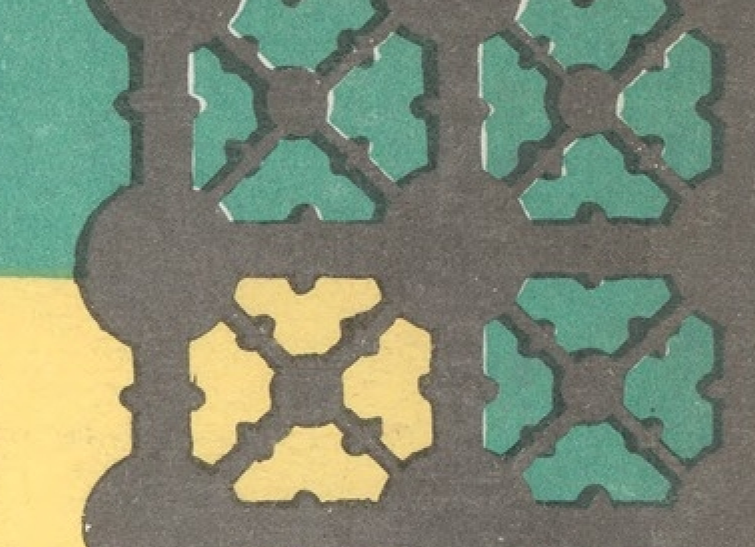


أعلام العرب

١٢٧

عبد الرحمن الرافعي

مؤرخ مصر الحديثة

بهاء الدين محمد علوان



الهيئة المصرية العامة للكتاب

اعلام العرب
(١٢٧)

عبد الرحمن الرافعى
مؤرخ مصر الحديثة

تأليف
بهاء الدين محمد علوان



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

ســيرة وحيــاة

عبد الرحمن عبد اللطيف الرافعى (١٨٨٩ ــ ١٩٦٦) ــ مؤرخ مصر الحديثــة احدى الشخصيات النادرة فى تاريخنــا المعاصر .. المناضلة من أجل مبادئها واتجاهاتها الوطنية ، التى تشربت أصولها من منابع أصيلة .. وفى مقدمتها تلمذة صاحبها على الزعيم الشاب مصطفى كامل حيث شغف بمبادئه وجهــاده من أجل مصر عشقا .. وزادها رســوخا بعد ذلك اقترابه من الزعيم محمد فريد .

وتحجب الأعمال الكثيرة فى تاريخ مصر الحديثة التى قدمها المؤرخ العظيم عبد الرحمن الرافعى للمكتبة العربية طوال نصف قرن تقريبا ، حياة صاحبها العصامية التى كونت اســمه والتى تعد قصــة متصلة الحلقات ، تعكس بدقة أصالة الانسان المصرى

ومقاومته لكل عوامل الأحباط التى تريد أن تلزمه فى مكانه ، وهذه الحياة لا تقل أهمية عن دراسات صاحبها الكثيرة التى لم يقم بها أحد مثله .

اسرتـــه :

ولد عبد الرحمن الرافعى فى بيئة دينية فأبوه هو الشـــيخ عبد اللطيف الرافعى « هو ابن الشيخ مصطفى الرافعى بن الشيخ عبد القادر الرافعى . والأخير هو أول من لقب بلقب « الرافعى » فى طرابلس ، ولقبهم الأول هو « البيسار » به تلقب والد الشيخ عبد القادر واسمه الشيخ عبد اللطيف البيسار بن الشيخ عمر البيسار . وينتهى نسبه الى ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب رضى الله عنه » (١) . جاء أجداده الى مصر ابان الفتح الاسلامى . وتتيجة لهذه البيئة والنسب دخل الأب الأزهر الذى كان له فى ذلك الحين ـ أواسط القرن الثامن عشر ـ قمته المرموقة العالية فى الحياة المصرية بوصفه معقل الاســلام وحامى حمى الدين ، مما أدى الى هيمنة خريجيه على جميع المناصب الدينية من خطباء المساجد الى أرقى المناصب بالقضاء الشرعى والافتاء .

وعندما يتخرج الشيخ عبد اللطيف من الأزهر عام ١٨٧٧ يتولى عدة مناصب هامة فى القضـــاء ، فيشغل وظيفـــة قاضى المحاكم الشرعية بمحافظة البحيرة سنة ١٨٨٩ ، فعضوا بمحكمة مصر الشرعية سنة ١٨٩٧ ، فمفتيا لمدينة الاسكندرية سنة ١٨٩٨

الى أن أحيل للمعاش فى سنة ١٩٠٩ • ويختار الأب الاسكندرية التى تعد من أهدأ البلاد مستقرا له ، ولا يبرحها الا مضطرا فى أواخر حياته عندما يلم به المرض فينتقل الى القاهرة ويتوفى بها فى ٢٤ يناير ١٩١٨ (٢) •

ومن الطريف أن عبد الرحمن الرافعى فى مذكراته لم يبدأ كتابته عن أسرته بالحديث عن الأب كما تجرى العادة ، بل قدم عليه أمه وتاريخ أسرتها وأشاد بها كثيرا على الرغم من أنها توفيت وهو فى سن الرابعة تقريبا • مما يمكن أن يلقى انطباعا بقسوة الأب مثلا (الذى تزوج مرتين بعد وفاة أمه وعاش معهما) •

أن الأحداث التى تمر بالطفل معقلتها وبساطتها هى التى تحدد مستقبل حياته وتضعه بين أبيه أو أمه فى المكان الذى تدفع اليه حقيقة علاقات والديه به ، ولاشك أن مؤرخنا قد تأثر تأثرا كبيرا بأمه السيدة حميدة محمود رضوان المعايرجى القاهرية المولد التى توفيت فى ٢١ يولية سنة ١٨٩٣ • وكان كثير الحديث عنها والاشارة اليها وظل يذكر أثرها فى وجدانه حتى وفاته ، والسبب أنه أخذ عنها كما يقول الكثير من الصفات من الايمان بالله والثقة بالناس ومساعدتهم.(٣) • وقد آل اليه من ارث أمه قدر ضئيل من الأفدنة التى ورثتها هى أيضا عن أبيها الذى كان يعمل كاتبا بدائرة الحلمية الملكية •

ولقد كان من أهم المؤثرات الاجتماعيـة فى نهايـة القرن التاسع عشر على الوجدان المصرى ، التمسك الشديد بالدين وتعاليمه •• يصوره أحمد أمين ــ الذى يكبر الرافعى بثـلاث سنوات ــ فى أحد كتبه بقوله : « ويغمر البيت الشعور الدينى ، فأبى يؤدى الصـلوات لأوقاتها ، ويكثر من قراءة القرآن صباحا ومساء ، ويصحو مع الفجر ليصلى ويبتهل ، ويكثر من قراءة التفسير والحديث ، ويكثر من ذكر الموت ويقلل من قيمة الدنيا وزخرفهـا ، ويحكى حكايات الصالحين وأعمـالهم وعبادتهم ، ويؤدى الزكاة يؤثر بها أقرباءه ، ويحج وتحج أمى معه ــ ثم هو يربى أولاده تربيـة دينيـة ، فيوقظهم فى الفجر ليصـلوا ويراقبهم فى أوقات الصـلاة الأخرى ، ويسائلهم متى صـلوا وأين صلوا • وأمى كانت تصلى الحين بعد الحين ــ وكلنا يحتفل برمضان ويصومه ــ وعلى الجملة فأنت اذا فتحت باب بيتنـا شممت رائحة الدين ساطعة زكية » (٤) •

وهكذا كان الشيخ عبد اللطيف الرافعى يعطى اهتماما كبيرا لتعليم صغاره ، وتربيتهم تربية دينية ، فعلمهم قراءة القرآن وأداء الصلاة فى موعدها خاصـة فى المساجد التى يرتادها ، بالاضافة الى صيامهم فى سن مبكرة • وقد أثر هـذا كله فى ارهـاف أحاسيس الطفل الصغير الذى لا يلبث أن يدخل كتاب الشيخ هـلال بشارع درب الحصر بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة بجوار منزل جـده لأمه حيث والديه ، وتعلم فيه القراءة والكتـابة

والحساب • وعندما انتقل مع أبيه الى الزقازيق فى سن السادسة دخل مدرستها الابتدائية الأميرية سنة ١٨٩٥ ثم مدرسة القربية الابتدائية بالقاهرة سنة ١٨٩٧ • وعندما عمل والده مفتيا للاسكندرية سنة ١٨٩٨ دخل مدرسة رأس التين الابتدائية • ولم تكن الحارة بالنسبة الى ابن الشيخ مكانا ملائما ــ لطفلين فى سن عبد الرحمن الرافعى وأخيه أمين ــ فنراه يلعب مع أخيه أمين فى دارهما بالاسكندرية • « وأذكر آن أحد أقرانى بالمدرسة حين علم بالنبأ (النجاح بالشهادة الابتدائية) ــ وكنت أجهله ــ سارع الى الحضور لمنزل والدى بالأنفوشى ليبشرنى بالنجاح ، فألفانى فى حديقة المنزل الصغيرة يجرنى أخى أمين فى قفص من الجريد جعلنا منه شبه عربة صغيرة تتناوب ركوبها وجرها بحبل » (٥) • ثم يلتحق الرافعى بالقسم الثانوى من نفس المدرسة واختار اللغة الفرنسية أساسا لدراسته الى أن حصل على شهادة البكالوريا (الثانوية العامة) فى مايو سنة ١٩٠٤ وكان ترتيبه الثالث من بين الناجحين وعددهم ١٣٦ طالبا •

ولكن عبد الرحمن لا يلبث أن تتلاشى فرحته بالنجاح وأبوه يريد منه أن يلتحق بالأزهر كما فعل هو قبله ، بينما كان هو قد أعد نفسه ليقدم أوراقه فى مدرسة الحقوق • وقد صدم اعلان الأبن تمسكه بالحقوق الأب الشيخ فقد كره لولده ليس رفضه للتتلمذ على التعاليم الشرعية فحسب ، بل أن ينتمى الى هذه المهنة ــ المحاماة ــ التى يكثر بين رجالها الدجل والاحتيال

والذين كانوا فى ذلك الوقت يعدون سبة فى المجتمع المصرى ! وكادت الأزمة الشديدة أن تعصف بمستقبل عبد الرحمن ازاء اصرار أبيه على موقفه ، لولا أنه استعان ببعض اقاربه فى الأمر . وأقنع الشيخ بعد لأى .. وكانت الحجة الوجيهة ، اذا كان حقا يريد لفلذة كبده التعليم الدينى ، فلماذا أدخله أصلا المدارس المدنية ؟ ! والتحق عبد الرحمن الرافعى بكلية الحقوق أو مدرسة الحقوق الخديوية بالقاهرة كما كانت تدعى أيامها .

وتشكل الدراسة العالية فى حياة الرافعى مرحلة شديدة الأهمية ، اذ كانت بمثابة الخطوة الأولى فى حياته العامة وتفكيره الوطنى ، بعد أن مس هذا التفكير مسا رقيقا فى مدرسته الثانوية أحد مدرسيه الوطنيين .

وكان العامل الثانى الذى الهب فتانا الهادىء هو كتابات مصطفى كامل الوطنية .. فهفت نفس الرافعى الى كفاح صاحبها وآرائه التى كان ينشرها بجريدة « اللواء » ويسجل الرافعى فى مذكراته التقاءه الأول بالزعيم الشاب .. « أما أول مرة قابلت فيها (مصطفى كامل) ففى فبراير سنة ١٩٠٦ ، أثناء اضراب طلبة الحقوق ، فقد تاقت نفسى الى رؤيته ، وكان (اللواء) يناصر الطلبة فى مطالبهم الحقة ، فذهبت مع لفيف من زملائى الى دار اللواء بشارع الدواوين ــ نوبار باشا الآن ــ تجاه وزارة العدل وكان اسمها وزارة الحقانية ، وقابلت الزعيم لأول مرة ،

وسمعت حديثه ، وشعرت بتأثيره الروحى ينفذ الى أعماق قلبى ، وصار لى بمثابة أبى الروحى فى المبادىء ، وأكثرت من التردد على دار اللواء لكى اقابله وأراه وأسمع صوته ، فكان يفيض علينا من الأحاديث التى غرست فى نفسى مبادىء الوطنية » (٦) ٠

والعامل الثالث الذى شارك فى تكوين شخصية عبد الرحمن الرافعى هو دراسته للقوانين الفرنسية التى أثاره ما فيها من تعظيم للحرية وكرامة المواطن ، والفارق الكبير بينها وبين ما يجد من دكتاتورية الاحتلال الانجليزى ٠ ولقد كانت فرنسا اذ ذاك هى قبلة المناضلين فى مصر والعالم ، ولما كانت الديمقراطية الفرنسية قد استهوته ، فقد تأثر بها وهو يكتب مقالاته فى « اللواء » و « الشعب » و « العلم » عن الديمقراطية والتعاون والجمعيات الوطنية ، مستوحيا تجارب الدول ذات العراقة الديمقراطية وعلى رأسها فرنسا ٠ مما انعكس فى كتبه الثلاثة الأولى « حقوق الشعب » و « نقابات التعاون الزراعية » و « الجمعيات الوطنية » التى أصدرها فى فجر اشتغاله بالصحافة والكتابة ٠

اخوته :

يعد عبد الرحمن الرافعى الثالث بين أخوته الأربعة الأشقاء، فأكبرهم أحمد الذى درس بالجامع الأزهر حيث اهتم بالشعر

والأدب ومات أبان دراسته سنة ١٩٠٣ ، ثم أخوه أمين المحامى وأحد نوابغ الصحفيين فى بداية القرن العشرين الذى ولد سنة ١٨٨٦ وتوفى سنة ١٩٢٧ ، والأخ الأصغر ابراهيم أول خريجى مدرسة المهندسخانة سنة ١٩١٣ الذى توفى بالتيفوئيد سنة ١٩١٥ أبان عمله مهندسا بتفتيش رى الفيوم .

والغريب أن قارىء مذكرات مؤرخنا التى ظهرت سنة ١٩٥٢ لا يجد بها أية اشارة الى أخوته غير الأشقاء ، ويروى المستشار حلمى شاهين انهم عديدون ويقيمون حاليا فى كفر الدوار وكان الرافعى دائم الاتصال بهم حتى وفاته (٧) .

امين الرافعى :

تشابكت أيدى الشقيقين أمين وعبد الرحمن وتلازمت أمورهما دوما فى مسار حياتهما حتى أن مدرسة الحقوق جمعت أيضا بينهما ، بالرغم من أن عبد الرحمن الأخ الأصغر قد تخرج قبله فى يونية سنة ١٩٠٨ ولحق به أمين فى صيف العام التالى . وقد كانت مبادىء مصطفى كامل سبيلهما فى الفكر والاتجاه الوطنى ، فاتصلا بجريدة « اللواء » قبل تخرجهما حتى ملكت الصحافة عقل أمين ، ولأول مرة يقيم عبد الرحمن أخاه فى مقدمة كتاب صبرى أبو المجد عن أمين الرافعى بقوله : « أن أمينا لم يكن أخى فحسب بل أن منزلته كمجاهد فى الحركة القومية تعلو فى نفسى على منزلته كأخ أكبر لى ، ولولا ذلك لما شعرت

نحوه بهذا الحب العميق الذى كان يغمرنى فى حياته واستمر على الأعوام بعد وفاته .. ولقد كان أمين ــ رحمه الله ــ من أعلام صحافة المبدأ والعقيدة .. حمل رسالة الوطنية فى عصر كانت الظروف والملابسات تناهضها وتخذلها ولا تبشر لها بأى نجاح ، خاصم الاحتلال وهو فى أوج جبروته وطغيانه ، وخاصم القصر حين كان قويا بتحالفه مع الاحتلال ، وخاصم سياسة الاستسلام للاستعمار حين كانت هذه السياسة ثابتة الدعائم قوية الأركان ينضوى اليها الأفراد والجماعات ويتهافت عليها الانصار والأعوان .. جاهد أمين فى هذا الجو الملىء بالأشواك والعقبات ، فاستهدف لكثير من الأذى والعنف والخذلان ، ولم يهن ولم يتراجع ولم يتحول عن مبدئه وعقيدته ، واستمر ماضيا فى سبيله حتى وافاه الأجل المحتوم فى الواحد والأربعين من عمره » (٨) .

ولما كان عبد الرحمن قد اتجه عقب تخرجه بثلاثة شهور للعمل بجريدة « اللواء » فى أكتوبر سنة ١٩٠٨ فقد واجه أمين مشكلة عقب تخرجه سنة ١٩٠٩ . كيف يحقق مراده فى العمل بالصحافة التى يهواها وملكت عليه فؤاده ، والصحافة الوطنية فى هذه الفترة لا مصدر لها . وكيف يعمل الشقيقان معا فى مجال لا مورد له . فاتجها سويا الى والدهما الشيخ عبد اللطيف مفتى الاسكندرية ، أو كما يروى صبرى أبو المجد « فقد احتكم الاخوان الشقيقان الى والدهما فى هذا الخلاف الذى شجر

بينهما لأول مرة وقرر الوالد بعد فترة من الدراسة أن يعمل أحد الشقيقين فى المحاماة ليساعد الآخر ماليا . وان يعمل الآخر فى الصحافة ويتقبل مساعدة أخيه . واستقر الرأى على أن تكون المحاماة من نصيب عبد الرحمن . وأن تكون الصحافة من نصيب أمين الذى لم يكن له مرتب فى « اللواء » ولا فى « الشعب » حتى بعد أن صار رئيسا للتحرير بل كان كل الذى يتقاضاه كمحرر أثنى عشر جنيها كبدل انتقال » (٩) .

والغريب أن عبد الرحمن الرافعى لم يشر الى هذه الواقعة التى ألمت بمسار حياته بل أشار فى مذكراته الى واقعة أخرى مفادها أن صديقه أحمد وجدى طلب منه فى أواخر سنة ١٩٠٩ ان يشتركا سويا فى افتتاح مكتب للمحاماة بالزقازيق على أن تستمر صلتهما بالكتابة فى الصحافة فوافقه على ذلك .. « .. وقد ترددت فى قبول هذه الفكرة اذ كنت منصرفا عنها ، ومازال يقنعنى بها حتى قبلت نصيحته بعد أن أمعنت النظر فيها ورأيتها فى جملتها أصوب من انقطاعى للصحافة ، وأدركت مع الزمن أنه أسدى لى أعظم نصيحة» (١٠) .

وقد استمر عبد الرحمن فى مساعدة أخيه حتى بعد وفاته ، وواصلها فى رعاية أولاده بالرغم من زواج أرملة أمين من أحد الضباط . وتولى رعاية ابنته التى كانت تدرس بمدارس الزقازيق الداخلية .. يروى صديقه وتلميذه محمد ابراهيم جمعة مدير السكرتارية بمدارس ليسيه الحرية بباب اللوق بالقاهرة

أن عبد الرحمن استمر فى هــذا السلوك حتى سنة ١٩٥٢ حيث قرر بيع امتياز جريدة « الأخبار » التى أنشأها أمين الى الأخوين على ومصطفى أمين على أن تدفع دار أخبار اليوم مكافأة شهرية لأبناء أمين قدرها عشرة جنيهات مدى الحياة (١١) •

زوجتـــه :

وكادت اهتمامات عبد الرحمن الوطنيـــة تنسيه حياتـــه الشخصية وزواجه ، وبالرغم من انه عرف الحب وكان عذريا الا انه لم ينته به النهاية السعيدة ! « ولقد أحببت حبا عاطفيا روحانيا ، ولكنى أدركت مع الأيام أن الحب أمر متعب لا لزوم له ولا فائدة منه ••• فتخلصت منه ، وكان للحيـــاء دخل فى نهايته ، كما له أثره فى بدايته ، وتعلمت من هـــذه التجربة أن من الخير للانســـان أن ينشـــد الحب العائلى ـــ أى الحب بين الزوجين ـــ الحب الهادىء المعتدل المتصـــل ، فانه من أركان السعادة فى هذه الحياة » (١٢) •

ووجد صاحبنا أن أنسب فتاة يمكن أن يختارها للزواج ، لابد أن تكون من أحب الناس اليه وهم أخواله (ولعل هـــذا دليل آخر على حبه العميق لأمه) الذين كانوا هم أيضا يبادلونه حبا بحب • وهكذا يتزوج فى ١٢ مارس سنة ١٩٢٠ من ابنـــة خاله الآنسة عائشة محمد المعايرجى ، فكانت له نعم الزوجـــة ورفيقة الحياة • ومن الطريف أن كان للوطنية دخل أيضـــا فى

هذا الاختيار • يشير الرافعى الى اختيار زوجته بقوله : « وكان حبى لأمى ــ وقد توفيت وأنا صغير السن وعشت بعدها يتيما من الأم (ومعذرة للغويين عن هـذا التعبير) ــ قد مال بى مبدئيا الى أقرب البيئات اليها • فلما شبت ثورة ١٩١٩ ، كنت فى زيارتى لعائلات خؤولتى ألاحظ على « عائشة » تطورا عجيبا فى نفسيتها وتفكيرها واحساساتها • كانت ثائرة ، وأشتركت فى مظاهرة السيدات والآنسات (١٦ مارس سنة ١٩١٩) ، وكانت تتدفق فى أحاديثها عن الحالة السياسية ، وعن تطور الأمة وأعجبنى منها ذكاؤها ، وجاذبيتها ، وأخلاصها ، وروحها الوطنية ، فعقدت النية على الزواج بها • ولم أفاتحها فى الأمر ، لأن ذلك لم يكن مألوفا فى هـذا العصر ، وخاصة فى البيئات المحافظة ، ولأنى كنت واثقا من رضاها بأن تكون زوجتى » (١٣) •

ويقول مؤرخنا أيضا فى جانب آخر من مذكراته : « وعندما مرضت بالتيفوئيد سنة ١٩٢٣ ولزمت الفراش نحو شـهرين ، واشتد بى الخطر •• كان الأطبـاء الذين يعالجوننى يقرءون على ملامح وجههـا درجة حرارتى • قبل أن يقيسـوها بميزانهم ، ويقولون ان وجههـا هـو الترمـومتر الصـادق لحـالتى الصحية » ! (ص ٣٨) •

كانت نعم الزوجة •• ظل زوجها دائما يتحدث عنها بتقدير واعجاب وحب •• « وهى تطالع كتبى بامعان ، وتقرأ كل ما أقول

وأكتب • وتبدى لى أحيانا ملاحظات سديدة ، وتستمع الى كل أحـاديثى بالراديو ، وتعجب بها ، ومرة أو مرتين قـالت لى : « حديثك هذه المرة ضعيف » ، فقلت مبتسما : « كيف ذلك والناس قالوا لى غير هـذا ؟ » • فقالت : « لعلهم يجاملونك ، ولكن الحديث ضعيف » ، وذكرت الأسباب ، فاغتبطت كثيرا لملاحظاتها • وحمدت الله على أنها تراقبنى الى هذا الحد » •

وقد اشـتد مرض السيدة عائشـة محمد المعايرجى وقرر الأطباء ادخالها معهد السرطان بالقاهرة فى ١١ يناير سنة ١٩٧٦ ، وبمجرد علم رئيس الجمهورية بما نشره على أمين عن مرضها (١٤) قرر علاجها على نفقة الدولة ، ولكن لم يستمر مرضـها طويلا وتوفيت فى ١٥ يناير سنة ١٩٧٦ وتكفلت رئاسة الجمهورية بكافة مصاريف الجنازة والعزاء لمدة ثلاثة أيام تكريما لعبد الرحمن الرافعى فى صورة زوجته (١٥) •

أولاده :

أنجب عبد الرحمن الرافعى أربع بنات وولد ، وقد توفى الأخير فى طفولته • ومذكرات مؤرخنا المنشورة تخلو من الحديث عن ذريته • وليست هنـاك الا اشارة واحدة فى كتاباته عمـا أنجب • وهى خاصـة بفلذة الكبـد الذى مات فى ٩ مايـو سنة ١٩٣٥ ، اذ بهدى الرافعى كتابه « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ـ الطبعة الأولى ١٩٣٧ ـ « الى رمز البنوة ،

وموضع حنان الأمومة والأبوة ، وحيد والديه ، ومعقد أملهما فى الحياة ، من يرقد الآن تحت الثرى ، بعيدا بعيدا عن أعيننا ، نائيا نائيا بجسمه وشخصه ، قريبا قريبا بروحه وذكراه ، الى ولدى المرحوم محمد أمين الرافعى ، اهدى هذا الكتاب » (ص ١١) .

أما بناته الأربع ، فقد تزوجت الأولى المرحوم المهندس محمود صالح الرافعى وقدمت ابنها شهيدا فى فبراير ١٩٧٨ فى عملية الصاعقة المصرية بقبرص لانقاذ المحتجزين المصريين بعد اغتيال يوسف السباعى برصاص الفلسطينيين ابان رئاسته للمؤتمر الآسيوى الافريقى ، وتزوجت الثانية من اسماعيل بيبرس وتقيم بالمنصورة ، وقدمت فى اليوم الأول لحرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ واحدا من شهدائنا هو ابنها الطيار جميل . وتزوجت الثالثة المستشار حلمى السباعى شاهين نائب رئيس قضايا الحكومة بالقاهرة السابق ، والرابعة تزوجت المستشار فتحى السبكى رئيسا لمحكمة بالقاهرة .

الرابطة الرافعية :

كان عبد الرحمن الرافعى انسانا بمعنى الكلمة صدوقا عزوفا عن الكذب بعيدا عن ما يغضب الله ، عطوفا على كل عائلته وأسرته واخوته الأشقاء وغير الأشقاء . يقدم المساعدات

لمستحقيها دوما فى السر ، وقد تكشفت عظمته التى لم يعلمها أقرب الناس اليه ، فيما خلف من مستندات بعد وفاته • ومن أروع ما قدمه الى أقاربه من آل الرافعى ان كون لهم تجمعا فى ٢٤ أبريل سنة ١٩٣٦ عرف باسم « رابطة الرافعية » يضم جمعهم وشملهم وتولى رئاستها • ومن أهم أهدافها مساعدة الأعضاء فى كافة المجالات •• فكانوا يتجمعون دوريا فى منزل كل غضوا ، كان المؤرخ الكبير يدون ما يدور فى هذه الجلسات من مناقشات وقرارات فى سجل خاص • وكانت المشاكل والخلافات التى تعرض •• تحل طبقا للشريعة الاسلامية دون الحاجة للالتجاء للقضاء ، الا اذا تأزمت وعند ذلك يقوم باعداد المذكرات القانونية الخاصة بها ويقدمها للقضاء • ومن السنن الحميدة التى اتخذتها الرابطة اجتماع الأعضاء فى مكان واحد فى الأعياد والمناسبات الاسلامية •

فى المنصورة :

أغلب الظن انه الى مدى أبعد تضرب المنصورة جذورها فى الوطنية والمقاومة والنضال •• ضد المستبد الخارجى والداخلى ــ ربما قبل أبريل سنة ١٢٤٩ عندما أسرت لويس التاسع ملك فرنسا وقد جاء على رأس حملة صليبية تريد أن تستعمر مصر ــ سواء أكان حاكما أجنبيا أو مصريا ، وبالطبع قبل الحملة الفرنسية على مصر ومجىء نابليون بونابرت

عام ١٧٦٨ ، ولا غرابة أن تناضل أيضا ضد حكم السلطان حسين أوفؤاد أو غيرهما . وهذا هو المناخ الذى وجده هذا الشاب القاهرى الوطنى الذى وفد على مدينة المنصورة سنة ١٩١٠ للترافع فى محاكمها عن قضايا موكليه الذين وكلوه فيها بعد اتفاقهم معه بمكتبه بالزقازيق ، ويروق له الاقامة بها . ولكن المحامى عبد الرحمن الرافعى الذى يبلغ السابعة والعشرين من عمره لا يستقر بها نهائيا الا بعد قرابة أربع سنوات .

ولقد بقى الرافعى فى المنصورة حتى سنة ١٩٣٢ كان فى أثنائها أحد المحاور الهامة للنشاط الوطنى والسياسى والاجتماعى والثقافى ، فيقدم ثمن مبيعات كتابه الأول « حقوق الشعب » مساهمة منه فى تطوير التعليم . يطالع القارىء فى جريدة « العلم » فى صفحتها السادسة الاعلان التالى : « يوجد كتاب حقوق الشعب لمؤلفه حضرة عبد الرحمن الرافعى المحامى فى المنصورة طرف الحسينى أفندى العسقلانى وقد خصص ما يجمع من ثمنه لمساعدة مشروع اصلاح التعليم وكل نسخة غير مختومة تعد مسروقة » (١٦) .

وينضم الرافعى لعضوية « نادى خلان الوفاء بالمنصورة » المؤسس سنة ١٩٠٦ والذى كان يضم نخبة كبيرة من المثقفين ، ويشارك فى أنشطته ويحاضر فى ندواته واجتماعاته ومناقشاته السياسية والثقافية ، ويهدى الى مكتبة النادى بعض كتبه .

ويكون الرافعى فى المنصورة عندما يعود الزعيم محمد فريد من احدى رحلاته الى الخارج التى كان يقضيها فى أوروبا داعيا للقضية المصرية ، فيذهب المحامى الشاب الى طنطا ليكون ضمن مستقبليه فى ديسمبر سنة ١٩١٠ « فحيانى أحسن تحية ، وهنأته بجهاده المجيد ، وابتهجت لرؤيته بعد طول غيابه ، وسررت لما رأيته متمتعا بموفور الصحة وكامل النشاط »(١٧) .

ومنذ جهاد مصطفى كامل الوطنى قامت العلاقات الوثيقة بينه وبين السلطان العثمانى بوصف الأخير خليفة للمسلمين الذين يجب أن يلتفوا حوله ، خاصة فى النضال ضد المستعمر الانجليزى . وكان السلطان يطمع بذلك أن يثير القلاقل فى مصر كراهية فى رجال الاحتلال لمصلحته هو ، لعل سيادته المفقودة على مصر تعود اليه ثانية ويخضعها لسلطانه . ولهذا عملت الدولة العثمانية على أن تؤلف قلوب كبار المصريين ومن ضمنهم رجال الحزب الوطنى بالانعام عليهم بالرتب والنياشين . وهكذا أنعم السلطان العثمانى سنة ١٩١٤ على الأخوين اللذين يؤمنان فى ذلك الحين بضرورة قيام صلة عضوية بين الآستانة والقاهرة ويكتبان فى ذلك فمنح كل من عبد الرحمن الرافعى وأخيه سنة ١٩١٤ الى زعيمه بالمنفى ينبئه بهذا الانعام (١٨) . ومن الغريب رتبة البكوية ويبعث الرافعى برسالة من المنصورة بتاريخ ٤ مايو

ان الرافعى لم يشر اطلاقا فى مؤلفاته ومذكراته الى هذا الأمر .. فهل فعله عمدا أم سهوا ، أم هو يريد أن يتنصل من هذا الموقف القديم ؟ يقدم المستشار حلمى شاهين تفسيرا لذلك بقوله : كثيرا ما حدثنى أستاذى الرافعى ان لا أحد فى مصر صاحب الفضل فى الانعام عليه بالبكوية لانها جاءت من استانبول لا من القاهرة !

وفى المنصورة يلتقى عبد الرحمن الرافعى بصديق الشباب والدراسة فى مدرسة الحقوق الخديوية .. ابن الدقهلية الدكتور محمد حسين هيكل بعد أن عاد من باريس فى النصف الثانى من سنة ١٩١٢ حاملا درجة الدكتوراة فى القانون . وكان هيكل قد فضل فى نهاية نفس العام أن يفتتح مكتبا للمحاماة بالمنصورة ، فجمعتهما الأيام مرة أخرى فى زمالة جديدة . وفى صيف ١٩١٤ يتفق الصديقان على تمضية شهر فى لبنان خلال فترة عطلة المحاكم . يحكى الدكتور هيكل فى مذكراته سطورا من هذه الرحلة قائلا : « .. وأخذنا أهبتنا وتذاكر سفرنا على باخرة تقلنا من بور سعيد بعد الظهر يوم أول أغسطس سنة ١٩١٤ ، وذهبنا نستقل القطار الذى يغادر المنصورة الساعة التاسعة صباحا الى ميناء سفرنا وتناولنا الصحف ساعة ركوبنا القطار ، فاذا بها تذيع النبأ الخطير أن ألمانيا أعلنت الحرب على فرنسا . وأخذنا أماكننا فى القطار ، فقال

الرافعى .. لا يدرى أحد ما يمكن أن تتطور اليه الحال بعد اعلان الحرب بين فرنسا وألمانيا . فقد تدخل تركيا الحرب ، وقد تدخلها انجلترا ، الا تفضل أن نقضى أيام راحتنا فى بور سعيد ، حتى لا نفاجأ فى لبنان بما قد يحول بيننا وبين العودة الى بلادنا ؟ فقلت مبتسما ، دع الأمر لله ! ولنذهب الى حيث قررنا . وعلام نخاف ولم نخشى . اننا نستطيع عند الضرورة أن نعود الى مصر على ظهر جمل . ولما كان عبد الرحمن مؤمنا حسن الايمان ، فقد رأى أن يدع الأمر لله ، وان نذهب الى لبنان ، ولعله قدر كذلك ان له أقارب بالشام تهفو نفسه الى رؤيتهم » (١٩) .

ويعود الرافعى من لبنان بعد أن قضى فى ربوعه قرابة الشهر ، فيجد الأمور الداخلية للبلاد تعتصرها أحداث الحرب الأولى ، فعلى أثر دخول الدولة العثمانية الحرب مع ألمانيا ضد الحلفاء فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، تجد سلطات الاحتلال أنها الفرصة المواتية لقطع الشعرة الواهية التى كانت تربط مصر بتركيا ، فتعلن الحماية البريطانية على مصر . وتخلع الخديو عباس حلمى الثانى وتنصب بدلا منه السلطان حسين كامل . ولما كانت سلطات الاحتلال قد استطاعت من قبل أن تقضى على الآراء الحرة بالاضطهاد والتهديد ، ولم تعد تخشى أن تفلت الأمور من يدها ــ كما حدث عندما تحرك الوطنيون

ضدها من أجل تركيا وحليفتها ألمـانيا ــ فما أن تخلصت هذه السلطات من خطر الحملة التركية على قناة السويس سنة ١٩١٥ التى كانت تهـدف احتـلال مصر ، بدأت الروح الوطنيـة فى الانحسار ، حتى اتجهت الى اعتقال الوطنيين ومن بينهم الرافعى• وأفرج عنه فى يونية سنة ١٩١٦ •

وتنتهى الحرب الأولى سنة ١٩١٨ بانتصار الحلفاء ، ويلتقى الزعماء المصريون بالمندوب السامى البريطانى بالقاهرة للمطالبة بتنفيذ وعود الجـلاء بعد أن ضحت البلاد فى خـدمة قوات الحلفاء التى تمثلت فى استغلال كل اقتصاديات البـلاد والعمالة المصرية والقوات على طول الجبهة المصرية • ويرفض المندوب السامى البريطانى المطلب الشعبى فتتأجج الصـدور المصريـة بالغضب الى درجة الغليان وتزيد سلطات الاحتلال النار اشتعالا بالقبض على الزعمـاء المصريين •• وتقوم الثورة فى كل ارجاء البـلاد ، لا تفرق بين مدنها أو قراهـا • ويستخدم الانجليز الرصاص فى تفريق المظاهرات وارهاب الوطنيين فيسقط القتلى ومع ارتفاع نسبة الشهداء على مر الأيام ، تتضاعف حركة تدمير المواصلات والاعتداء على جنود الاحتلال •

وفى هذا الجو المشتعل يشارك عبد الرحمن الرافعى بجهد كبير لا يقتصر على المنصورة وحدها بل يتجاوزها الى القاهرة أيضا • والنضال المباشر ضد المستعمر لم يكن وحده هو المقياس

الوطنى عند الرافعى ، فهناك أيضا العمل فى المجالات الاقتصادية والتعاونية والاجتماعية والفكرية .

وفى هذا المجال أيضا يذكر موقفه من تعضيد انشاء بنك مصر . لقد كان الهدف من تأسيس هـذا البنك هو أن يكون أحد الدعائم الاقتصادية الهامة فى صرح البلاد لمجابهـة البنوك الأجنبية المسيطرة على الاقتصاد الوطنى ، وكان البنك فى بداية نشأته فى حاجة ماسة الى تعضيد ومساهمة المواطنين فى الاكتتاب لأسهمه . ورأى الرافعى أن دعوة البنـك ليست قاصرة على رجاله وحدهم ، بل هى عمل الوطنيين فى كل مكان فى مصر . ولذلك فقد بادر هو فى نهاية سنة ١٩٢١ الى تأسيس لجنة لتوزيع أسهم البنك فى المنصـورة اسماها (لجنة الدقهلية للاكتتاب فى أسهم بنك مصر) ومن أجلها جاب الرافعى ارجاء (المديرية) المحافظة سعيا وراء التأييد الشعبى للفكرة ، ومن الطريف انه كان يدفع الأغنياء الى أن ينافس بعضهم بعضا فى الاكتتاب على أكبر قدر من الأسهم . وفى ذات الوقت قدم المحامى الشاب عدة مقالات فى جريدة « الأخبار » تحدث فيها عن ضرورة انجاح دعوة بنك مصر فالاكتتاب بسهم فيه تعنى رصاصـة موجهـة الى صدر الاحتلال (٣٠) .

وفى ١٥ نوفمبر سـنة ١٩١٩ يبلغه وفـاة محمد فريد فى ألمـانيا ، فيتأثر الرافعى لوفاة معلمه وأمامه فى الوطنية ، ويرثيه

بحرارة فى جريدة « مصر » « ••• الا فى ذمة الله من تلقيت عنه مبادىء الوطنية الأولى ، من كنت أراه فى السراء والضراء ، فى السفر والحضر ، تحت سماء الوطن أو فى المنفى ، رافعا لواء الوطنية ، حاملا فى يمينه مصباح الأمل ، يسير به فى كل واد ، وتحت كل سماء ، ينظر به الى الدنيا ، فتصغر فى عينه المصائب ، وتتضاءل المتاعب ، فى ذمة الله من كان يغالب الدهر ويحتمل الشدائد والمصائب ، وقلبه مملوء قوة ويقينا ، فى ذمة الله من جعل حياته كتابا مقدسا تقرأ فيه الأمة آيات الجهاد فى سبيل الوطن » (٢١) •

فى الحزب الوطنى :

أعلن مصطفى كامل عن تشكيل الحزب الوطنى فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ فى الوقت الذى كان فيه على قمة الزعامة الوطنية التى قادها منذ سنة ١٨٩٢ • ويرجع الدكتور يونان لبيب تأخر تفكير الزعيم الشاب فى تكوين الحزب طول مدة زعامته ، الى رغبته فى استمرار الدفع الثورى ضد الاحتلال البريطانى فى البلاد ، ولاقتناعه بأن الوجود الحزبى يمكن أن يفتت بشكل ما الوحدة الوطنية فى ذلك الوقت المتقدم بالذات (٢٢) •

وقد كانت وفاة الزعيم قبل أقل من عام من تشكيل الحزب، مدعاة لراحة سلطات الاحتلال (٢٣) ، الا أن خليفته محمد فريد

لم يسمح لهم بذلك ، وسار على الدرب ، واهتم الى جانب النشاط السياسى بالجانب الاقتصادى والاجتماعى والتعاونى ، كما قاد حملة شديدة العنف للمطالبة بالدستور ، وساح فى أوربا من أجل مصر ، وقد قابلته السلطة بالاضطهاد والسجن . حتى اضطر فى النهاية الى الخروج من البلاد .

وقد شارك عبد الرحمن الرافعى مشاركة فعالة فى أعمال الحزب منذ انشائه . كما انتخب عضوا باللجنة الادارية فى ٢٠ يناير سنة ١٩١١ ، حتى أصبح من أبرز أعضائه ابان رئاسة محمد فريد ، وشغل منصب سكرتير الحزب فى الفترة من ٢٦ ديسمبر سنة ١٩٢٣ حتى سنة ١٩٤٦ . وبالرغم من ان الرافعى ، لم يعد صاحب مسئولية فى الحزب الا انه استمر حتى الغاء الأحزاب . هو المهيمن الأول على أعمال الحزب الوطنى .

واغتراب فريد ورفاقه كان سبيلا لزيادة نشاط الحزب الوطنى خارج البلاد عنه فى داخلها ، فكان هناك فريق من بينهم فريد يتعاون مع الخديو السابق عباس حلمى الثانى فى منفاه ، واتجه فريق آخر الى الداخل للعمل السرى ، وكان عبد الرحمن الرافعى واحدا من أعضاء الفريق الثانى الكبار .

وعقب انتهاء الحرب الأولى ، وتغيير الموازين الدولية باعتراف مؤتمر باريس بالاحتلال البريطانى لمصر ، ارتفع رصيد

شعبية سعد زغلول وحزب الوفد وضاعت شعبية ما عداه من الأحزاب ، وعندما عادت بقية قيادات الحزب الوطنى من الخارج بعد وفاة فريد فى ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ لم تهتم بالواقع السياسى بالبلاد وما اصابه من تغييرات جذرية بل تعلقت بماضيها الذى لم يعد له وجود ، وبدأت صراعها مع الجناح الثانى بالحزب الذى يضم مجموعة جديدة ، وانتهى الأمر بابعاد القيادات القديمة وانتخاب حافظ رمضان رئيسا للحزب فى ٩ مايو سنة ١٩٢٣ بعد أن خلا المنصب منذ هجرة فريد (٢٤) .

وابتدأت الرئاسة الجديدة بالتعاون مع حزب الوفد والسراى ، وكانت النتيجة الطبيعية للتعاون المشترك أن اختير رئيس الحزب الوطنى وزيرا سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٤٠ ، وتقوقع الحزب وأصبح من أحزاب الأقلية ولم يعد له وجود فى الواقع فى حياة مصر السياسية ، وأصبح نشاطه لا يعدو نشر واذاعة البيانات وزيارة أضرحة زعمائه فى ذكراهم !

ويسعى فى الثلاثينيات بعض أعضائه لتجديد شبابه ، فيفتح أبواب ناديه الذى كان يقع فى شارع القصر العينى بالقاهرة — اوارات مجلس الشعب حاليا — لتنظيم شبابى يدربه تدريبات عسكرية وأطلق على تشكيله اسم « شباب البرق » نسبة لطائر بهذا الاسم من فصيلة الصقور ، ويرتدى أصحاب التشكيل

القمصان الزرقاء ، ولا يستمر التشكيل طويلا حيث يقضى عليه حزب الوفد (٢٥) .

وفى أواخر الحرب العالمية الثانية ينضم للحزب الوطنى مجموعة من الشبان كانوا من أعضاء حزب مصر الفتاة ، واختلفوا مع قادته . مثل الدكتور نور الدين طراف ، ومصطفى المنزلاوى المحامى ، والدكتور محمد زهير جرانه المحامى وعلى رأسهم فتحى رضوان المحامى ويعملون على بعث روح جديدة فى الحزب العريق ، وعلى أن يكون له نشاطه فى الاقاليم ولا يقتصر على القاهرة . ويقول فتحى رضوان عن هذه الفترة : « كنا مستمرين فى السفر الى الاقاليم واقامة الحفلات وأحياء المناسبات الوطنية والبحث عن مكان للنادى بالقاهرة وطبع مطبوعاته وانشاء لجانه . وهكذا حتى اجتمع شمل الجميع فى نادى الحزب فى المنيل برئاسة حافظ رمضان ، ولأول مرة منذ سنين طويلة ، يجلس زعيم الحزب الوطنى والى جانبه عبد الرحمن الرافعى وعبد العزيز الصوفانى ومحمد زكى على ومصطفى الشوربجى واسماعيل العسيلى ، وهؤلاء لم يجتمعوا ولم يضع أحدهم يده فى يد الآخر سنين طويلة دون سبب مفهوم. وهكذا بدأت الحركة تدب فى الحزب ، وبدأنا نسبق الأحزاب الأخرى فى النشاط ، فمثلا عندما زار القاهرة وفد الخريجين السودانى برئاسة اسماعيل الأزهرى ـ مارس وأبريل ١٩٤٦ ـ

كنا أسبق الهيئات التى استضافته والاحتفال به فى النادى ثم قلدتنا الأحزاب الأخرى • وقد حدث ان جاء حزب الوفد بعد ذلك وطلب استضافة الوفد قبل احتفالنا به فرفض الأزهرى أن يلبى أية دعوة الا بعد أن يذهب الينا • وقال أن هذا هو الترتيب الطبيعى والتاريخى • وهكذا تكرر اللقاء مع القادة العرب • ولما حضر للقاهرة فوزى القاوقجى قائد فرق الفدائيين المقاتلة بفلسطين أسرعنا فى الاحتفال به ودعوة الصحفيين لسماعه وتقديمه اليهم عندما جاء للنادى • ثم اصدرت جريدة « اللواء الجديد »ورأست تحريرها منذ سنة ١٩٤٤ الى أن توقفت سنة ١٩٤٦ ، وعاودت الصدور سنة ١٩٤٩ وكتب فيها رجال الحزب وخاصة عبد الرحمن الرافعى (٢٦) •

ولم يسلم الحزب الوطنى من آفة الصراعات والخلافات التى ظهرت فى الأحزاب الأخرى فى ذلك الوقت • وبالرغم من قلة أعضائه فقد طغت الخلافات وتعددت خاصة منذ اختيار حافظ رمضان رئيس الحزب فى وزارة محمد محمود سنة ١٩٣٧ وتصاعدت خطورتها فى اختياره بوزارة حسين سرى سنة ١٩٤٠ • وعن ذلك يقول الرافعى : « ان الخلافات بدأت بصورة ضيقة فى الاشتراك الأول ولكنها استحكمت بين الأعضاء فى الاشتراك الثانى وبفضل الوسطاء أمكن اعادة الوحدة الى الصفوف فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وقد حدث خلاف جديد سنة ١٩٥٠ » (٢٧) •

ويشير صبرى أبو المجد الى خلاف سنة ١٩٤٠ وموقع الرافعى منه قائلا : « وكان الأستاذ عبد الرحمن الرافعى قد نشر بوصفه سكرتيرا للحزب الوطنى ، فى الصحف بيانا حول موقف الحزب من اشتراك رئيسه محمد حافظ رمضان باشا ، وقد نشر البيان فى ٣ يوليو ١٩٤٠ ، وقد جاء فى هذا البيان : بادر الحزب الوطنى الى تحديد موقفه من الأزمة السياسية التى لابست استقالة وزارة على ماهر باشا فاجتمعت لجنته الادارية بمكتب الأستاذ عبد المقصود متولى المحامى مساء يوم الاثنين ٢٤ يونية ١٩٤٠ وحضر اجتماعها سعادة الأستاذ حافظ رمضان باشا وقررت عدم اشتراك الحزب الوطنى فى الوزارة الجديدة وتعهد سعادة حافظ رمضان باشا ، أمام اللجنة أن ينزل على رأيها ويحترم قرارها ولكن لم يمض على هذا العهد ، ثلاثة أيام حتى خرج عليه الأستاذ حافظ رمضان باشا باشتراكه فى الوزارة ، لذلك اجتمعت اللجنة الادارية يوم السبب ٢٩ يونيو بمكتب الأستاذ عبد المقصود متولى للنظر فى الأمر ، فرأت ان اشتراك معالى حافظ باشا فى الوزارة فى الملابسات المقدمة هو خروج على قرار اللجنة وعلى العهد الذى قطعه على نفسه وعلى مبادىء الحزب مما يستدعى اعتبارا متخليا عن رئاسة الحزب وعن عضويته ، فلهذه الأسباب قررت اللجنة الادارية للحزب الوطنى اعتبار معالى محمد حافظ رمضان باشا متخليا عن رئاسة الحزب وعن عضويته . ورد الأستاذ محمد حافظ رمضان باشا على البيان

ببيان ... ولم يقف الانشقاق الجديـد فى الحزب الوطنى عند قيادات الحزب الوطنى ، وانما امتد الى الكوادر فقد اجتمع مثلا رؤساء اللجان الفرعية للحزب الوطنى فى العباسية ، والدرب الأحمر ، والخليفة والسيدة ، ومصر القديمة ، والجيزة وامبابة بدعوة من حضرة عباس أفندى الزير ، وبعد أن وقف الحاضرون بالجلسة حدادا على المرحوم الدكتور عبد الحميد سعيد أصدروا قرارات جاء فيها تهنئة معالى حافظ رمضان باشا باسناد منصب الوزارة اليه وتجديد الثقة به ومطالبته بأن يعمل على عدم جر البلاد الى حرب لا مصلحـة لها فيها واعتبار القرار الذى اذاعه سكرتير الحزب الوطنى غير معبر ، عن آراء غالبيـة حضرات أعضاء اللجنة الادارية والجمعية العمومية للحزب اذان حضراتهم يؤيدون رئيس الحزب فى سياسـته الرشـيدة وكذلك طالب المجتمعون حافظ رمضان باشا بدعوة اللجنة الادارية للحزب الى الاجتماع للنظر فى قرار سكرتير الحزب وان يعقد الجمعيـة العمومية لتنتخب أعضاء هذه اللجنة ، وعقدت اجتماعات أخرى لتأييد القرار الخـاص باعتبار حافظ رمضان باشا متخليـا عن رئاسة الحزب الوطنى ، وتوالت البيانات من حافظ رمضان باشا، ومن عبد الرحمن الرافعى بك ... » (٢٨) .

وخلاف كبير آخر يقع سنة ١٩٥٠ ، وبالرغم من ان الرافعى شارك فيه أيضا مشاركة فعالة الا أنه لم يشر اليه فى مذكراته !

ونعتمد على فتحي رضوان لاستكمال هـذه الفجوة وهو يقول :
« ما كدنا نبدأ فى العمل مع رئيس الحزب حافظ رمضان حتى خرج من الشقوق جميع رجال الحزب الوطنى الذين هجروه وقطعوا صلتهم برئيسه سنين طويلة ، وخيل اليهم أن الحـزب سيتولى أمور البلد وان الفرصـة ستفلت من أيديهم فيما لو لم يسرعوا بالوقوف بجانب حافظ رمضان . وقرروا الوقيعة بيننا ولاشـك انها كانت مفاجأة مفجعـة لنا فى هـذا النفر الذى كنا نعده من الوطنيين ويسرهم أن تنبعث الحـركة والحيـاة فى الحزب . وكان يجب عليهم بحكم اخلاصهم ووطنيتهم أن يدركوا أنهم عجزوا عن أن يواصلوا الجهاد لسبب أو لآخر ، فاذا عمل على بعث الحزب عدد من أبنائهم فهم أول من يرحب ويباركون هذه الخطوة .

ويستطرد رضوان : ولم نحتمل كل هـذه الأمور . وفى النهاية قررنا أن نعمل وحـدنا وأطلقنا على أنفسنا (اللجنـة العليا لشـباب الحزب الوطنى) . ونشرنا بيـانا بالصحف فى ٢٨ يناير سـنة ١٩٥٠ كشفنا فيه الاخطـاء المستعصية بالحزب الوطنى ، ووعدنا أن نتحمل العبء للبلوغ بالحزب الى الكمال . وكان رد القدامى الخطير سريعا ، هو طردنا ! فنشر صباح اليوم التالى بالصحف . ان اللجنة الادارية العليـا للحزب اجتمعت

وقررت فصل موقعى بيان الأمس وهم فتحى رضوان ونور الدين طراف ومصطفى المنزلاوى وزهير جرانه من عضـــوية الحزب الوطنى • والحقيقـــة أن الذى اجتمع وقرر ونشر هو وحـــده الرافعى ! » •

ويشير محمد جمعه الى انشقاق شـــباب الحزب بقوله : « فتحى رضوان وزملاؤه جماعة من الشباب الوطنى لم يعجبهم منطق الكبار فى أن يسيروا رويدا رويدا لصالح مصر بل بريدون الدفعـــة القويـــة ، والتمسوا هـــذا لدى بعض الكبـــار مثل حافظ رمضان وعبد العزيز الصوفانى ، أما الذين استنكروا هذا الأمر فهم الرافعى وعبد المقصود متولى وفكرى أباظه والعقلاء بالحزب ، لأنهم أرادوا أن يحتفظوا بصورته منذ مصطفى كامل ، وقال الرافعى فى هـــذا المجال بمنطقه الهادىء ما يصحش يجىء أولادنا ويأخذوا اليافطة ويمشوا » •

ويصـــدر قانون تنظيم الأحزاب السياسية فى ٩ سبتمبر ســـنة ١٩٥٢ ويقضى ان تغربل الأحزاب القديمة نفســـها وتقدم اخطارات جديدة لاشهارها وكذلك لمن يرغب فى تشكيل أحزاب جديدة • وقدمت الأحزاب اخطـــاراتها التى بلغت ســـتة عشر اخطارا ، ومن بين هـــذه الاخطارات حزب جديد أطلق على نفسه « الحزب الوطنى الجديد » برئاسة فتحى رضوان وزير الارشاد القومى فى ذلك الوقت •

واثار اخطار رضوان ثائرة الرافعى ورفاقه ، وأقام عبد الرحمن الرافعى دعوى قضائية لالغاء الحزب الجديد ويذكر الرافعى عن هذا الحادث « وفى نوفمبر سنة ١٩٥٢ طلب الحزب الوطنى الغاء الحزب المسمى بالحزب الوطنى الجديد الذى ألفه فتحى رضوان ، واختصم الحزب الوطنى فى هذه القضية سليمان حافظ وفتحى رضوان ، وسميت هذه القضية (الاغارة على الحزب الوطنى) ، وقد ترافعت فيها مع المرحوم محمد زكى على أمام القضاء الادارى بجلسة ١٣ ديسمبر سنة ١٩٥٢ ، وقلت ان تأليف الحزب الوطنى الجديد هو محاولة الاستيلاء على الحزب الوطنى ، لا على اسمه فقط ، وقد أيدنا مفوض مجلس الدولة فى وجهة نظرنا وقال فى مذكرته ان على المحكمة أن تمنع الغاصب من استعمال اللفظ البارز فى الاسم ، وقد تأجلت القضية من جلسة الى جلسة الى أن أجلت للحكم لجلسة ٢٦ يناير سنة ١٩٥٣ ، وانتهت الخصومة فى القضية بجلسة ١٦ فبراير سنة ١٩٥٣ ، لصدور قانون حل الأحزاب السياسية ــ ١٧ يناير سنة ١٩٥٣ » (٢٩) ٠

أما الطرف الآخر الذى دافع عنه مصطفى المنزلاوى المحامى ، وأحد رجال الحزب الوطنى الجديد ، فيقول : « فى سنة ١٩٥٢ رأينا أن تحول اللجنة العليا لشباب الحزب الوطنى التى سبق ان الفناها سنة ١٩٥٠ من فتحى رضوان

ونور الدين طراف وأحمد شوقى ومحمود الحناوى وأحمد مرزوق وبرهان سعيد ومحمد ابراهيم كامل ــ وزير الخارجية سنة ١٩٧٨ ــ وأنا وغيرنا ، الى الحزب الوطنى الجديد وقدمنا أوراقنا على هذا الأساس . وعبد الرحمن الرافعى قدم أوراق الحزب الوطنى على أساس انه هو الحزب الوطنى الأصلى .

وفوجئنا بعريضة مقدمة من عبد الرحمن الرافعى عضو اللجنة الادارية بالحزب وأشار فى دعواه أن هذا الاسم لا يجوز للغير استخدامه أو الاضافة اليه لأن بقاءه يكون له أثر بلبلة فى الاذهان والناس ستتحير بين حزب وطنى قديم وحزب وطنى جديد ، وانه كان من الأولى أن يحدث كما يجرى فى حزب العمال فى انجلترا عندما اختلف أعضاؤه وظهر تيار جديد فقالوا الجناح الأيسر وبقى كأحد أجنحته ، ولكن حجة الرافعى فى هذا الجانب غير سليمة لأن الجناح الأيسر فى حزب العمال لم يفصل من الحزب وانما نحن فصلنا ، فكيف نقول الجناح الأيسر أو الجناح الجديد فى الحزب الوطنى ، وأنا أذكر هذه المرافعة التى رددت فيها على المدعى حتى تعجب محمد زكى على رحمه الله ــ زميل الرافعى فى المرافعة ــ لأنه كان مفروضا أننى أترافع عن فتحى رضوان وزير الارشاد القومى ابان حكومة الثورة حين قلت فى مرافعتى : ألم يكفكم ان تقوم الحكومة بوضع القيود على الأحزاب فتطلبوا منها المزيد وتقولون للحكومة تدخلى

وامنعى اسما معينا وحزبا معينا ألم يكفنا القيود الموضـوعة فى هـذا القانون • ان الأحزاب يجب أن تكون حرة طليقـة ولا تعارض بين حزبينا نحن نمثل مرحلة من مراحل نضال الحزب الوطنى وأنتم تمثلون مرحلة أخرى وجهدكم غير منكور ويكفى ما قمت به يا عبد الرحمن بك من تأليف موسوعة كبيرة فى تاريخ الحركة القوميـة ، حتى زميلى مصطفى الحنـاوى عندما كان يترافع لم ينس تقدير الرافعى قائلا : من المصادفات أن أكبر مؤرخينا يحملان اسم عبد الرحمن ، الأول الجبرتى فى القرن التاسع عشر والرافعى فى القرن العشرين • وكانت المرافعة تتسم بالأدب وتقـدير كل طرف للآخر وبالموضـوعية من الناحيـة القانونية » (٣٠) •

عمـله بالمحـاماه :

ألغى الرافعى الاتجاه الى الوظيفة الحكومية عقب تخرجه من مدرسة الحقوق الخديوية ، مع أنه كان سيعمل فى وظيفـة محترمة يرنو اليها الجميع فى وزارة (الحقانية) العدل ، لأنه وجد فيها مضيعة للوقت والجهد ! ولن تبلغه هدفه الذى اختطه لنفسه واتخذ من طريق الجهاد الوطنى سبيلا ومسارا لحياته •

وقد كانت كتاباته نفسها فى بداية عمله الصحفى ، دعوة صريحة وواضحة للشباب للاتجـاه الى الأعمال الحرة بدلا من التكالب على الوظيفة • واسـتمر طوال حياته يكره الوظيفـة

الحكومية ، ويرفض أن يغدو موظفا فى الميرى رغم العروض الكبيرة كما حدث خاصة فى وزارة العدل فى فبراير ١٩٢٩ وفى نوفمبر ١٩٣٢ .

ويقول الأستاذ مصطفى أمين عن مؤرخ مصر : « كان يتألم من حالة الانحلال فى البلد لأنه رآها فى مجدها .. ومن هذه الصور التى كانت تؤلمه تكالب الشباب على الوظائف الحكومية .. » (٣١) .

أنشئت مدرسة الحقوق العليا بالقاهرة فى عهد الخديو اسماعيل سنة ١٨٦٨ ، وكان اسمها فى البداية مدرسة الادارة والألسن ثم انفصلت الألسن سنة ١٨٨٢ ، واستقلت مدرسة الادارة حتى سنة ١٨٨٦ فصدر القرار الوزارى بتسميتها مدرسة الحقوق الخديوية ، وفى سنة ١٩٢٥ أنشئت جامعة الملك فؤاد - القاهرة حاليا . فاندمجت بها وصارت كلية .

وكان المحامون المصريون فى بداية القرن العشرين ثلاث جماعات ، الأولى تخرجت من مدرسة الحقوق المصرية ، والثانية درست الحقوق فى الخارج ، والثالثة تخرجت من الأزهر ولدى أصحابها القدرة على الخطابة والمجادلة القانونية .

وتخرج عبد الرحمن عبد اللطيف الرافعى من مدرسة الحقوق الخديوية فى يونية سنة ١٩٠٨ وكان ترتيبه الثانى

والعشرين على دفعته : وقيد اسمه بجدول المحامين ولم يبلغ سن العشرين • واشتغل محاميا تحت التمرين فى مكتب محمد على علوبه (بك) المحامى بأسيوط • ولما كان الوقت صيفا والمحاكم فى أجازة وصاحب المكتب فى المصيف فقد تولى تدريب الرافعى وكيل المكتب بوصفه محاميا مبتدئا ، واستاء الرافعى ، ولذلك لم يستقبل « تعليم » الوكيل بحماسه مما انعكس على مزاجه ، فبدأ يستنكف من مهنة المحاماة ولم تعجبه ! وفضل عليها التفرغ للعمل الوطنى والجهاد السياسى الذى ملك عليه قلبه ، فترك نفسه لما يأتى به القدر فى المستقبل • ويجىء القاهرة ويعمل مع الزعيم فريد فى تحرير جريدة « اللواء » ويستمر فى عمله الصحفى قرابة عام ، الى أن دعاه صديقه أحمد وجدى المحامى الى مشاركته فى فتح مكتب محاماة بالزقازيق مع استمرارهما فى الكتابة فى الصحف • وقبل وبدأ العمل معه منذ يناير سنة ١٩١٠ ، ولم يلبثا ان افتتحا مكتبا آخر فى المنصورة قريبا من ملتقى المحاكم تولى عبد الرحمن ادارته بأحد منازل شارع جمال الدين الأفغانى (حاليا أرض فضاء) جعل الدور الأول منه مكتبا لاستقبال زبائنه ، والثانى سكنا خاصا له • ويستقر فى المنصورة ويطول به المقام اثنين وعشرين سنة تقريبا منذ أكتوبر سنة ١٩١٣ ثم ينتقل منها نهائيا الى القاهرة فى ديسمبر ١٩٣٢ ويفتتح مكتبه فيها بالمنزل رقم ٢٢ شارع عدلى فى نفس الشقة التى كانت مكتب محام أيضا هو محمد زكى على

الذى ترك المحاماة لتعيينه مستشارا بوزارة العدل • ومن الطريف ان هذا المكتب ذاته انشأه فى الأصل الزعيم محمد فريد عندما كان محاميا ثم تركه لمحمد زكى على ! (واستمر مكتب الرافعى المحامى مفتوحا الى أن أغلق فى نوفمبر سنة ١٩٦٤ لمرض صاحبه ، وعقب وفاة الرافعى فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ بعامين أصبح مخزنا لمحلات ناصف للملابس بشارع شريف) !

والغريب فى أمر مؤرخنا انه عندما أصدر سنة ١٩٥٢ كتابه « مذكراتى » وعرض به شريط حياته تجنب الخوض فى جوانب عديدة من حياته ، منها عمله كمحام قرابة واحد وأربعين عاما !

والفترة التى قضاها الرافعى محاميا فى المنصورة تعد من أخصب سنوات عمره ، حيث بزغ نجمه وأصبح من خيرة المحامين بالمدينة ، لم يرفض قضية لفقر ، فكان يترافع فيها مجانا مما جعله شخصية محبوبة فى الاقليم ، وانعكس هذا الاعجاب فى التفاف الجماهير حوله ومساندته حين أقبل على ترشيح نفسه فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٤ ونجاحه •

وفى لقاء مع على عبد الله قرمد من رجال التربية والتعليم بالمعاش فى المنصورة ، يذكر من ذكرياته عن الرافعى وخدماته انه « حدث فى صيف ١٩١٢ أن شغل طلبة المعاهد الدينية والأزهرية فى قريتى أويش الحجر مركز المنصورة فراغهم بعقد

الاجتماعات والندوات من أجل مناقشة الأحداث الجارية فى البلاد ، فخشى عمدتها اليمانى الجمل ـ وله صلة قرابة بالراوى ـ من تصرفاتهم على وظيفته فمنعهم من ممارسة نشاطهم ، فكان رد الفعل أن هاجمه الطلبة باعتباره رجلا غير وطنى . وكان رده القبض عليهم عقب خروجهم من المسجد بعد صلاة العشاء واتهمهم بسب الملك فى منشورات وجدها معهم ! وقبض الخفراء على عشرين طالبا تم ايداعهم دوار العمدة ونقلوا فى الصباح الى المنصورة حيث عرضوا على النيابة العامة التى أمرت بحبسهم احتياطيا واحالة القضية المحكمة ، وخف الاهلون الى أحد المحامين (ك.ى) الذى استغلهم وجعلهم يعملون فى أطيانه خلال فترة نظر القضية التى استمرت منظورة قرابة أربعين يوما !

وحدث ان بلغ الرافعى مصادفة بالواقعة ، فاطلع على ملف القضية وحضر موعد نظرها وانتظر حتى انتهى المحامى الموكل من مرافعته ومطالبته بالافراج عن المتهمين ، ثم انبرى يترافع فلم يطلب كسابقه افراجا أو براءة بل قال أن القضية المنظورة ليست بقضية وان من الخطأ اعتبارها كذلك حيث لا مبرر قانونى لاقامتها ، وطلب قراءة البيان الذى كان مع الطلاب وكذلك اسماء الموقعين . وتبين لدهشة المحكمة ان حمد الباسل وعبد اللطيف المكباتى وآخرين هم الموقعون ! وفى هذه اللحظة تساءل الرافعى كيف يكون محررو البيان أحرارا طلقاء فى الوقت

الذى يكون فيه قراؤه سجناء • وهنا افرج القاضى عن الطلبة وحفظ الدعوى الجنائية ضدهم • وحاول الأهلون تقديم الأتعاب ورفض الرافعى بعد أن قدم هو اليهم تهنئته بوصفهم طليعة الشعب » (٣٢) •

ومن الطريف ، أن الرافعى عضو الحزب الوطنى ، المؤمن بأن مصر والسودان بلد واحد ، كانت له وهو محام مشاركة لم تتم بالنسبة الى السودان ! فما هى ؟

حدث أن ألغى الحاكم العام البريطانى فى السودان — وهى الوظيفة التى استحدثها الحكم الثنائى المصرى الانجليزى عقب القضاء على الثورة المهدية فى السودان سنة ١٨٠٨ وتولاها انجليزى بموافقة خديو مصر (٣٣) — فى يونيو سنة ١٩٤٨ مجلس الحاكم العام واستبدله بالمجلس التنفيذى وكذلك فعل بالنسبة الى الجمعية التشريعية التى حلها وشكل عوضا عنها المجلس الاستشارى • فاجتاحت البلاد ثورة عارمة لمقاطعة الانتخابات لأن القانون الصادر بهذا الشأن يرمى الى تثبيت الفصل بين شطرى الوادى وسقط ضحايا واعتقل الزعماء وقدموا للمحاكمة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ • وهنا اتصل الوطنيون السودانيون بنقابة المحامين المصريين طلبا للعون • ويقول الرافعى : ساهمت نقابة المحامين بمصر فى هذه الحركة على أثر برقية تلقتها فى نوفمبر سنة ١٠٤٨ من الأستاذ

محمد نور الدين وكيل الوفد السوداني يطلب فيها انتداب بعض المحامين المصريين للسفر الى السودان للدفاع عن الأحرار الذين احيلوا الى المحاكمة ، فقررت النقابة ايفاد بعثة مؤلفة من المحامين : مكرم عبيد ، عبد الرحمن الرافعى ، على أيوب ، على بدوى ، عبد الفتاح الشلقانى ، أحمد حسين ، على عبد العظيم ، صلاح عبد الحافظ ، حنفى عبود • وأبرقت الى الأستاذ نور الدين باستعدادهم العاجل للسفر الى السودان » (٣٤) •

كان من الطبيعى ان تضع السفارة البريطانية بالقاهرة العقبات أمام المحامين المصريين ! وهكذا من خلال السكرتير القضائى بالسفارة جاء الرفض بالتصريح لبعثة المحامين بدخول السودان ، بحجة عدم معرفة المحامين المصريين بقوانين السودان • وابتدأ الصراع بين الطرفين فالبعثة تصر على السفر ، والسلطات الانجليزية تصر على المنع • وتستقل البعثة الطائرة التى استأجرتها النقابة صباح ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٨ الى السودان • ولكن يبلغ قائدها وهو فى السماء أن يهبط فى مطار وادى حلفا وليس مطار الخرطوم •• وقد كان • واجبرت الطائرة فى اليوم التالى على العودة الى القاهرة بركابها • وتهبط البعثة فى أسوان ويستقل المحامون المصريون القطار الى العاصمة •

وتثور ثائرة الرأى العام فى مصر ، وتعم المظاهرات خاصة

فى المدن التى يمر بها القطار العائد بالمحامين ، وتستقبلهم الجموع الحاشدة فى محطة العاصمة يوم وصولهم ، استقبالا مشهودا • وكان لهذا كله صدى فى السودان ، وجرت المحاكمات فى جو استبدادى ، وامتنع المحامون السودانيون عن الدفاع عن المتهمين ، احتجاجا على تصرفات الانجليز وعلى منع زملائهم المصريين من الحضور الى السودان ، وقضت المحاكم الانجليزية بعقوبات شديدة على كثير من الأحرار السودانيين • وأضرب المحامون فى مصر يوم الأحد ٢٨ نوفمبر سنة ١٩٤٨ احتجاجا على هذه السياسة الانجليزية الغاشمة • ويعقب الرافعى على هذه الأحداث بقوله : « أن علينا واجبا وطنيا تقتضيه منا مصلحة مصر والسودان على السواء ، وهو أن نكافح كفاحا مستمرا لاحباط هذه التدابير وتحرير السودان من ربقة الاستعمار ، فاذا أدينا واجبنا فى ثبات واخلاص ومثابرة وصلنا ولا ريب الى غايتنا ، اذ لا تستطيع القوة مهما بلغت أن تقطع ما أمر الله به أن يوصل » (٣٥) •

ونستكمل صورة الرافعى المحامى ، باللقاء مع زملائه وأصدقائه المحامين • يقول مصطفى المنزلاوى المحامى بالقاهرة : « كان أستاذى الكبير عبد الرحمن الرافعى المحامى متواضعا رغم مركزه الكبير ، كان هدفه أن يكسب القضية ايمانا بحق موكله لأنه لا يقبل القضية الا بعد اقتناع • وكان يدرسها

دراسة كبيرة ويتخير الكلمات التى تبتعد عن اللفظ الحـاد وكان يترافع بهدوء ووضوح وأذكر أننى كنت اذا كتبت مذكرة أثناء التمرين بمكتبه ، فقلت مثلا عن الخصم انه يغالط أو يكذب ، يصحح الأستاذ الرافعى اللفظ ويعدله الى أن كلام الخصـم غير مطابق للواقع أو للحقيقة !

وكان الرافعى منظما فى عمله له مواعيد محددة لا يتعداها فى المكتب . والموكلون يعرفون مواعيده بالضبط فكان اذا انتهى من المحكمة فى وقت مبكر يعود الى مكتبه ، ويخصص جزءا من الوقت للاطلاع والكتابة فى مؤلفاته التاريخية . وكان اذا حضر الموكل ، ويستمع اليه الرافعى يدون بعض النقاط أثناء استماعه ، فاذا ما استوفى الموضـوع ووجد أن صاحبـه على حق قبل الترافـع .

وكان أستاذى محل تقدير رجال القضاء ، فكان اذا ذهب الى المحكمة من غير أن يطلب قضيته ، فرئيس المحكمة يسأله ما رقم قضيتك يا عبد الرحمن بك حتى لا تتعطل ، ويطلبهـا وينتهى من عمله فى المحكمة . وكان محل تقدير زملائه أيضا من المحامين ، وكمـا قلت كان عف اللسان ليس فى المرافعـة فقط وانما فى حديثه مع زملائه لا تصدر منه أى كلمة خارجة .

ويستطرد المنزلاوى فى حديثه قائلا : لقد أمضيت عنده

خمس سنوات من أكتوبر سنة ١٩٣٥ الى أكتوبر سنة ١٩٤٠ أمام المحاكم الجزئية ثم المحـاكم الابتدائية ، فلما قيدت فى أواخر سنة ١٩٤٠ فى الاستئناف العـالى رأيت أن اختار مكتبا بجواره فى نفس المنزل حتى تستمر الصلة بينى وبينه • وكنت أستعين بآرائه فى بعض القضايا التى أوكل فيها • وكان يعيننى أيضا ببعض من يعملون معه فى مكتبه ويسره ذلك •

وظلت صلتى به قائمة عندما كنت عضوا باللجنة الادارية للحزب الوطنى التى كان يرأسها حافظ رمضان وكنت اقابله فى جلساتهـا وفى الاحتفالات التى يقيمها الحزب فى المناسـبات الوطنيـة •

وأذكر أن ممن كانوا يعملون معه فى ذلك الوقت أحمد زكى محمود وحسين كامل وكمال رضا وكثيرين ، وقبلها تمرن عنده محمد على رشدى الذى أصبح وزيرا للعدل والدكتور محمـد زهير جرانه الذى أصبح وزيرا للشئون الاجتماعية والمواصلات وغيرهمـا •

وكانت القضايا التى يتولاها الرافعى بنفسه يقوم باعداد مذاكراتها • أما القضايا التى توزع على المحـامين تحت التمرين بمكتبه فكانوا هم يعدون لها المذكرات ثم تقدم اليه لمراجعتها وتعديل ما يرى تعديله فيها » (٣٦) •

أما المستشار حلمى شاهين الذى عمل بمكتب الرافعى منذ سنة ١٩٤٠ عقب تخرجه فيقول : « كان الرافعى يرفض قبول القضايا التى يراها لا تتفق مع ميوله واتجاهاته والتى يمكن بكلمة واحدة أن يحكم فيها بالبراءة كبطلان تفتيش أو توقيع غير صحيح أو طلب احالتها الى خبير • وبالاضافة الى انه لم يكن مغال فى أتعابه ، حدث أن اتفق مع سيدة فى قضية دعوى تعويض عن وفاة ابنها المضيف بشركة الطيران البلجيكية بالقاهرة فى حادث عندما اصطدمت سيارته وهو فى طريقه الى عمله بمطار القاهرة ليلا بسيارة نقل محملة بأسياخ حديدية تابعة لاحدى شركات النقل لوقوفها فى الطريق دون اضاءة • وقدمت له من الأتعاب خمسين جنيها على أن تسدد ثلثمائة جنيه بعد الحكم • وصدر الحكم بتعويضها بثلاثة آلاف جنيه ، وعرض على السيدة أن تستأنف الحكم حيث استأنف الخصوم أيضا ، وصدر حكم الاستئناف برفع التعويض الى سبعة آلاف جنيه ، فقمت معها بتنفيذ الحكم واتفقت معها الى رفع الأتعاب الى ألف جنيه واستقطعت ودخلت على الرافعى بمكتبه أقدم له المبلغ الا أنه ثار فى وجهى قائلا : ــ ايه ده يا أستاذ اللى أنت بتعمله ده ، رجع الفلوس لها تانى احنا ح نشترك فى دية ابنها ، فقدت ابنها وحيدها على خمس بنات تستكتر عليها سبعة آلاف جنيه ، رجع لها الفلوس تانى •• احنا مش ح ناخذ الا الثلثماية جنيه اللى اتفقنا عليها !

ويستطرد شاهين ان من وفـاء الرافعى لأصحابه انه كان يترك قضاياه بالقاهرة وينتقل للمنصورة للدفاع عنهم بلا مقابل ، ونفس المسئولية يقدمها مجانا لأعضاء الحزب الوطنى ! وقد أثرت يوما هـذا الوضع فسألته لم لا تكف عن الاستمرار فى هـذه القضايا التى تتعب فيها بلا مقابل ؟ فكان رد الرافعى بسيطا :

احنا مش بنزكى عن آنفسنا يا سيدى بدل ما ناخذ فلوس ونصرف الفلوس زكاة أدى احنا بنطلع زكاة قضايا علشان مش قادرين نطلع زكاة فلوس ! وكان الرافعى محاميا للأمير محمد على توفيق ولى العهد فى آخر أيام أسرة محمد على مقابل خمسين جنيها شهريا يترافع عن قضاياه من الاسكندرية حتى أسـوان ، ولم يجد فى قبوله لهذا الأمر أى مساس بوطنيتـه . ويوما أثرت موضوع ضآلة المبلغ مقابل ما يبذل من جهد فما كان من الرافعى أن رد :

ـ احنا مش شاتمين ومهاجمين أبوه الخديو توفيق أنت عايز الناس يفتكروا ان احنا بنغير رأينا .. لا .. لا .

ويذكر شاهين عن هذا الجانب ، ان صالح جودت روى له يوما انه التقى بالأمير محمد على توفيق .. وسأل صالح الأمير كيف يتعاون مع الرافعى فى الوقت الذى هاجم فيه المؤرخ أسرة محمد على ؟ فكان جواب ولى العهد :

ـ لادى راجل دوغرى • رجل نزيه • أنـا اللى بضحك عليه مش هو دا أنا بديله خمسين جنيه فى الشهر وأنا بشغله زى ما أنا عاوز !! »

ومن الطرائف التى يرويها عبد الرحمن الرافعى فى مذكراته عن تشابه الاسماء وعمله بالمحاماة « وقد حدث فى سنة لا أذكرها ان قرأ صاحب قضية هامة فى الصحف نبـأ تعيين عبد الرحمن الرافعى بك رئيسـا لنيابة مصر ، فانزعج لهذا الخبر ، وكنت وكيله فى هـذه القضية ، وكانت فى آخر مراحلهـا ، وظن أنه سيعتذر على أن أترافع فيها فى اليوم الموعود بعد تعيينى رئيسا للنيابة ••• وراح يبدى دهشته ويقول : كيف يقبل الرافعى ان يكون رئيسا للنيابة وهو الذى اعتذر عن منصب الوزارة ؟ وهرول الى مكتبى يسأل عن الخبر ليطمئن على قضيته ، فرآنى على مكتبى ، وأطمـأن بعد أن فهم أن رئيس النيابة هو ابن عمى » ص (٦٣٠) •

لم يعرف عن عبد الرحمن الرافعى تخففه من المشـاركة فى عالم المحاماة ونقابة المحامين التى لم يتخلف فى معظم الأحيان عن حضور اجتماعاتها حتى عندما كان مكتبه فى الاقاليم • وفى عهد حكومة على ماهر ـ زميل كفاحه ـ دب خلاف بين أعضاء مجلس نقابة المحـامين فصـدر قرار بحـل المجلس فى ديسمبر

سنة ١٩٣٩ . وتم تعيين مجلس جديد يمثل كافة الأحزاب وكان الرافعى من أعضائه وكيلا له .

ومر عام وأجريت الانتخابات الجديدة للنقابة واتفق المحامون من مختلف الأحزاب السياسية مع الرافعى على ترشيحه وكيلا واطمأن هو الى ان جاء يوم الانتخاب ، لكن المحامين الوفديين اسقطوه (٣٧) !

تعرضت حكومة الثورة فى العام الخطير ١٩٥٤ الى معارضة شديدة من المحامين الذين كرهوا الديكتاتورية وتكتلوا فى النقابة ، وقد حاول المسئولون تغيير ذلك بالحصول على تأييد مجلس ادارة النقابة ذات الأغلبية الوفدية ولكن باءت المحاولة بالفشل . وتصاعدت الأزمة بين الطرفين واجتمعت الجمعية العمومية لنقابة المحامين بصفة غير عادية فى يوم الجمعة ٢٦ مارس ١٩٥٤ وقررت مطالبة حكومة الثورة بالعودة الى ثكناتهم وترك السياسة للسياسيين ، فكان رد الحكومة حل نقابة المحامين فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٥٤ واختيار عبد الرحمن الرافعى نقيبا (٣٨) .

ويروى المستشار حلمى شاهين ذكرياته عن الاختيار . أن حماه تعمد ان يختار التشكيل الجديد لمجلس النقابة من النقباء والأعضاء السابقين بالنقابة ليمثل كافة التيارات .

وقد شارك عبد الرحمن الرافعى وهو نقيب للمحامين ، فى اجتماعــات المكتب الدائم للمحــامين العــرب ببيروت فى ديسمبر سنة ١٩٥٥ وفى مؤتمرهم بالقاهرة فى مارس سنة ١٩٥٦ • وقد بلغ من اهتمام جمال عبد الناصر بما أداه الرافعى ، ان حضر احتفالهم هــذا وقام النقيب بتقديم المحامين العرب اليه ، وفى العام التالى كان الرافعى ضــمن المدعوين فى مؤتمر المحــامين بدمشــق •

وزيــرا :

منذ أن أبعد عبد الرحمن عن الحياة السياسية سنة ١٩٢٦ لم يندمل الجرح الذى اصابه من حزب الوفد ، فاستمر طوال حياته يثير ما يشفى غليل صدره نحو حزب الأغلبية •• وعندما أعلنت معاهدة سنة ١٩٣٦ التى وقعها الوفد مع الانجليز عكف على ابداء رأيه نحوها ونشره فورا •

ومع ان الحزب الوطنى كان يشكل أقلية ضئيلة لا تكاد تشارك فى الحياة السياسية المصرية ، الا ان الرافعى ظل يكتب ضد المعاهدة ويتناولها فى كل مناسبة ويعرض لها أيضــا ابان عضويته بمجلس الشيوخ •

وحدث فى نوفمبر سنة ١٩٤٠ ان طلب حسين سرى من عبد الرحمن الرافعى الاشتراك فى الوزارة التى يقوم بتاليفها ،

فما كان من الأخير وطبقا للنظام المتبع بالحزب الوطنى ، الا أن عرض هذا الأمر على اللجنة الادارية للحزب ، والتى قررت عدم موافقتها على اشتراكه لأن الحرب الثانية قائمة والوزارة ستنفذ معاهدة سنة ١٩٣٦ ، واعتذر الرافعى (٣٩) .

وتمر تسع سنوات ، لنفاجأ بتغيير موقف الرافعى من الاشتراك فى الوزارة ! فيقبلها بعد أن كان يرفضها ! والحال هو الحال ! حدث ذلك عندما يعرض عليه للمرة الثانية ، حسين سرى فى صيف سنة ١٩٤٩ الاشتراك فى الوزارة . وبدون الرجوع للجنة الادارية للحزب الوطنى . يكتب مؤرخنا فى مذكراته عن الحوار الذى دار بين حسين سرى وبينه .. « واستوضحته برنامج الوزارة فأفهمنى انها وزارة قومية تعمل على توحيد الصفوف وائتلاف الأحزاب واجراء انتخابات حرة . الا توافق على ذلك ؟ قلت : بل أغتبط به وأؤيده ، ولكن ما هو موقف الوزارة تجاه معاهدة سنة ١٩٣٦ ؟ فقال : انى أعتبرها غير قائمة لأن البلاد أعلنت ذلك ، وان وزارتى مع أنها وزارة انتقال فانها متمسكة بالجلاء ووحدة وادى النيل ، فقلت : على بركة الله اقبل » (٤٠) .

وأصبح عبد الرحمن الرافعى وزيرا للتموين يوم ٢٦ يولية سنة ١٩٤٩ ! لقد فعل الرافعى ما كان يدين به غيره . والتاريخ يذكر له أنه تزعم يوما الجبهة المعارضة فى الحزب الوطنى ضد

رئيسه حافظ رمضان عندما قبل الأخير الاشتراك فى الوزارة سنة ١٩٣٧ ، وكرر ذلك سنة ١٩٤٠ لأنه لا يتفق مع مبادىء الحزب الوطنى الأساسية لقبول الوزارة فى ظل وجود الاحتلال القابض على مقدرات الحياة المصرية • لأن الوزارات المشكلة جميعها لعبة بين أصابعه فكيف يقبل لنفسه ما رفضه لغيره ؟

والحقيقة ان عناد عبد الرحمن الرافعى ، هو المسئول عن ضربه عرض الحائط برأى اللجنة الادارية للحزب القائمة اسما لا فعلا كما أنه بلاشك كان فى أعماقه تواقا الى التقدير من خلال الوزارة ، مع علمه الأكيد أن حسين سرى لم يكن صادقا فيما ادعاه من أن البلاد أعلنت عدم سريان المعاهدة أو من وقوفه ضد قوى الاحتلال •

ويفشل الرافعى فى اقناع الآخرين بموقفه وتورطه ومخالفته لمبادىء الحزب الذى يعد أحد قادته • يقول مؤرخنا فى مذكراته الشخصية أن زوجته نفسها سألته نفس السؤال الذى كان يردده الجميع ولايزالون يرددونه وهو : لماذا قبل الوزارة بعد أن سبق له رفضها ؟ فقال : ان الظروف تغيرت لأن برنامج الوزارة الجديدة لا يتعارض مع مبادئنا ، ومع ذلك فان الأمر لايزال فى دور المشاورة فماذا ترين ؟ قالت : أنى أرى ما تراه ، فلتقبل على بركة الله ، فارتاحت نفسى لهذا الجواب •

وعندما يسأله محمد ابراهيم جمعه نفس السؤال ، ولماذا اذن كان ينكر على حافظ رمضان دخول الوزارة اجابه : « ان الظرف الذى دخل فيه حافظ رمضان الوزارة يختلف عن الظرف الذى دخلت فيه ، لأن الوزارة السابقة كانت تبحث أمورا سياسية مع السلطة العسكرية الانجليزية فى الوقت الذى كانت فيه الوزارة التى دخلتها ادارية بحته المقصود منها اصلاح حال كثير من النواحى ومنها التموين الذى توليته لأن المواد الغذائية كانت تباع لاسرائيل عبر السودان » (٤١) .

ولا يمر هذا الحدث بهدوء ، أو عند مجرد عدم الموافقة ، فيطالب كبار رجال الحزب مثل محمد محمود جلال ومحمود العمرى وغيرهما ، الرافعى بالاستقالة فورا . ولكنه لا يقبل . ويعتب هو على ذلك بقوله فى مذكراته : « ولم يقنعانى برأيهما ، ولا أقنعتهما برأيى ، أما نظريتى فهى أن الأمر مرجعه الى برنامج الوزارة وسياستها ، ورأيت فى نظريتهما تشددا لم أقره ، وأنا بطبعى أميل الى الاعتدال ، وأراه أقرب الى نشر الدعوة الوطنية واجتذاب الأنصار اليها ، ومع اختلافى واياهما فى الرأى فقد حفظت لهما خالص الود والتقدير » (ص ١٣٣) .

على أية حال ، فان من الأعمال التى قام بها وزير التموين عبد الرحمن الرافعى ، اهتمامه بالمشاكل الشعبية . فعندما تعمدت شركة السكر انقاص المقررات على المواطنين مع تأخير ارسال الكميات فى حينها ، أصدر قرارا وزاريا رقم ١٤٤ بتاريخ

٢٩ سبتمبر سنة ١٩٤٩ نشر فى نفس اليوم بالجريدة الرسمية ، لتنظيم التوزيع ومعاقبة عضـو مجلس ادارة الشركة ، فانتظمت الأمور . وعندما حاولت شركات الغزل والنسيج رفع أسعار منتجاتها لشكواها من مزاحمة الأقمشة الأجنبية ، منعها من تنفيذ طلبها وقرر مجلس الوزارة زيادة التعريفة الجمركية على الأقمشة المستوردة .

وقد اهتم الرافعى بالقيام بجولات تفتيشية على المحلات كلما اتيح له الوقت بذلك فى القاهرة والاسكندرية .

ولم تستمر وزارة حسين سرى فى الحكم الا ثلاثة شهور وبضعة أيام واستقالت فى ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٩ بعد ان عصفت بها التيارات السياسية !

محـاضرا :

ومن أنشطة الرافعى .. المحاضرة . ودعى كثيرا للمساهمة فى القائها . كما استفادت الاذاعة المصرية بأحاديثه وأغلبها فى المناسبات السياسية .. وبدأت فى فبراير سنة ١٩٤٠ فى ذكرى مرور اثنين وثلاثين عاما على وفـاة مصطفى كامل ، واستمر فى ذلك حتى سنة ١٩٥١ .

ودعاه معهد العلوم السياسية بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٤ لتقديم مقرر دراسى فى التاريخ الحديث لطلابه . كما أشرف الرافعى على عدة رسائل جامعية .

اخلاقــه :

ولتربية عبد الرحمن الدينية فضل وتأثير كبير فى تدينـه واعتماده دائما على الله مما خفف عنه كثيرا الأحداث القاسية التى مرت به . وكان يحب أن يتمثل بيت الشــاعر أبى تمام فى قوله :

على انها الأيام قد صرن كلها　　عجائب حتى ليس فيها عجائب

ولاشــك ان من هــذه الأحــداث عدم تخصيص الزعيم سعد زغلول ســنة ١٩٢٦ دائرة مركز المنصــورة لعبد الرحمن الرافعى كما فعل للآخرين من الحزب الوطنى ، فلم يتقدم للترشيح لمجلس النواب ويقول فى مذكراته : « أصبت فى حياتى بصدمات كثيرة لا أريد أن أشغل القارىء بها . على أن أشــد صــدمة أصابتنى وقعت لى سنة ١٩٢٦ . كانت هذه السنة فى مجموعها فوزا للأمة ، وقد تحدثت عن تفاصيل هذا الفوز فى الفصــل الحادى عشر من كتابى (فى أعقاب الثورة ــ ج ١ ــ تحت عنوان اجتمــاع البرلمــان من تلقــاء نفســه وعــودة الحيــاة الدستورية) أما بالنسبة لى شخصيا ، فكانت السنة صــدمة بل محنــة كادت تؤدى بى لولا أن أعاننى الله عليهــا بالصبر والثبات » (ص ٥٧) .

وفى جانب آخر من مذكراته يقول الرافعى : « حرمت طيلة حيــاتى من معاونة الغير لى ، لم أجد معاونــة لى فى أعمــالى

ومشروعاتى ومنهجى فى الحياة ، لا من المجتمع ، ولا من الحكومات ، ولا من الهيئات ، ولا من الأفراد (الا القليل منهم) . كل كفاحى أو معظمه كان يسير بلا سند الا من معونة الله ، لم أنل من المجتمع ولا من الحكومات أى علامة تقدير لأعمالى ، لا أقول هذا طعنا فى المجتمع ، بل تقريرا للواقع ، وتحدثا بنعمة الله ، نعمة الصبر ، ويلزمنى أن أعترف بأننى ، الى جانب حرمانى من التقدير ، واجهت عقبات وتنكرا وجحودا من هنا ومن هناك ، وعلام كل هذا ؟ لا أدرى اذا كنت على حق يتنكر له الناس ، أم على باطل يتولى الناس تقويمه ، على كل حال ان اعتقادى أننى على حق وأننى كنت مغبونا فى قومى . قد أكون مخطئا فى اعتقادى ، ولكنهم يقولون : لكل مجتهد نصيب ، ان أخطأ فله أجر واذا أصاب فله أجران » (ص ٩٠) .

وكان للرجل جلد كبير فى تحمل قضاء الله وقدره ، يروى المستشار حلمى شاهين « عندما اختار الله وحيده لم يبك وان كان حزنه عليه شديدا ، وحدث بعد تقبله للعزاء ان اعتكف فى حجرته ودخلت عليه زوجته ، وفوجئت به يستمع الى الراديو فما كان منها الا أن اتهمته فى عاطفته . ولم ينبس الأب المكلوم الا أن يقول : انها ارادة الله . وفى اليوم التالى ذهب الى مكتبه يباشر عمله كالمعتاد » .

وحادث آخر يعكس هـذا الايمان .. مرض عبد الرحمن الرافعى بالشلل وعرضت عليه رئاسة الجمهورية العلاج بالخارج على نفقة الدولة . فرفض ! لسببين يعكسان بعض عناصر تكوينه بقوة : الأول ان ارادة الله واحدة فلا فرق أن يكون العلاج بالداخل أو الخارج ، والثانى ان اقتصاد مصر سنة ١٩٦٤ فى حاجة الى النقد الأجنبى الذى سيصرف عليه !

كان شـديد الحيـاء خجولا الى أبعد الحـدود ، قـال اسماعيل بيبرس عنه انه كان يخجل اذا سمع كلمة نابية ، فيحمر وجه هـذا الرجل الكبير ! ومصـداقا لذلك انه فى ابان عضويته بمجلس الشيوخ بجلسة ١٧ أبريل سنة ١٩٤٠ ، طالب بانخراط أبناء الأغنياء لا أبناء الطبقات الفقيرة وحدها فى التجنيد بالقوات المسلحة . وهاجمه الأعضاء ، وعلقت جريدة البلاغ فى عددها الصادر فى اليوم التالى تحت عنوان (الأغنياء يحتجون) بالقول : « وما كاد الشيخ عبد الرحمن الرافعى يذكر الأغنياء ويغادر المنبر حتى تلقته صيحات الشيوخ من كل جانب فى ضجيج وعجيج . فأحمر وجه الشيخ وقال وهو يخترق الصفوف الى مكانه .. قولوا اللى تقولوه : لازم الأغنياء يتحملوا جه دورهم ! » (٤٢) .

وامتاز عبد الرحمن الرافعى بالاصرار فى آرائه وتفـكيره ما دام يراها صحيحة ؛ فلم يكن من السهولة اقناعه برأى يخالفه ، وقد اعترف هو نفسه بذلك فى مذكراته .. ورأى فى المعاندة

عيبا ولكنه لم يستطع التخلص منه . كما كان غير اجتماعى مع انه محام مشهور ولصيق الصلة بالناس (٤٣) .

يكتب فتحى رضوان عن اتزان الرافعى قائلا : « كانت حياة مصطفى كامل كالسور القصار فى القرآن ، آيات قصيرة سريعة موسيقية ، وكانت حياة محمد فريد كالسور الطوال ، تفصل وتشرح وترسى القواعد ، وتؤصل الأصول ، وكان عبد الرحمن الرافعى أقرب الى هذا المزاج وأشبه به . فلم يكن أسلوبه فى الكتابة ولا منهجه فى الكلام أو المرافعة أو الخطابة ، ولا سعيه فى الحياة متوهجا حماسيا ، رنانا يخطف الأبصار بريقه ، ويستوقف الاذان وقعه . فاتصلت أسبابه بأسباب محمد فريد واقترب منه كثيرا» (٤٤) .

ومن السمات البارزه فى شخصيته انه جبل على حسن الظن بالناس ، دون الحذر منهم بالرغم من تعرضه مرات عديدة لشرهم ، فلم يقو على تغيير طباعه . كما انه كان مثاليا لا يؤمن بالواقع الحقيقى ، حتى فى الناحية السياسية ، وكانت النتيجة الطبيعية ان صدمه الواقع كثيرا .

وعرف الرافعى بالحفاظ على كرامته وكبريائه مهما كلفه ذلك وكان الذين حوله يعرفون عنه هذا التعصب بالنسبة الى كرامته ، ومن الحكايات التى تروى فى هذا الصدد ،

ما يقوله حلمى شاهين : ان مصـاريف عـلاج حماه من الشلل كانت باهظة التكاليف ومستمرة .. وبعد آن رفض العلاج على نفقة الدولة ، وفكرت الأسرة فى أن تحصـل له على معـاش استثنائى قدر بمائة جنيه شـهريا . وبناء على طلب الأسرة لم ينشر القرار بالصحف ! ولمـا كانت هناك اجراءات رسمية تحتاج الى توقيعه على المسـتندات ، وخشـية أن يعرف عبد الرحمن الرافعى بالأمر وعيناه تطالعان البيانات فيرفض المعاش ، أوهم أن الدولة قررت اعادة طبع مؤلفاته وستدفع مقابل ذلك عائدا شـهريا قدره مائة جنيه ، ويلزم الأمر توقيعاته على استمارات طواها عندما قدمها اليه . وبعد ان حمل الرافعى القلم سـأل زوجتـه : هل قرأت البيانات ؟ ولم يوقـع الا بعد أن أجابت بالايجاب . وتوفى الرجل من غير أن يعلم ان الدولة قد منحتـه معاشا استثنائيا !

منهجـه :

يقول عبد الرحمن الرافعى فى أحد كتبه وهو « فى أعقاب الثورة المصريـة » : « قصـدت فى كل ما كتبت وجـه الحق والصدق ، والمؤرخ فى طبيعة رسالته يشبه آن يكون قاضـيا : يفصل فى القضايا التاريخية التى يعرض لها ، وعليه أن يقتبس من القاضى روح العدل الذى يستلهمه فى قضائه ، فكما ان واجب القاضى ان لا يجامل فى الحق أحدا ، ولو كان أقرب الناس

اليه ، ولا يتحامل على أحد ، ولو كان أبغضهم الى نفسه ، فعلى من يتصــدى لكتابة التاريخ أن يتحرى الحق والانصــاف ، ويتجنب المجاملة والمحاباة أو التحامل فيما هو بسبيله ، هــذا ما اتجه اليه قصدى ، وانعقدت عليه نيتى . « وانما الأعمــال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى » [٤٥] .

هذا القصد يحمل بعض منهج مؤرخنا الكبير ، ولكن هل التزم عبد الرحمن الرافعى به ؟ كلا .. غالبا ! ويرجع ذلك بالدرجة الأولى الى تربيته السياسية منذ صباه فى أحضــان الحزب الوطنى وتلمذته المباشرة على الزعيم الأول والثــانى للحزب ، مصطفى كامل ومحمد فريد .

والتمــاس الرافعى نظرة الحزب الوطنى فى الحــكم على الشخصيات والأشياء ، طبع تاريخه بمسار خاص . ومن أشهر هذه المواقف اداتته لعرابى بالخيانة كما فعل الزعيم الشــاب . يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه : « .. وبمناسبة الحديث عن سير العظماء المصريين نجد أنفسنا مضطرين الى أن نأخذ على مصطفى كامل انه شوه كثيرا من سمعة عرابى ، ونظر اليه على انه خائن لبلاده ، وعبرت مقالاته تحت عنوان (عرابى أمــام التاريخ) عن هذا المعنى فى صراحة تامة » [٤٦] .

وكذلك موقف الحــزب الوطنى والرافعى الرافض من

الدعوة الى السفور التى قام بها قاسم أمين ، فقد كان رأى الحزب ان لا تتسرع المرأة المصرية فى محاكاة المرأة الأوربية بترك الحجاب ، ومن ثم هاجمه كثيرون فى جريدة « اللواء » هجوما شديدا .

واهتمام الرافعى البالغ بمعلميه الوطنيين ـ مصطفى كامل ومحمد فريد ـ جعله يرفعهما فى كتاباته الى مصاف الآلهة ، متجاهلا عيوبهما !

وقد اتسم منهج الرافعى أيضا : باختيار اللون الواحد ، وهو الخير غالبا ، كأن دعوة مؤرخنا المثالية تتحقق بذلك ! وعدم التزام الحيدة فى كتاباته ، فمجد أعمال الحزب الوطنى باستمرار حتى بعد أن أصبح حزب أقلية ، ولم يكتف بذلك .. بل جعل هذا التمجيد على حساب الأحزاب الأخرى . وناصب العداء فى أغلب الأحيان حزب الأغلبية وهو حزب الوفد .

اقتصر فى معالجته التاريخية على الجانب السياسى وقليلا على النواحى الاجتماعية والاقتصادية والفنية والتعليمية .. مما جعل كتابته تبدو مبتورة الملامح ، خاصة فى الأحداث التى عاصرها . واعتمد كثيرا على الصحف المصرية ، وهى كما نعرف لم تكن حرة فى أغلب حياتها فى التعبير عما تريد ، كما ان الأقلام الصحفية المرتزقة لقصر الدوبارة أو لقصر عابدين كان لها الغلبة فى تسويد الصفحات !

وقد دون الرافعي الأحداث في كثير من الأحيان دون التعليق على أسـبابها ومسبباتها •• وأغفل متعمدا تدوين الجمعيـات السرية والبطولات الفدائية ، خاصة التى شارك هو فى الاسهام فيهـا •

كما اتسم منهجه بأسلوب النصح والارشاد !

ومما يؤكد أيضا عدم التزام مؤرخنا بالحياد فى كتاباته ، ما رواه مؤخرا أنيس منصور « كانت لنا أيام •• فى صالون العقاد » وهو يحكى مجىء عبد الرحمن الرافعى لاحدى ندوات العقاد واسهامه فى الحوار ، وقوله باستحالة حياد المؤرخ •• « قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى : ولكن هـذا مستحيل •• ان هذا يشبه أن نقول للشاعر لا تكن عاطفيا •• أو نقول للرسام لا تكن حساسا •• أو نقول للمطرب لا تهتز أثناء الغناء •• ان المؤرخ اذا قال لنفسه •• يجب أن أنشد الصـدق والعدل فى كل ما أكتب • فهذا رأى وهـذا عهد •• وعلى ذلك فهو رجل أخلاق يريد أن يجعل من التاريخ درسـا وموعظـة وعبرة ، والا فما هى فائدة كتابة التاريخ ؟ •• لابد أن تكون هنـاك فائدة من الكتابة •• الفائدة هى الهدف • والمتعة هى الهدف الثانى • والمتعة التى يجدها القارىء هى التحية التى يقدمها للمؤرخ أما الصـدق فى التسجيل فهو التحية التى يوجههـا المؤرخ للقيم الأخلاقية والوطنية •• وأنـا لا أستطيع الا ان

أكون وطنيا أخلاقيا •• وأنا حين أسجل تاريخ مصر ، فأنا أكتب قصة حياة : أمي وأخوالي وأجدادي ، ومستقبل أولادي •• ولابد أن أكون بارا بأمي ، محبا لاخواتي ، رحيما بأولادي •• ولا أستطيع أن أكون محايدا اذا رأيت دم أمي يسيل •• أو اذا رأيت من يتآمر عليها •• وقد تكون هذه هي النزاهة العلمية •• ولكن لا أستطيع أن أكون منزها عن الغضب والحب والخوف •• قد لا أفزع اذا رأيت أحدا يذبح خروفا •• ولكن كيف لا أفزع اذا رأيت أحدا يذبح طفلا أو شعبا •• ان هذه النزهة العلمية هي بلادة حسية ، وبلاهة قومية •• فما دمت أنت محبا فأنت مغرض • ومادمت وطنيا فأنت مغرض • ولكن غرضك هنا شريف •• ان التاريخ يقول لنا ان العالم الفرنسي شامبوليون عندما اكتشف حجر رشيد كان يقبله •• ولو رآه أحد الناس دون أن يعرف من هو ، وما الذي يركع ويسجد أمامه لظنه وثنيا يعبد صنما •• ان حماسته العلمية قد جعلت منه عابدا لصنم •• عاشقا لاكتشاف جديد •• وأعتقد أن كل مؤرخ هو عاشق لشيء ما •• وأن هذا العشق الذي يوقظ وجدانه ، ويشعل فكره ، كثيرا ما جعله يفقد عقله أيضا » (٤٧) •

وفاته :

أصيب عبد الرحمن الرافعي في ١٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ بشلل نصفي في الجانب الأيسر من جسمه ، وتناوب على علاجه مجموعة

من خير الأطباء • ويقول محمد ابراهيم جمعه انه قام بزيارته مع مجموعة من الأصحاب ، فوجدوه باشا ضاحكا حامدا ربه وقال لهم : لقد أحسست بهذا المرض عقب أكلة لذيذة وما كنت أدرى أن بعض الطعام يضر كهذا والحمد لله انى مازلت أشعر بقوة الفكر والقدرة على الكتابة المريحة ! ولكن الأطباء منعوه منها الى أن يستطيع أن يقف على قدميه •

وكان الرافعى قد اعتاد هو ورفاقه من أعضاء الحزب الوطنى زيارة ضريح مصطفى كامل ومحمد فريد فى ذكرى وفاتهما • وعندما اكتشف فى أواخر سنة ١٩٣٩ تصدع ضريح الزعيم الشاب ساهم مع مجموعة من أصدقائه فى ترميمه • ولما انتخب عضوا بمجلس الشيوخ اقترح بجلسة ١٠ مايو سنة ١٩٤٤ تشييد مدفن جديد لمصطفى كامل الذى تم بالفعل اقامته فى أواخر سنة ١٩٤٩ فى ميدان صلاح الدين بالقلعة بالقاهرة ونقل اليه رفات صاحبه •

ولم ينس عبد الرحمن أستاذه الثانى فاقترح ابان عمله وزيرا للتموين بوزارة حسين سرى نقل رفات محمد فريد من مقبرته القديمة الى جوار مصطفى كامل فوافق مجلس الوزراء فى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٤٩ على ذلك ونقل الرفات فى مشهد مهيب •

وكانت أمنية عبد الرحمن الرافعى أن يدفن بجوار أحبائه مصطفى كامل ومحمد فريـد ، فلما توفـاه الله فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٦٦ اتصلت أسرته برئاسة الجمهورية لابلاغ وصيته ، فتقرر الاستجابة لرغبته • وشيعت جنازته الى مثواه الأخير ظهر اليوم التالى • ودفن الرافعى الى جوار الزعيمين وأعدت حجرة بالمتحف تضم مخلفاته منها المكتب والكرسى اللذان كانا يجلس عليهما فى مكتب المحاماة وبعض الكتب بالاضافة الى عدة صور تمثله فى مختلف أطوار حياته •

تكريم الدولـة :

كرمتـه الدولة فى حياته عندما رشحته لجنـة التاريخ فى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعيـة • وكان رئيسها وقالت لجنة الاختيار فى حيثيات تقريرها : « انه المؤرح الأول للحركة القومية فى مصر فقد عكف على دراسـة التاريخ وجمع وثائقه أكثر من ٣٠ سنة أخرج خلالها موسوعته التاريخية التى تضم ١٦ جزءا ، وكانت فى موضوعها أول مرجع لتاريخ الحركة القومية يمكن الرجوع اليه باللغة العربية • وللأسـتاذ الرافعى أسلوبه الخاص فى كتابة التاريخ وله صفاته المميزة فهو شديد العناية بالاستقصاء وجمع المـادة التاريخية أمين فى العرض صادق صريح فى الحكم على أحداث التاريخ وشخصياته مهما كلفه ذلك • ولاشك أن الأسلوب الذى عالج به موضوعاته فى

الوقت الذى ظهرت فيه مؤلفاته قد انطوى على قدر من الشجاعة لا يتصف به الا الجهابذة الصادقون من المفكرين ، ومن صفاته المميزة له اعتزازه لقوميته وغيرته على سمعتها وكرامتها وتحمسه للمواقف التاريخية المجيدة التى وقفتها القومية العربية ضد المستعمرين وأعوانهم » (٤٨) • فمنحته الدولة جائزتها التقديرية للعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦١ •

كما كرمه الرئيس السادات أيضا ، بمنحه فى ٢٩ مايو سنة ١٩٨٠ قلادة الجمهورية تقديرا لدوره وجهوده فى مجال المحاماة وكتابة تاريخ مصر •

المراجـــع

١ ـ **الدكتور عبد اللطيف حمزة :** أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ ٧ ط ١ ص ٥٢ .

٢ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** مـذكراتى ط ١ ص ٦ .

٣ ـ المرجـع السـابق ص ٥ .

٤ ـ **أحمـد أمـين :** حيـاتى ط ٣ ص ٢٣ .

٥ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** مـذكراتى ص ٧ .

٦ ـ المرجـع السـابق ص ١٠ .

٧ ـ حـديث خـاص

٨ ـ **صبرى أبو المجد :** أمين الرافعى ط ١ ص ٧ ، ٨ .

٩ ـ المرجـع السـابق ص ٤٩ .

١٠ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** مـذكراتى ص ١٧

١١ ـ حـديث خـاص

١٢ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** مـذكراتى ص ١٤٨ .

١٣ ـ المرجـع السـابق ص ٣٧ .

١٤ ـ الأخبـار عدد ٢٠ أغسطس ١٩٧٤ .

١٥ ـ حديث خاص مع المستشار حلمى شاهين .

١٦ ـ العلم عدد ١٢ ابريل ١٩١٢ .

١٧ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : محمد فريد ط ٣ ص ٢٥٨ .

١٨ ـ المصور عدد ١ نوفمبر ١٩٦٩ .

١٩ ـ **الدكتور محمد حسين هيكل** : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ط ١٩٧٧ ص ٥٢ .

٢٠ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ص ٤١ .

٢١ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : محمد فريد ص ٤٤٩ .

٢٢ ـ **الدكتور يونان لبيب رزق** : الأحزاب المصرية قبل ثورة ١٩٥٢ ط ١ ص ٢١ .

٢٣ ـ **محمد زكى عبد القادر** : محنة الدستور (١٩٢٣ ـ ١٩٥٢) ط ٢ ص ٣٨ .

٢٤ ـ الأهرام عدد ١٥ سبتمبر ١٩٧٨ .

٢٥ ـ حديث خاص مع محمد ابراهيم جمعة

٢٦ ـ حديث خاص .

٢٧ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : فى أعقاب الثورة المصرية ج ٢ ط ١ ص ٢١٤ .

٢٨ ـ المصور عدد ٨ اغسطس ١٩٨٠ .

٢٩ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : ثورة ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ط ١ ص ٥٥ .

٣٠ ـ حديث خاص

٣١ ـ حـديث خـاص

٣٢ ـ حـديث خـاص

٣٣ ـ **التيجـاني عـامر** : السودان تحت الحكى الثنائى ج ١ ط ١ ص ٧٩ .

٣٤ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : فى أعقـاب الثورة المصريـة ج ٣ ط ١ ص ٢٤٦ .

٣٥ ـ المرجـع السـابق ص ٢٥٠ .

٣٦ ـ حـديث خـاص .

٣٧ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مـذكراتى ص ١١١ .

٣٨ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ ص ١٣٦ .

٣٩ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مـذكراتى ص ١٠٩ .

٤٠ ـ المرجـع السابق ص ١٣٢ .

٤١ ـ حـديث خـاص .

٤٢ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : أربعة عشر عاما فى البرلمـان ط ١ ص ١٥٢ .

٤٣ ـ الهـلال عدد سبتمبر ١٩٥١ .

٤٤ ـ **فتحى رضـوان** : مشهورون منسيون ط ١ ص ٨٠ .

٤٥ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : فى أعقاب الثورة المصريـة ج ١ ط ١ ص ٥ .

٤٦ ـ **الدكتور عبد اللطيف حمزة** : أدب المقـالة الصحفيـة فى مصر جـ ٥ ط ١ ص ١٦١ .

٤٧ ـ أكتوبر عـدد ١٦ أكتوبر ١٩٨١ .

٤٨ ـ آخر سـاعة عدد ٧ ديسمبر ١٩٦٦ .

كتاباته الصحفية الأولى

١

كان من الضرورى لمواجهة الاحتلال البريطــانى وألاعيبه الكثيرة واصطفائه للأصدقاء والأعوان وأجهزة الاعلام ان توجد صحف وطنية تقدم وجهــة النظر الحقيقية والقوميــة للمواطن المصرى « الغلبــان » الذى يتعرض قبــل غــيره لكل ضغوط الاستعمار .. والذى كانت قضية حتمية للتيار الوطنى أن يتصدى أعلاميــا لهذه المؤامرة ، ومن هنــا ظهرت الحاجة الي ضرورة اصدار صحف وطنية تقوم بهذه المهمة .

والحقيقــة أن مصر باتت منذ أن استولى عليهــا الاتراك العثمانيون ولاية عثمانية يدين أهلها بالولاء وترنوا أفئدتهم الى

الآستانة بوصفها مقر الخليفة العثمانى • وعندما احتلتها انجلترا سنة ١٨٨٢ أصبحت سياسة الأخيرة قائمة على قطع السيطرة العثمانية • واستمرت بعض الصحف تقف الى جانب السلطان ضد الانجليز مثل « البرهان » و « الأهرام » و « المحروسة » • كما ساعدت الدولة العثمانية على اصدار صحف بمصر مثل « القاهرة اليومية » و « القاهرة الحرة » و « الفلاح » و « الصادق » • بينما كانت جريدة « المؤيد » على العكس من ذلك ، تدعو الى أن تكون مصر للمصريين ، والعمل على قطع العلاقة بالدولة العثمانية لما جرته على البلاد من خراب • وقد سعد الاحتلال بهذا الاتجاه الجديد وعمد هو من جانبه على تشجيع الصحف الأرمنية فى مصر ومساعدة اليهود على اصدار صحفهم وتأييد الصحف المصرية المؤيدة له « كالمقطم » و « النيل » لمناوأة الدولة العثمانية •

وازاء هذه التيارات المتصارعة فى البلاد « أدركت الصحافة منذ دخول الانجليز ــ على أقل تقدير ــ ان عليها واجبات وطنية لابد لها من القيام بها فكان عليها أن تدافع عن المصريين فى الميدان السياسى وتتصدى لمقاومة المحتلين ، وتهاجم سياسة التعليم التى وضعها الانجليز وأن تقوم باصلاح ما أفسده الاحتلال من أخلاق المصريين وطباعهم ، وكان عليها أيضا أن تدافع عن اللغة العربية على اعتبار أنها عنوان الشخصية المصرية

التى يجب أن تنفصل عن الشخصية العثمانية والشخصية الأوربية » (١) .

٢

ولم تعدم مصر من وهب حياته لايقاظ أبنائها من سباتهم العميق وتقويض دعائم الاحتلال التى منيت به البلاد .. وسطع فى سمائها منذ سنة ١٨٩٤ نجم مصطفى كامل بعد حصوله على ليسانس الحقوق من جامعة تولوز الفرنسية ، فأشعل الأفئدة المصرية بخطبه الوطنية ، وأدلى بأحاديث فى مختلف الصحف الأجنبية ، وكتب فى الصحف المصرية المهتمة بالقضية كالأهرام و « المؤيد » (٢) ، وساح فى أوروبا وزار البلاد المحبة للحرية للدعوة لقضية بلاده .

ووجد مصطفى كامل أن السبيل لاشعال جذوة دعوته باستمرار حتى لا تخمد نارها هو اصدار جريدة يومية ، وقد كانت هذه الفكرة هى التمهيد لاصدار مجلة شهرية وجريدة أسبوعية وجريدتين أحداهما بالفرنسية والأخرى بالانجليزية . « وقد رأى الفقيد أن لابد له من جريدة يومية يتصل بالرأى العام بواسطتها باستمرار ، ويغذى بها عقول القراء ونفوسهم ، ثم تكون علما للحركة الوطنية التى بعثها واقتاد زمامها ، وقد اختار لهذه الجريدة اسم (اللواء) ، فكان اختيارا موفقا ،

اذ كان اللواء هو الراية التى التف حولها الوطنيون سنين عديدة طول حياته ، وبعد وفاته ، وكان ظهور اللواء من آبرز أعمال الفقيد وأكبرها أثرا فى الشعب وفى الحركة الوطنية •• وصدر العدد الأول منه يوم الثلاثاء ٢ يناير سنة ١٩٠٠ (غرة رمضان سنة ١٣١٧ هـ) •• وأصدر مجلة أسماها (مجلة اللواء) ، وهى مجلة شهرية تشتمل على أهم المقالات التى تنشر فى جريدة اللواء اليومية ، وصدر العدد الأول منها فى فبراير سنة ١٩٠٠ ، وفى ١٩٠٥ أصدر جريدة أسبوعية باسم (العالم الاسلامى) كان ينشر فيها المقالات والأنباء التى تهم الأمم والدول الاسلامية ، وبخاصة تعريب ما تكتبه الصحف والمجلات الأوربية عن العالم الاسلامى • ولما بات من الضرورى أن يطلع الرأى العام الأوربى الأوربيون المقيمون فى مصر على حقائق الشئون المصرية وللدفاع عن حقوقها ، فقد أصدر مصطفى كامل أيضا فى مارس سنة ١٩٠٧ جريدة « ليتندار اجبسيان » باللغة الفرنسية وجريدة « دى اجبشيان ستاندر » باللغة الانجليزية ، وعقب وفاته فى ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ تولى الزعيم محمد فريد هذه المهام الصحفية جميعا » (٣) •

وقد عايش الطالب عبد الرحمن الرافعى ابان دراسته العليا ما يحيق بلاده من خطوب • ويجتذب طالبنا اهتمام صاحب

« اللواء » بمناهضته الاحتلال الانجليزى والوقوف ضد جرائم رجاله ومستشاريه وصنعائه من المصريين ، وتتفجر مشكلة بطلها دانلوب مستشار التعليم الانجليزى لاصداره قرارا تنظيميا للامتحانات لمنع طلبة الحقوق من العمل بالسياسة . ويضرب الطلبة فى يناير سنة ١٩٠٦ ويساندهم مصطفى كامل بقلمه ويفتح داره وصدره للطلبة ويلقاه الرافعى يوما مع زملائه وينفعل الرافعى بهذا الحادث ويكتب مقالته عن واقعة الأضراب، يقدمها له لينشرها فى جريدة « اللواء » ويعجب بها الأخير ومع ذلك يحجم عن نشرها ، لا لعدم صلاحيتها كما يتبادر الى الذهن بل خشية أن يتعرض كاتبها للاضطهاد . يذكر الرافعى : « وكتبت مقالة عن هذا الأضراب ، ذهبت بها الى مصطفى كامل يوم رجوعنا الى الدراسة ، وكانت لهجتها شديدة ضد الاحتلال ، فقرأها الزعيم ، وأثنى على ، ولكن فهمت من حديثه أنه لا يرى نشرها ، حرصا على مستقبلى ، وكانت هذه المقالة (التى لم تنشر) بدء مراسلتى للصحف » (٤) .

٣

ومن خلال لقاءات الرافعى المحدودة بمصطفى كامل فى دار اللواء لسماع خطبه ومناقشاته اكتشف الزعيم الشاب فى الرافعى اهتماماته الوطنية المبكرة ووجد فيه « مريدا » يرجى

له مستقبلا ناجحا فى المجـال القومى ، فشجعه على السير فى طريقه وعرض عليه أن يوفده بعد تخرجه الى باريس لدراسـة الصحافة ، ولكن المنية عجلت بوفاته قبل أن يتخرج الرافعى (٥).

ولقد كان موت مصطفى كامل وحزن الرافعى عليـه هو الباعث الأول لأن يكتب مقالته الأولى المنشورة التى قدمها اللواء وعنوانها « تبدد الشعور الوطنى وتجمعه » مهرها بامضـاء حقوقى ، أوضح فيها خواطره وآماله فى الجهاد ورغبته فى أن يستكمل النابغون من أهل العلم والفـكر ــ وهو منهم كمـا انتوى ــ السـير فى الطريق الذى بدأه معلمـه الزعيم الشاب « .. جئت اخاطب كل مصرى يفكر ويشعر . من كان يشعر بمصائب بلاده ويتألم من وقعهـا ويريد لأمته استقلالها فليقرن الشعور بالعمل وليأخذ فى زحزحة تلك المصائب واسترداد ذلك الاستقلال . فالعاطفة الوطنيـة اذا لم يصحبها العمل أصبحت عرضة للخمود اذا خمد المحرك لها والضـامن الوحيد لها هو اتخاذها شكلا عمليا به ترسخ وتؤثر وتزداد قوة وشدة . يجب علينا أن نعتقد أن العاطفة الوطنية ليست بمنيلة أمة الاستقلال ما لم تبلغ فى النفوس مكانة تلهم صاحبها الى ــ الاستقلال ــ وايثارة الموت على حياة فى استعباد . تلك الغاية التى يجب أن يجرى اليها الشـعور . فاذا نحن اجتزنا خطـوات كبرى فى شعورنا فمن المؤكد اننا لم نصـل بعد الى نتيجته ما دمنا لا نزال

راضين بأن نحيا والاحتلال فينا وذلك رغم تألمنا منه • هذه هى الغاية الشريفـة التى يجب على من يتألمون لحـال بلادهم ان يتكاتفوا على العمـل لها بتقوية الشـعور حتى يصل الى تلك الدرجة القصوى • هذا التكاتف يولد ظهور الجمعيـات التى تعمل لتحقيق هذه الغاية • فالجمعيات أول مظهر عملى للشعور الوطنى الصحيح وأجـل طريقة نخدمه بها ونحميـه من العبث والتبدد ••• » (٦)

وفى النصف الثانى من عام ١٩٠٨ يترك الرافعى أسـيوط للقاهرة ويلتقى بالزعيم محمد فريد الذى يدعوه الى العمـل محررا فى جريدة « اللواء » فيسارع بالقبول سعيدا بأن يعيش فى البيئة التى يريد أن يتحرك فيها •

وابتدأ المحرر الجديد عمله بحماس شديد ، وكان أول نشاطه عكوفه على الترجمة من الفرنسية التى يجيدها الى العربية وقام بترجمة مقالات اسماعيل شيمى بك وهو أحد الوطنيين ومن أصدقاء مصطفى كامل حيث ساهم مساهمـة فعالة فى تكوين الحزب الوطنى ويعد من خيرة المحامين المصريين الذين شـاركوا بجهدهم فى الدفاع عن المظلومين • وقد تناولت الترجمة الحياة السياسية فى مصر فى العقد الأول من القرن العشرين • يقول مثلا عن تأليف وزارة بطرس باشـا غالى فى نوفمبر ١٩٠٨ بعد استقالة وزارة مصطفى فهمى باشـا الذى استمر فى الحـكم

ثلاثة عشر عاما ، وكذلك مدينا سياسة الوفاق مع الانجليز التى تؤكد ضياع حرية مصر .. « كنا نؤمل فى أن نحكم أنفسنا بأنفسنا ، كنا نعمل لنثبت للعالم المتمدن كفاءتنا واستعدادنا ، ولكن حكم علينا الآن بأننا لا نستحق نعمة الدستور ، وهذا ما قاله الاحتلال على لسان السير جراى والسير جورست ، كنا نرتكن على عطف أميرنا المحبوب فى حصولنا على الدستور ، ولكننا ما أصبنا وخاب أملنا ، فان الاتفاق قد ساد فى هذه الأيام ، نعم قد صرح الجانب العالى حاكم مصر والسودان الذى تعلقت به آمال سبعة عشر مليونا من النفوس سكان هذين القطرين صرح بأنه لا يحكم الآن الا مع الاحتلال لا بدونه ، وأنى لا أتكهن فى قولى هذا ، فسمو الخديو قد قاله فى خطبته الأخيرة ، أن الأمير حر فى أن يشرك فى عرشه من يرضى عنه ، وليس لأحد الحق فى أرجاعه عن رأيه ، ولكن بما أن بيننا وبين ذلك العرش طريقا من ارادتنا لايمكن اجتيازه فليتكرم بمنحنا الحق فى أن نعتبر كل اتفاق يكون أساسه التصرف فى حريتنا ملغيا وباطلا ، ان الاحتلال ينخدع كثيرا اذا ظن أن فى استطاعته ان يقتل فينا كل رجاء فى مستقبل حسن ، فان محبة الأمير مهما عظم شأنه لا تختلف البتة عن محبة أى فرد ، وارادة الفرد لا تتغلب على ارادة المجموع . تطالب الآن الأمة كلها بالاستقلال وسنقابل من الآن كل القوانين الصارمة التى لا يألون جهدا فى سنها بالهتاف : ليحيا الاستقلال وليحيا الوطن كله واحدا

لا يتجزأ ، ولنتحين ساعة استقلالنا عاجلا أو آجلا ، فغايتنا شريفة ، وحقوقنا لا تسقط ولا تباع ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ، فاذا أردتم أن تخضعونا خضوعا لا قائمة لنا بعده فاجعلوا مصر قبرا لأبنائها . لقد أصدر الاحتلال حكمه علينا ، وأمن الخديو على ما فعل ، ووزارة الوفاق قد تألفت ، فلا مناص من ذلك التنفيذ . فلنجتمع صفا صفا ، ولنشيع الحرية مارة فى نعشها » (٧) !

وكانت كتابات اسماعيل شيمى بك المحامى آية فى البلاغة ، فأجهد الرافعى نفسه فى ابرازها فى ترجمتها للعربية ، وقد اغتبط محمد فريد بهذه الترجمة عندما كان يراجع معظمها ، وأخذ يشجع صاحبها مما كان له بليغ الأثر فى نفس الرافعى ودفعه الى المزيد من المعاناة (٨) .

٤

وكان يروق للصحفى الشاب أن يكتب عدة مقالات فى موضوع واحد فينشر فى الصفحات الأولى من « اللواء » فى أكتوبر ونوفمبر سنة ١٩٠٨ سلسلة مقالات بلغت ست تحمل عنوان « آمالنا فى الدستور » (٩) وقعها بخلاف مقالته الأولى باسمه « عبد الرحمن الرافعى ومتخرج من الحقوق » استهلها بقوله : « يتساءل الناس ماذا عسى يصير اليه أمر الدستور فى

هـذا العام بعد ما كثرت الأراجيف بأن ذوى الشأن متفقون على اهمال تلك المطـالب التى ينشرها المصريون من صميم قلوبهم . يتساءلون هل صحيح ما يسمعون وان كان صحيحا فماذا نحن فاعلون ؟ ان الدستور حق طبيعي لكل أمة مهما تدلت أو ارتقت لأن مثله مثل الحرية الشخصية للأفراد يتساوى فيها العـالم والجاهل والقوى والضعيف فاذا كانت قضيتنا قاصرة على تمييز المحق والمبطل لهان علينا الأمر ولسهل علينا نيل حقوقنا . لأن الفطرة تقضى بها والرسميات تقررها ولكن القضية أكبر وأعقد من ذلك بكثير . القضايا السياسية لا أهمية فيها للحق والباطل ولكن الحكم فيها معلق على مقدار تأثير كل عامل على غيره ، فالذى يسير القضية هو قوة التأثير لا قوة الحق اذا اشتبكت عدة عوامل فى قضية سياسية قام التنازع بينها فسطت العوامل القوية على الضعيفة وسارت القضية قاصدة وجهة العامل الأقوى مهما كان بعده أو قربه عن الحق . كذلك الحـال فى المسألة المصرية » .

ويحدثنا فى مقالته الثانية عن سياسة الاحتلال ازاء المسألة المصرية وظهور مقاومة الأمة « اذا منيت الأمة بالاحتلال الأجنبى واستبد فى شئونها أخذت ذاتياتها تفنى فى أشخاص المحتلين الى أن تأنس الأمة من نفسها نفورا من الاحتلال يدفعها نحو تلمس الخلاص منه » .

ويشير فى مقالته الثالثة الى أن هدف الاستعمار لا يتغير مهما تغيرت وسائله ، والاحتلال لا يصادم ظاهريا الطبائع ، « ورأس مال الاحتلال رضاؤنا عنه ، ان الذى ينقصنا هو أن نغضب ممن يغتصب حقوقنا وأن نعرف كيف نغضب منه » .

ويعالج الرافعى فى المقالة الرابعة ضرورة غضب الجماهير على محتليها ، مبينا الصلة بين الألم والاستقلال بحسبان الأول كما يعبر هو رأسمال الثانى ! وتأثير الألم فى النفوس ، وحجم رأس مالنا من الألم ، وفى أى دور نحن من أدواره ، والمحرك له : « اذا نحن القينا بنظرنا الى تدرج الأمم فى سبيل الاستقلال رأينا ان الأمة التى لا تتألم من المستبد تؤاتيه فى مطالبه فتتخلق بأخلاق الذل والجبن والنفاق وهى الأخلاق التى يستلزمها الانصياع لحكمه . فاذا هى ابتدأت تتألم منه أخذت عاطفة الألم تحارب العيوب التى ألصقها الحكم الاستبدادى بالنفوس وكلما ازداد الألم شدة انهزمت العيوب أمامه الى أن تتطهر القلوب من جراثيمها فيكسبها الألم قوة لا يسع المستبد مهما بلغ بطشه أن يصادرها لأنها تيار طبيعى لابد أن يأخذ مجراه حتى يسكن من نفسه ... ان المصائب والآلام خير أستاذ للانسان وخير سائق له فى طريق الكمال » .

ويواصل الرافعى الحديث فى مقالاته عما أصاب النفوس بعد الاحتلال من خور ونفاق ورياء فما حركتها صيحات الدعاة

والمرشدين لنقص احساسها ، وما اهتم الكتاب بعلاج هـذه الحالة بل بات أمرهم كتابة ما لا يبطنون ويراهم القوم من قمة الكتاب ، ويعتمد كاتبنا على الشباب فى تغيير هـذا الحال .. فلا تنهض بالأمم كما يقول الا القوى الفتية صاحبة الأرواح الكبيرة ويعنى بها الشخصيات النضالية الأصيلة . ويستعين بالاسلام ونبيه ورجاله فى تأكيد ذلك .. « فلو كان — محمد — عليه الصلاة والسلام ذا روح ضعيفة لمـا ظل محافظا لفضائله بين المفاسد التى علقت بالمجتمع فى ذلك العهد ولمـا عرض نفسه لاضطهاد قومه وايذائهم له بل لأنهزمت روحه أمام العقبات التى اعترضته فى طريقه .. تغلبت روحه القوية على تلك العقبات وتسلطت على أرواح قومه بعد جهاد عنيف لايزال التاريخ فى حيرة من تفسير حوادثه وفاضت على تلك الأرواح بجزء من قوتها فكان مكان هـذا الجزء كافيا لأن يجعل من قومه رجالا قلبوا بسلطاتهم وجه العالم فى فترة من الزمن » .

ويختتم الرافعى موضوعه بدعوة الشباب الى السير على هدى من سبقهم ، بالاتحـاد فى العمل من أجل رفعـة الوطن بالرغم بما يحوطهم من مخاطر ، مع الأخذ بسرية العمل واخفاء ما يطويه المصرى من مشروعات ، خوفا من أن يصل خبرها الى العدو المحتل فيعمل على افسادها قبل أن ترى النور ، وبذلك تفقد مصر باستمرار كل ما تأمل من اصلاح ، وهو عيب لايزال فينا من قديم لم تتخلص منه بعد .. « ما أشد حاجتنا الى احاطة

مشاريعنا وهى فى بدئها بالتكتم وما أحقنا أن نهتـدى بقول نبينا عليه الصلاة والسلام « استعينوا على قضـاء حوائجكم بالكتمان » . ها نحن نرى أعداءنا يتبعون ذلك المبدأ الشريف فى محاربتهم لنا وهم أشد منا ناسا وأكثر مالا وأعز نفرا . نرى الانجليز فى بلادنا لا يقدمون على أمر يحاربوننا به والا بعد أن يعدوا له المعدات فى الخفاء ويتشاوروا فيه وفى الخطـة التى يتبعونها فى تحقيقه فلا نشـعر الا والمشروع قد ظهر فى عـالم الوجود وصرنا معرضين لآثاره من غـير أن يكون لنا سابق تنبؤ به ونحن الضعفاء القليلو الحول والقوة لا نشرع فى أمر الا ونجاهر ونوقف الملأ على ما سنقوم به والخطـة التى نسير عليها . وبذلك نعطى لأعدائنا سلاحا يحاربون به كل مشروع يرون فيه عرقلة لمساعيهم ونياتهم لأنهم باطلاعهم على نياتنا وعلى المعدات التى نعدها يسهل عليهم أن يعملوا على احباط هـذا المشروع قبل أن يتحقق ويعرفوا موقع الضعف فيه أو بالأقل يمكنهم أن يأخذوا لأنفسهم الحيطة من نتائجه » .

٥

ونشر الرافعى ثـلاث مقـالات بعنوان « التاريخ يعيـد نفسه .. الدولة العلية وأوربا منذ ثلاثين عاما » (١٠) . يستعرض فيها وضـع تركيا السـياسى والحربى ومحاربتهـا لروسـيا وانتصار الأخيرة عليها ، وتدخل الدول الأوربية فى الحرب التى

انتهت بمعاهدة برلين ، وتحدث عن الحرب البلقانية الدائرة بين تركيا والبلقان حيث ساند الأخيرة الدول الأوربية للتخلص من التبعية التركية حتى قال المؤرخون كلمة صدقتها الحوادث وهى أن ميدان المسألة الشرقية فى الغرب لا فى الشرق • وينبرى عبد الرحمن الرافعى مدافعا عن الدولة العثمانية فى دعوتها لانشاء الجامعة الاسلامية فى مقالته « الجامعة الاسلامية والبانسلمزم والفرق بينهما » بعد أن هاجم المسيو برتران فى مقالته (نخبة رجال الشرق) الجامعة الاسلامية أو ما يسميه كتاب أوربا (بالبانسلمزم) ومنتظرا الفشل لهذه الدعوة ، لتباعد الشعوب الاسلامية عن بعضها » • « يفهم الأوربيون من البانسلمزم اتحاد المسلمين فى كافة أنحاء الأرض وتآمرهم على الايقاع بالمسيحيين واستئصال شأفتهم والقضاء على دولتهم ولهم الحق فى أن يحاربوا ذلك المبدأ الذى ليس من الاسلام فى شىء ولكن الجامعة الاسلامية أشرف وأعلى من ذلك بكثير • اذ هى تلك الرابطة أو تلك الآلية التى تجمع قلوب المسلمين على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وتبعث فيهم روح التعاضد والتعاون على النهوض بدولهم الى مستوى الأمم الحية الرشيدة فهى مبدأ شريف لا يصح أن يقابل من الذين يقولون انهم يغارون على تقدم الانسانية وتحريرها الا بالبشر والارتياح لأنه يرمى الى انهاض قسم كبير من العالم الانسانى وهو مجموع الأمم الاسلامية ، ان المسلمين يعملون على التعاون فى اصلاح ما فسد

من شئونهم الاجتماعية والسياسية ليستعيدوا فى الوجود منزلتهم السابقة » (١١) .

والحقيقة ان عبد الرحمن الرافعى لم يغفل يوما الكتابة عن الخليفة العثمانى القابع فى استانبول حتى بدا محاميا يترافع عن موكله الذى يؤمن بقضيته .. فينشر مقاله من تورينو بايطاليا فى سنة ١٩١١ عندما كان يصاحب محمد فريد فى احدى جولاته ، بعنوان « الأمم سيف واخلاق » يتحدث فيها عن معرض تورينو ، والأمم الأوربية والقوة الحربية ، وايطاليا وطرابلس الغرب ، وأوربا والاسلام ، وواجبنا نحو الدولة العثمانية ونحو أنفسنا فى حالة مهاجمة ايطاليا لطرابلس الغرب احدى ولايات الدولة العثمانية ـ التى وقعت فعلا بعد ذلك ـ ويدعو الرافعى العالم العربى ـ كما سبق أن دعا مصطفى كامل المصريون عندما أدلى بحديث لجريدة برلينر تاجبلاط فى ابريل سنة ١٨٩٧ « انه وان كان المصرى لا يعرف الا وطنا واحدا وهو مصر فمن الأمور الطبيعية المحضة أن يساعد المصريون جيش دولة الخلافة » (١٢) . الى التبرع للخليفة العثمانى : « .. ماذا يجب علينا ازاء هذا الخطر المحدق وماذا يطلب منا لنجعل لنا وجودا محترما بين الأمم ؟ أولا ـ نبذل ما نستطيع من أموالنا لمساعدة قوة الدولة العلية . ثانيا ـ ان نجتهد فى انشاء أبنائنا نشأة حربية ، هذا ما يجب علينا نحو الدولة ونحو أنفسنا وما هو بالشىء المحال أو البعيد المنال بدلا من

ضياع الآلاف فى أوروبا ـ فلنستفد من تلك الدروس التى تلقيها علينا الحوادث ولا نكن من الذين كتب الله عليهم أن يكونوا عبرة ومثلا للآخرين » (١٣) .

ولقد لاقت دعوة الرافعى للتبرع هذه استجابة قوية من الشعب المصرى فى العاصمة والأقاليم على السواء حتى لقد نشرت جريدة « العلم » فى عددها الصادر فى ١ نوفمبر ١٩١١ خبرا من عاصمة الدقهلية فى صفحتها الثانية بعنوان « اريحية السيدات بلجنة المنصورة » يقول : ذكرنا فى عدد أول أمس انه قد تألفت لجنة من فضليات السيدات المنصوريات لاعانة الدولة العلية تلبية لدعوة السيدتين الفاضلتين حرم حضرة طاهرى بك وكريمة حضرة قريعى بك وقد وجدنا أن نأتى على ما قيل فى هذا الاجتماع من الخطب .. ونشرت نص خطبة الفاضلة سعدية الزيات كريمة حضرة مصطفى بك الزيات ونص خطبة كريمة الدكتور أحمد بك فهمى ونص خطبة الفاضلة فاطمة يوسف وغيرهن وسننشر فى عدد الغد اسماء حضرات المكتتبات وما اكتتبت به كل منهن » .

ويبعث مرة أخرى من باريس بمقالة عن « التعصب المسيحى والدول الأوربية ، أوربا والدولة العلية والاسلام (١٤) . وأخرى بعد أسبوعين عن « الاسلام فى افريقيا ، ومسألة طرابلس الغرب والمسألة المراكشية » (١٥) . وقبل أن يغادر العاصمة الفرنسية يبعث بمقالة عن « الوطنية

والانسانية وكيف يفهمونهما فى أوربا » تحمل رؤية متقدمة لأنه يلتفت فيها الى أن ايمان الغرب بالحرية قضـــية داخلية وليست خارجية ، أى أنها للصالح الخاص بشعوبه وليس للصـــالح العام المتصل بالبشرية جمعاء وبذلك تصبح الحرية هى حرية القوى • « لقد امتزجت وطنية الايطاليين بظلم الأمم واضطهادها وضحوا فى سبيلها بسعادة الألوف منهم ، دخلت ايطاليا طرابلس مسوقة بدافع الرأى العام الايطـــالى مدفوعة بوطنية الأمـــة الايطالية وطنية اشربت استبعاد الأمم لا لسبب ســوى ما فطر فى قلوب أولئك الناس من الميل الى الطمع وسفك الدماء »[١٦] •

ولمـــا كان من عادة رجال الحزب الوطنى عند رجوعهم لمصر من أوربا أن يعرجوا على استانبول فقد اختتم محمـــد فريـــد وعبد الرحمن الرافعى رحلتهما الى أوربا بزيارة الخليفة العثمانى ومن هنـــــاك يبعث الرافعى بمقـــالة « يومـــان فى مجلـــس المبعوثين » [١٧] ـ لحضرة الأصولى الفاضل صاحب الامضاء ـ تحدث فيها عن حالة الأفكار فى الآستانة والصـــدر الأعظم فى المجلس •

٦

كان من عادة المندوب السامى البريطانى فى مصر أن يبعث كل عام لحكومته بتقرير عما قدمه من خدمات وأعمـــال من أجل

رفاهية الشعب المصرى كما يدعى الاحتلال • وعندما نشر تقرير السير الدن غورست عن الحالة فى مصر سنة ١٩٠٨ انبرى الرافعى للرد عليه فى سلسلة مقالات تحت عنوان « شئون تاريخية » (١٨) بلغت تسع عشرة مقالة بجريدة « اللواء » لم يمهرها بتوقيعه ، مدينا هذا التقرير وسياسة الاستعمار البريطانى ، يقول فى أولها : « ظهر تقرير ذلك العامل الصامت السير الدن غورست سنة ١٩٠٨ فتلقفناه متوقعين أن يأتينا بشىء جديد مستطرف أو مستظرف ولكننا ، تصفحناه فوجدناه لا ينحرف عن الخطة التى رسمها له سلفه اللورد كرومر وسار عليها فى أيام مقامه بهذه الديار ، لا نريد هنا أن نتعرض لما امتلأ به هذا التقرير من الاحصاءات والجداول الرسمية بالنقض أو الاعتراض فان لكل منها مقاما يوفى فيه حقه من ذلك ولكننا يجب أن نصف للقراء مصر والمصريين طبقا لما يؤخذ من ذلك التقرير ، كتب السير غورست تقريره وهو ينظر الى المصريين بالمنظار الانجليزى الذى كان يستعمله اللورد كرومر فلم يأمن الاتيان فى حديثه عنهم بالمتناقضات العجيبة التى ينبغى أن تصان عن أمثالها عبارات رجال السياسة المحنكين » •

وفى الأيام التالية يستمر عبد الرحمن الرافعى فى نشر سلسلة مقالاته فيعرض لثورة الأفكار فى مصر بعد الانقلاب العثمانى ، وموقف الحزب الوطنى من الانجليز والخديو ، والرأى فى قضية الطلبة والاشتغال بالسياسة ، ثم يعرض لحوادث

سنة ١٩٠٨ ووزارة مصطفى فهمى ، ومسألة الأزهر وحمادة باشا، والصحافة والشباب ، والصحافة والموظفون ، والصحافة وهيبة الحكومة ، والصحافة والتعصب الدينى ، والصحافة والرأى العام فى نظر غورست ، وجرائم الصحافة وعقوباتها بقانون المطبوعات سنة ١٨٨١ ، وأعمال مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية ، ومناقشة الحالة المالية .

٧

وكان عبد الرحمن الرافعى يرى من مسئوليات الكاتب الصحفى كشف مفاسد الاحتلال ، لذلك عندما طلب منه محمد فريد أن يقدم بحثا بالفرنسية فى هذا المعنى لالقائه بمؤتمر بروكسل كى يسمع أوربا صوت مصر الذى سيعقد فى ٢٢ سبتمبر ١٩١٠ (كان الزعيم قد اعتزم عقده فى باريس أولا ، ولكن الحكومة الفرنسية منعته فتم عقده فى بلجيكا فى موعده ، حيث دعا اليه عدد كبير من رجال السياسة والاقتصاد فى أوروبا) ، وفعل الرافعى . ولكنه لم يتمكن من السفر لتوليه رئاسة تحرير جريدة « العلم » بدلا من أخيه أمين الرافعى الذى سافر لحضور المؤتمر ، وقد ألقى الخطبة بدلا منه فؤاد باشا حسيب بجلسة ٢٤ سبتمبر . وقد ترجم الرافعى خطبته بعد ذلك الى العربية ونشرت فى مقالتين تحت عنوان « مركز الصحافة

فى مصر . والأدوار التى تعاقبت عليهـا فى عهـد الاحتـلال الانجليزى » (١٩) تناول فيها الصحافة بعد الاحتلال ، وسياسة اللورد كرومر ازاءها ، وحادثة دانشواى والصحافة ، وموقف السير غورست من الصحافة المصرية ومحاربته لها التى بدأت بالمحاكمات وبقانون المطبوعات عام ١٨٨١ ، والصحافة ومسألة قنـاة السـويس . والقوانين الجديدة الخاصـة بالصحافة ، والاحتلال والصحافة الأوربية .

٨

وكان الرافعى كثير النصح للشباب فى التوجـه الى الله وضرورة الاهتمام ببلده والعمل بحيطة وسرية للخـلاص من كابوس الاحتـلال الجاثم على صـدر الشعب ، ولذلك فهو يواصـل كتاباته الصحفيـة عن « الرأى العـام ورقابتـه على الأفراد » (٢٠) . داعيا رجال الغد الى دراسة النظم الديمقراطية فى الدول الأوربية ومجاراة شعوبها فى معاملتها الممتازة والحسنة لأبنائها وزعمائها المثاليين الصادقين الذين يقدمون كل جهدهم وعرقهم لرفعة وطنهم ، مع أخذ الموقف المضـاد ونبذ كل من يعمل ضد بلده لا كما يعامل الشعب المصرى من يخدعه فيتساهل معه ولا يقسو عليه ولا ينبذه . يقول مؤرخنا « يشاهد الانسان أمرا جديدا يستوقف النظر وهو ان رجال الطبقة الراقيـة الذين

يطلق عليهم اسم كبراء الأمة فى مصر قلما يهتمون فى سيرتهم وأعمالهم بحكم أمتهم عليهم فنراهم يقومون على المجاهرة بما يصادر رغائب الأمة ويعارض مصلحتها ، ومع ذلك لا يبالون أن يقول الناس عنهم أنهم أضروا بأمتهم أو انحازوا الى صفوف الأعداء . ومن الغريب أن معظم هذا الفريق قد تلقوا العلوم على نفس الطريقة التى يتلقاها الأوربيون وكثيرون منهم قد تلقوها فى نفس مدارس أوربا . ولكننا نرى الأوربى يتحدى لخدمة أمته ويهب فى سبيل ذلك ماله وصحته ، ونرى المصرى يستولى على مشاعره مبدأ المصلحة الشخصية . فلماذا هذا الفارق والاثنان قد نشآ نشأة واحدة ؟ اللهم ان السبب بسيط وهو أن الأوربى يجد من أمته رقيبا حسيبا على أعماله فاذا هو حاد عن الطريق الذى يتفق مع ارادة الأمة كان فى ذلك القضاء الأخير على حياته وحكمت عليه أمته بالانتظام فى سلك ما ماتوا الموتة الأبدية » .

ويستمر عبد الرحمن الرافعى فى تشجيعه للشباب ودفعه الى النهوض بمصر وبنائها ورفعتها ، ففى مقالته « النابغون فى مصر » يلفت النظر الى تعمد الاحتلال البريطانى تعطيل طاقة المتعلمين المصريين والقضاء على أنشطتهم الهادفة الى خدمة بلدهم ، فيطالب كاتبنا هذا الشباب بمقاومة هذا المخطط الاستعمارى ، كما فعل ويفعل وسيفعل غيرهم من الشباب الوطنى فى كل بلد تعرض للاحتلال .. « أما المرء اذا ضاقت به الحياة وأحس

بالحاجة الى الحصول على رزقه رأى فى نفسه قوة غريبة تدفعه الى الاتيان بأعمال يعجز عنها فى العادة ولم يعدم وسيلة يصل بها الى ادراك خاصة تلك النظرية الطبيعية التى تشاهد كل يوم دليلا على صحتها ليست خاصة بحياة الأفراد بل هى صحيحة أيضا فى حياة الأمم ، فالأمة التى تريد استقلالها ارادة صحيحة ـ مثلما يريد المرء أن يأكل ويشرب ـ تنبع فيها القرائح ويظهر فيها الرجال والكبار المعروفون باسم أبطال الحرية » (٢١).

ثم ينير الرافعى لشبابنا طريقه الوطنى « فى آمال مصر فى نشئها الجديد » بدعوته للاهتمام بمستقبل بلده عقب تخرجه من المدارس كما كان يكافح ابان دراسته ، لا تشغله حياته الخاصة عن حياته العامة والعمل على تحرير الوطن لأن على المرء ان يكافح ويناضل ضد كل المعوقات ، ويدعوهم لتتبع شباب مصطفى كامل للسير على طريقه من أجل مصر « .. ليذكر كل منهم ان رجلا كبيرا واحدا اذا ظهر فى أمة كان فى استطاعته أن ينشئها نشأة جديدة ويرفع ذكرها فى الخافقين وان كل انسان يصل الى منزلة كبار الرجال اذا طمح الى تلك المنزلة وعزم عزما صادقا على الوصول اليها . فاذا تحقق أملنا وتجنب الجيل الحاضر عيوب الجيل الماضى كان لنا أن نترقب ذلك اليوم السعيد الذى نرى فيه أفرادا ـ مهما قل عددهم ـ يعيدون فى مصر ما قام به أبطال الحرية فى البلدان جميعها » (٢٢) .

وفى مقالته « رجـال الغد » (٢٣) يتحدث عن الشـباب ومسئوليتهم المستقبلية ، ولذا فعليهم الاعداد لها ، وأولى وسائل هـذا الاعـداد هو التخلص من عيـوبهم وضعفهم • وكان عبد الرحمن الرافعى يكره مفهوم المثل الشعبى الذى يقول « ان فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » ويجد أن التـكالب على الوظائف الحكومية هو بداية طريق الافساد للشباب المصرى ، لأنه يجعلهم عبيد الوظيفة وعبيد الرؤساء الانجليز أو الموالين لهم من المصريين • وهكذا يطالب الأجيال الجديدة فى مقالتـه « هل ضاقت سبل الحياة فى مصر » (٢٤) بالانخراط فى الأعمال الحرة ، فهى ميدان فسيح يعتمد على الكفاءة والقدرة والحرية ، تعطى أصحابها شجاعة فى مواجهـة المواقف الخاصـة والعامة لأنهم لا يعتمدون على من فى يده المنح والمنع • ويجرى كاتبنا مقارنة بين وظيفة المحـامى فى فرنسا وزميله فى مصر ، فالأعمال الحرة لا تتطلب أكثر من الجهد والعرق لتعطى آكلها •

٩

عكف الصحفى عبد الرحمن الرافعى فى هذه الآونة على تناول الجانب الاقتصادى •• فبجانب كتاباته السياسية والوطنية أخذ ينشر بين أعوام ١٩٠٨ ، ١٩١٣ سلسلة جديدة عن الاقتصاد منها « حياتنا الاقتصادية فى خطر » (٢٥) فى ثلاث مقـالات ••

عرض فيها للاحتـلال السياسى والاقتصـادى وتراجع الأول وخطورة الثانى الذى يمنع استقلال البلاد ، واتهم الحكومة باهمال الاقتصاد الوطنى وعدم مساندتها لأبناء البلاد فى تطوير الصناعة الوطنية لتتخلص من سيادة وتسلط الصناعات الأجنبية، والدعوة للأخـذ بما فعلته اليابان بجهدهـا الذاتى واستفادتها بالتطور الأوربى واهمال الطبقة المتعلمة مساعدة الفلاح المصرى وتعليمه ما شـهدوه فى الخـارج من التعاونيـات والصناعات الريفية حتى لا يستمر سقوط الفلاح بين براثن المرابى الأجنبى ، وكذلك العمل على توعية هـذا المزارع حتى لا يسقط ضحية الشراب والخمور فى مجاراته للاقطاعيين ، ثم يعالج الأنظمـة الاقتصادية فى أوربا ويقارن بما يحدث فى مصر . ويكتب الرافعى أيضا « مسئولية الخاصة من الأمة » (٢٦) فى مقالتين مشيرا الى المتعلمين وتقليدهم بلا تفكير لمـا تعرض المدنية الغربية وتهالكهم على المنتجات الأجنبية مما أدى الى بوار المحليـة . وفى مقاله « الانقلابات الاقتصادية وكيف تمت فى أوروبا وفى مصر » (٢٧). تناول الوعى العمالى فى أوروبا وتأسيسهم للجمعيات الكثيرة التى تدافع عن مصـالحهم ، على العكس فى مصر . ويقول الرافعى « نحن أيضا قد فتنتنا زخارف المدنية الغربية فأردنا أن نقتنيها بأى وسيلة كانت فبذلنا فى سبيلها صناعتنا الأهلية وأقمنا على أنقاضها بناء الصناعة الأجنبية . فما أبعد الفرق بيننا وبين من نزعم اننا نقلدهم ونجاريهم فى مضمار التقدم والتضامن » .

ويكتب الرافعي سلسلة مقالات اقتصادية أخرى بلغ عددها ست تحت عنوان كبير هو « الميزان الاقتصادى فى مصر » (٢٨) ثم عناوين فرعية هي .. ماهية الميزان الاقتصـــادى ، الميزان فى عهد محمد على ، من عهد محمد على الى الاحتلال ، الأموال الأجنبية فى مصر قبل الاحتلال ، تقلبات الميزان فى خمس وعشرين سنة ، كيف يعتدل الميزان . ثم يكتب مقاله « الكماليات فى مصر ، وخسائر مصر من الدخان » (٢٩) . وأخرى عن « عوائق الصناعة الوطنية فى مصر » (٣٠) التى يقول فيها « قـــال أحد الكتاب الأوروبيين يصف حال بلادنا فى حرمانها من الصـــناعة واعتمادها فى ثروتها على نوع واحد من الزراعة وهو القطن : ان مصر تمشى فى حياتها الاقتصادية كما يمشى الاعرج على قدم واحدة وهى فى مشيتها هذه لا ترتكز الا على أصبع واحـــدة من أصابع تلك القدم . وهذا ابلغ ما يقال فى وصف الخطر الذى يهدد بلادنا من بقائها على تلك الحـــال . ان أمام الصناعة الوطنية عقبات وعوائق كبيرة بعضها آت من الحكومة وبعضها ناشىء من تقاعد الأمة واهمالها » .

المراجــــع

١ ـ **دكتور سامى عزيز** : الصحافة المصرية وموقفها من الاحتلال الانجليزى ط ١ ص ٣٣٣ .

٢ ـ **دكتور عبد اللطيف حمزة** : أدب المقـــالة الصحفيـــة فى مصر ـ مصطفى كامل جـ ٥ ط ١ ص ٨٤ ، ١١١ .

٣ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مصطفى كامل ط ٤ ص ١٤٥ ، ١٤٧ .

٤ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ط ١ ص ١٢ .

٥ ـ المرجـــع الســـابق ص ١٠ .

٦ ـ اللواء عدد ٩ مارس ١٩٠٨ .

٧ ـ اللواء عدد ١٧ نوفمبر ١٩٠٨ .

٨ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ص ١٥ .

٩ ـ اللـــواء أعـــداد ٤ ـ ٦ ـ ١١ ـ ١٧ ـ ٢١ أكتوبر ـ ٢ نوفمبر ١٩٠٨ .

١٠ ـ اللواء أعداد ٢٤ ـ ٢٥ أكتوبر ـ ٤ نوفمبر ١٩٠٨ .

١١ ـ اللواء عدد ١٤ مـــارس ١٩٠٩ .

١٢ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مصطفى كامل ص ٣٦٥ .

١٣ ـ العلم عدد ٦ أكتوبر ١٩١١ .

١٤ ـ العلم عدد ١٣ أكتوبر ١٩١١ .

١٥ ـ العلم عدد ١٦ أكتوبر ١٩١١ .

١٦ ـ العلم عدد ٣٠ أكتوبر ١٩١١ .

١٧ ـ العلم عدد ١ نوفمبر ١٩١١ .

١٨ ـ اللواء أعداد ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٣ ـ ١٥ ـ ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ ـ ٢٢ ـ ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٩ ـ ٣١ مايو ١ ـ ٢ ـ ٥ يونية ١٩٠٩ .

١٩ ـ العلم أعداد ٢٥ ـ ٢٧ اكتوبر ١٩١٠ .

٢٠ ـ اللواء عدد ٢٥ نوفمبر ١٩٠٨ .

٢١ ـ اللواء عدد ١٣ يونية ١٩٠٩ .

٢٢ ـ اللواء عدد ١٥ يونية ١٩٠٩ .

٢٣ ـ اللواء عدد ٢٠ يونية ١٩٠٩ .

٢٤ ـ اللواء عدد ٢٠ يولية ١٩٠٩ .

٢٥ ـ اللواء أعداد ١١ ـ ١٤ ـ ٢١ يناير ١٩٠٩ .

٢٦ ـ اللواء أعداد ٢٤ ـ ٢٨ فبراير ١٩٠٩ .

٢٧ ـ اللواء عدد ٧ مارس ١٩٠٩ .

٢٨ ـ الشعب اعداد ٢٣ سبتمبر ـ ١ ـ ٢ ـ ٥ ـ ١٠ ـ ١٤ اكتوبر ١٩١٣ .

٢٩ ـ الشعب عدد ٢٤ أكتوبر ١٩١٣ .

٣٠ ـ الشعب عدد ١٨ نوفمبر ١٩١٣ .

اهتماماته الفكرية الأولى

١

كانت مصر لموقعها الاستراتيجى على الدوام أحد مراكز الصراعات الدولية بين الدول الكبرى ، وخاصة منذ النهضة الأوربية وثورة التصنيع ، وقد اختلفت السبل لتحقيق أهدافها ما بين اهتمامات اقتصادية أو سياسية ، ونكبت البلاد بالسيطرة العثمانية فباتت ضمن ولاياتها المتخلفة بعد ازدهار . وتتابع فى حكمها الولاة من أسرة محمد على ، وتسرب النفوذ الفرنسى تارة والانجليزى أخرى على صوره المختلفة ، وبين ارتفاع أو هبوط من حاكم الى آخر، فبلغت السيطرة الفرنسية فى البلاد عنفوانها فى حكم سعيد عندما منح ديلسبس امتياز شق قناة السويس ، ورأت الحكومة فى تأييدها للمشروع استعادة لنفوذها الذى

فقدتـه منذ حمـلة نابليون (١) • وجاء الاحتـلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ وسيطر على مقدرات البـلاد فباتت مصر تدار من لندن بوصفها احدى مقاطعاتها •

وبلغ يأس النفوس ذروته ، الا أن البلاد لم تعدم من أبنائها من تولى بث روح الوطنية فى النفوس •• وبدأ مصطفى كامل جهاده ومن بعده محمد فريد وزملاؤهما • ومن الشباب الكثير الذى أثرت فيه تعاليم الزعيمين فتى خجولا غير اجتماعى كان طالبا فى مدرسة الحقوق الخديوية هو عبد الرحمن الرافعى جذبه العمل الوطنى بعد تخرجه ولم ينقطع عن السعى جاهدا لتطبيق مبـادىء الحزب الوطنى وتعاليم فريد، فى الربط بين العمـل السياسى والقومى والعمل الاقتصادى • فعكف على أصـدار مؤلفات ذات اتجاه وطنى فريد بالنسبة الى زمنها لتوعية المواطن المصرى ورفع مستواه السياسى والاجتماعى والاقتصادى ليقف على ما يدور فى العالم من أنظمـة مختلفة خاصة فى البلاد التى تعرضـت يوما للاحتـلال وناضلتـه بقوة حتى حصـلت على استقلالها • كما كان هدف الرافعى من وضع هـذه المؤلفات أيضا ، هو تحريض المصريين على تحطيم أسطورة الخوف من الاستعمار العملاق لزلزلة بنيان الطغيان والاضطهاد والاستبداد •

٢

فى « مذكراتى » الذى صدر فى عام ١٩٥٢ ، وأرخ فيه عبد الرحمن الرافعى لحيـاته يقول : « اتجهت نفسى منـذ سنة ١٩١٠ الى الجمع بين المحاماة والتأليف ، فقضيت أوقـات فراغى من المحاماة سنة ١٩١١ وأنـا بالزقازيق فى تأليف أول كتـاب لى وهو ، حقوق الشـعب •• ولقـد أعجب الزعيم محمد فريد بهذا الكتاب وهنأنى عليه قائلا : فى البلاد صحافة وطنيـة وينقصها التأليف الوطنى ، وقد سلكت هـذا السبيل فاستمر فيه وفقك الله » (٢) •

فما هى قصة هذا الكتاب الذى صدرت طبعته الأولى فى مارس سنة ١٩١٢ ، والذى يكاد لا يعرفه أحد ! ؟

أول ما يلفت النظر فيه ، هو نضج الرافعى آنذاك رغم ربيعه الثانى والعشرين ، ولعل اتزانه طوال حياته ، الذى دفعه بعد ذلك بسنين طويلة الى أن يكون مؤرخ مصر الأول ، الذى صاحب الفضل فى انعكاس هـذا النضج فى أول كتبه الذى كان منطلقه فيه رأى للزعيم مصطفى كامل •• « ان مصـدر المصـائب التى حاقت بوادى النيل كان جهـل أمته لحقوقهـا وواجباتها وانحلال أجزائها بموت الشـعور الوطنى فيها ، أن الاستقلال وحده هو الذى يحمى البلاد والممالك من كل بلاء ،

ويدفع عنها اعتداء الغير ويرقى مملكة الأفراد ويهب الشعوب الحرية والحكومة الدستورية والسيادة الداخلية والخارجية » •

الغرض من اصـدار الكتاب اذن هو انارة الطريق أمام المواطنين لفهم حقوقهم وواجبـاتهم بعد التمزق الذى أصـاب نفوس الشعب المصرى من سيطرة الاحتلال البريطانى على مقاليد الأمور ، واستعانته بالآته من العمـلاء فى تسيير دفة الحـكم الداخـلى لتنفيذ مخططـاته • كان عبد الرحمن الرافعى يهتم بتقديم تجارب الغير لشباب مصر الذين فى مقدروهم تقويض دعائم الاحتـلال وتحقيق الاستقلال بالتعاون وبذل الجهد فى أوقات الفراغ فى الأجـازة الصيفية لتوضيح وشرح مبـادىء الحقوق والواجبـات لغالبية الشـعب المصرى ، وهم أصحاب الجلاليب الزرقاء فى صورة محاورات سهلة الفهم والاستيعاب • فهذه الحقوق لم يسقطها الاسـتعمار من حسابه فحسب ، بل اسقطتها كذلك من مقرراتها مدرسة الحقوق الخديوية فى مصر ابان هـذه الفترة •• فلم تدرس لطلابها الا القشور • فى الوقت الذى يدرسها التلاميذ الصغار فى المراحل الأولى من التعليم فى البلاد الأجنبية ليشب النشء واعيا بحقوقه وواجباته •

لقد درس الرافعى كثيرا موضوعه قبل أن يمسـك القلم ويبدأ كتابه ، وهو يشير الى ذلك فى مقدمته التى يقول فيهـا « لقد بلغت عناية القائمين بشئون التعليم فى البلاد الحرة بتدريس

تلك المبادىء أن لا يكلفوا بوضع المؤلفات فيها الا العلماء الاجلاء القادرين على تبسيط تلك المبادىء وجعلها سهلة التناول لطلبة المدارس مع احتوائها على أرقى النظريات الدستورية التى وصل الى تقريرها العلم الحديث .. اما أنـا فلست من أولئك العلماء ولا أعد نفسى فى كفاءتهم فى وضـع هـذه المؤلفات ، ولكنى سجت على منوالهم ، واقتبست من أبحاثهم ووضعت هذا الكتاب على لسان فئة من طلبة المدارس يتباحثون فى مجتمع من سكان القرى فى حقوق الشـعب والنظريـات الدسـتورية ونظـام الحكومات الصالحة وكيف تصل الأمم الى استرداد حقوقها ، وكيف نضمن تمتعها بها . كل ذلك ليجد الطالب فى الكتـاب مجموعة تلك الحقوق والنظريات ويعرف كيف تنبت فى طبقات الأمة وماذا يعوزنا من العمل لنحصـل عليها » (ص ٥ و) .

وتتوقف قليلا عند مقدمة الكتاب ، لمـا تحمله من أفكار هامة تشغل بال المواطن المصرى والمصلح الاجتماعى فى ذلك الحين وتعكس ناحية من اتجـاه الرافعي الفكرى .. وتمثلت فى ثلاثة جوانب ، الأول ضرورة استخدام القوة لأية أمة تريد أن تعيش عزيزة المكانة : « حيت الأمة بالقوة وماتت لحرمانها من القوة ، وتغلبت بعضها على بعض بالقوة » . ويجعل الرافعى من هـذه الاشارة مفتاحا الى تفجير القوى التى لا تجد فى الانسان ، واستخدامها فى مقاومته لكل ما تثقل عليه من ضغوط .

ان الأخذ بالقوة يلزمه تعلم الفروســية والسباحة والرمــاية ، فالرسول عليه السلام حث المسلمين اهاتين الفضيلتين لأن فيهما ترويض للعقل وتنشيط للجسم وتغذية للعضــلات ، والتعود على اقتحام المخــاطر ، فتربية النشء المصرى لم تغرس فى قلبه الشجاعة والأقدام ، بل أورثته الخوف ، بعكس الشاب فى أوربا الذى تعود منذ نعومة أظفاره على اقتحام الاخطــار والمخاطر ، والسبيل الى تحقيق ذلك انشاء جمعيــات الصيد والقــانون المصرى لم يمنع تأسيسها أسوة بجمعيات الأجانب .

ويرى الرافعى أن على المثقفين مسئولية توعية الجماهير « جئت اخاطب اخوانى الشبان ورجال الغد الذين أعد نفسى واحدا منهم وأعتقد أن عليهم واجبا كبيرا هم مدينون به نحو الله ونحو الأمة وهو العمل لتحرير بلادنا » .. (ص . د) وأخيرا يدعو لضرورة الاستعانة بالتنظيم فى حياتنا حيث انه أساس كل ابداع خــلاق .

وتخيل الرافعى مجموعة من الشباب اختلفت طرائقهم فى تمضية الأجازة الصيفية فأغلبهم أمضوها فى احدى قرى محافظة الدقهلية . بينما سافر أحدهم الى أوربا ويكتب الى أصــدقائه بانطباعاته . ويقيم هــذا الشباب فى القرية ندوات يناقشــون فيهــا عدة قضــايا تثير الحوار بينهم وبين بعضهم وبينهم وبين المستمعين من أهــل القرية وبينهم وبين ما يحدث فى الخــارج

مما يبعث به صاحبهم اليهم وخاصة من فرنسا حيث النمـاذج كثيرة لممارسـة الحرية والديمقراطية • ومن القضـايا التى تعرض جوانب دسـتورية مع المقارنة بين ما يحـدث فى مصر وما يتبع فى البلاد الدستورية الحقيقية ، تشكيل الحكومة من الحزب الحاصل على الأغلبية وبذلك يكون الحكم فى يد الأمة لأن الحـكام هم وكلاؤها •• يسـيرون على هـدى القوانين الموضوعة ، والأمة تراقبهم فرضى الأمة عن الحكومة وسياستها من ضروريات بقائها • أما الحكومات الاستبدادية فهى تعتمد على قوتهـا وحدها أو على قوة تستمدها من احتـلال أجنبى لبلادها ، وسكوت الشعب عنها يزيدها ضراوة وشراسة ، فان اجتمعت الارادة والقوة فى يد الشـعب أزالت الاسـتبداد • ويستشهد فى المناقشة بما سارت عليه الحكومات الاسـلامية التى اعتمدت على تعاليم الله ورسوله فوضعت مبدأ حكم الشعب والأخذ بالشورى ، والمساواة بين الجميع • فطاعة الأمة للحكومة قائم على اتباع الأخيرة القواعد والشرائع ، واهتمامها بالشعب ليس فضلا بل ضرورة واجبة ، يرجع ذلك لحرص الأمة نفسها على مبدأ الشورى ، لأن استبداد ملوك المسلمين يرجع لانعدام روح الشورى فى القلوب • وحق الانتخاب العام يعد الدعامة المتينة التى تقوم عليها حكومة الشعب ، وتوزيع سلطة الدولة بين مجلسين تشريعيين من الأهميـة بمكان لتعاونهما فى وضـع القوانين والتشريعات : « فالحـكومة المصرية تصـدر القوانين

وتمجيها وتعدلها دون أن تحترم ارادة الشعب » •• وتستمر الندوات تناقش دور مجلس النواب والشيوخ فى مراقبة الحكومة ومسئوليتها أمامهما ، وحقهما فى عدم الثقة بالحكومة ، أو بأحد الوزراء ومسئولية رئيس الدولة والتضامن فى المسئولية الوزارية ، وطرق اكراه الحكومة على طاعة الأمة وحل المجلسين ودورهما فى مراقبة الوزارة واسقاطها ، وضرورة اقرار ميزانية الدولة بعد مناقشة كل بنودها • ويذكر فى هذا الجانب بما حدث فى مصر ابان حكم شريف باشا أيام الخديو توفيق ، وكذلك حين استطاع مجلس شورى القوانين أيام الاحتلال مع ضعفه ، احراج الحكومة بطلبه الاعتماد على الدستور ورعاية حقوق الأمة • وتشتمل الندوات الأخيرة على شرح الحقوق الشخصية ، والحقوق السياسية ، ودرجة الارتباط والعلاقة بينهما • وحظ مصر البسيط من كلا النوعين ، فشتان بين نصيب الأمم الدستورية ، ونصيب مصر منها فى ظل الاحتلال •• « ان القانون النظامى قد خول لنا حقيقة حق التظلم • ولكن ليت شعرى الى من تتظلم ؟ تتظلم الى من تتظلم منهم فكيف ننتظر منهم ان ينصفونا ؟ اما فى البلاد الدستورية فحق التظلم له نتيجة فعلية فهو وسيلة من وسائل مراقبة المجلس للحكومة» (ص١٦٢)• ففى ظل الاحتلال نجد العقارات الخاصة مصانة بقوة القانون ، بينما الأراضى الزراعية ليست كذلك ، لما للدائن الأجنبى من حقوق ، والملك العام تصرفت فيه الحكومات العميلة دون أن

يكون لشعب مصر صاحب الأرض الحقيقى رأى ، فبيعت البواخر الخديوية والأحواض بثمن بخس ، ولم تحترم الحكومة حرية التجارة والصناعة المصرية لما فيها من منافسة لمصالح الاستعمار ، والحرية الشخصية مبتورة لأنها تحت رحمة الحكومة فتقبضها وتبسطها طبقا لما تراه موافقا لمصلحتها . وما تدعى سلطات الاحتلال من تمتع المواطن المصرى بالحرية فسراب لأنه ليس من الحرية فى شىء . أما حرية الاجتماع والصحافة فقد قيدتا وتم اعتقالهما .

لقد أثارت ندوات الرافعى هذه العديد من الموضوعات ، فدعت لدراسة الاقتصاد الزراعى ، وأنشاء النقابات التعاونية الزراعية للحفاظ على الأملاك الزراعية ، ومقاومة ظلم الحكومات وعصيانها فالقيام فى وجهها من أقدس واجبات الشعب بأسره ، ورأت أن يكون حق الانتخاب عاما وضرورة تأصيله فى وجدان الجماهير استعدادا لبناء المجلس النيابى الحقيقى ، كما التفت الى أهمية الاهتمام بالقيد فى جداول الانتخاب مع دعوة الاكفاء لترشيح أنفسهم خدمة لمصر . والحفاظ على الدستور ضمانا لحرية الأمة وفى غيابه يستحيل أن يأمن الناس على حريتهم أو يتمتعوا بها لأن ما أصاب حرية الاجتماع وحرية الصحافة من الاضطهاد والمصادرة لأقوى برهان على أن الحرية بلا دستور عرض زائل ! وطالب الهيئات النيابية باستمرار احراجها للحكومة لنيل الدستور .

ومع أن موضوع الكتاب اجتماعى ، وصاحبه ليس أديبا الا أن أسلوب المعالجة كان فنيا يستهوى القارىء مطالعته . ولاشك أن عمل صاحبه بالصحافة افاده فى عملية الاقناع . فعبد الرحمن الرافعى لم يعتمد على مجرد الاجتماعات الدورية فى القرية لشرح المبادىء الدستورية للشعب بل أخذ يرتب اللقاءات بحبكة فنية تبعد الرتابة ؛ كما تمثل كذلك فى الرسائل الواردة من أوربا بما تحمل من لقطات عن الحياة الأجنبية المغايرة ، كما تستفيد مجموعة الأصدقاء أحيانا من الوقت بين ندوة وأخرى فى عطلة سريعة يقضيها البعض فى الاسكندرية فى السباحة ، والبعض فى قرية مجاورة لممارسة الفروسية والقنص ! .

ويستكمل الرافعى عنصر التشويق ، بتصوير الأحداث التى وقعت فى فترة غياب الأصدقاء ، من تجسيد معارضة عمدة القرية لمجموعة الطلاب ، فيوحى لأحد أتباعه المنافقين بعقد ندوات مضادة تشجع على الاستكانة والالتفاف حول الحكومة غير الوطنية فيقاطعها الجمهور من أصحاب الجلاليب الزرقاء الى أن يعود الأصدقاء !

كما كان لانتقال القضايا من داخل الحدود الى خارجها من خلال الشاب المصرى الذى يزور فرنسا أثرا فى تعميق ما يدعو اليه الرافعى ، ولاشك أن هذا الاتجاه هو أثر لثقافة المؤلف

الفرنسية . ولقد وفق الرافعى فى دعوته الى الاقتراب من القرية، ومعايشة أهلها والاعتراف بحقوقهم والحقيقة ان تجربته كانت فريدة ولقيت فى ذلك الوقت المبكر ــ سنة ١٩١٢ ــ اعجابا كبيرا وقبولا طيبا . فنجد مثلا فى العدد الصادر من جريدة « العلم » بتاريخ ٢٨ يونية ١٩١٢ بامضاء طالب فلاح ، ردا على بعض الشباب الذين كانوا يسخرون من دعوة الرافعى واضاعة الأجازات الصيفية فى خدمة القرية بأنها نوع من الازعاج وتنغيص العيش ، فيكتب صاحب هذا القلم محببا صدور كتاب « حضرة الأصولى عبد الرحمن أفندى الرافعى » .

٣

كان من مبادىء الحزب الوطنى الأساسية الربط بين السياسة والاقتصاد ليكتمل الجهد الوطنى وتخليص البلاد من براثن الاحتلال الذى بدأ اقتصاديا وهو يخطط فى أواخر القرن الثامن عشر للقضاء على اقتصادها وبيع مصانعها التى أنشأها محمد على لتكون نواة الصناعة المصرية بأبخس الأسعار . فانعدمت المشاريع وساءت حال المزارع المصرى ، والمرابى الأجنبى يستلب الأرض من الفلاح بعد رهنها بأبخس الأسعار ، حتى ارتفعت الأصوات بمجلس شورى القوانين سنة ١٨٩٤ داعية للحد من بيع الأرض للأجانب حيث بلغت قيمة الأراضى المرهونة

للبنوك العقارية الأجنبية وللأجانب مبلغا يزيد على عشرين مليون جنيه .

وفى سنة ١٩١٤ أصدر الرافعى كتابه « نقابات التعاون الزراعية . نظامها وتاريخها وثمراتها فى مصر وأوربا » اسهاما فى معركة تضع المصلحة غير الوطنية فيها ثقلها ، يقول فى مقدمة مؤلفه بتواضع عرف عنه .. « هذا وأنى لست مدعيا فى هذا الكتاب أننى ألممت بكافة المسائل التعاونية فان كتابا واحدا يقصر دون ذلك وانما قصدت أن يكون محتويا على أول ما يجب على المتعاونين معرفته فى مسائل التعاون . فان رأى القارىء منى تقصيرا فليحمله على هذا المحمل لا سيما وأن مجال الكتابة والتأليف فى التعاون لايزال فسيحا لمن شاء من الكتاب والمفكرين » .

وقدم هذا الكتاب من كتب الرافعى الى القراء أحمد لطفى المحامى ومستشار النقابة العامة للتعاون الزراعى والمنزلى بمصر .. « جاء الكتاب من أندر الكتب التى وضعت فى التعاون الزراعى اذ قليلا ما رأينا تآليف فى التعاون شملت كل هذه المعلومات وجمعت فى بعض مئات من الصحف أهم المسائل التعاونية ، فهو جدير بأن يكون مؤلفا عاما ينتشر فى مصر وفى الخارج لينتفع به كافة المتعاونين من غير هذه البلاد وليقرأه بالذات جميع الذين تهمهم الحالة والحركة الاقتصادية بمصر » .

ويبدأ المؤلف عرضه بالخطوات الأولى للحركة التعاونية فى أوروبا فى القرن التاسع عشر وغرضها الأساسى الوقوف ضد مستغلى انعمال الزراعيين والصناعيين ، فانشئت الجمعيات التعاونية لحمايتهم . الا أن نظام التعاون لم ينجح فى البداية فى نطاق الصناعة كما حدث فى المجال الزراعى وذلك لتعدد أنواع جمعياته . ثم ازدهرت الجمعيات الزراعية فى منتصف القرن التاسع عشر ... واشتهر منها تاريخيا فى ألمانيا جمعيات شولس وليس ورايفيزن ، وانتشرت الأولى فى المدن الصناعية والثانية بين الزراع والبيئات الزراعية . وقد ساعدت الحكومة الألمانية جمعيات التعاون عامة والزراعية خاصة . وبعد ألمانيا ظهرت الحركة التعاونية فى ايطاليا فى مجال الصناعة أولا ثم فى الزراعة ، واشتمل التعاون على البنوك والصناديق الزراعية الكاثوليكية وجمعيات التعاون الانتاجى وجمعيات شراء حاجيات الزراعة بالجملة ، والتأمين على الماشية والحرائق والاصابات والطوارىء وحماية المزروعات من البرد . أما فى النمسا فقد بدأ التعاون ببطء سنة ١٨٥٠ ثم زاد نشاطه بفضل أحد دعاة التعاون وهو هرمان زيلر حيث وحد جمعيات التعاون فى نقابة واحدة عرفت بنقابة اتحاد جمعيات التوفير والتسليف . وقد شملت الدولة التعاون برعايتها واهتمامها فأصدرت قرار سنة ١٩٠٢ بجعل التعاون الزراعى اجباريا . وتتابعت الحركة فى فرنسا والمجر والدانمرك التى وجدت فى الأخيرة أزهى مراحلها

وعد التعاون فيها من أعظم وأرقى النماذج فى العـالم ، حتى أصبحت محط انظار العالم ، والى التعاون يرجع الفضل الكبير فى رقى الدانمرك وشهرتها التجارية ، لأن التعاون فى البلد الزراعى يعد من الضروريات • بدأ الاهتمام به بين صغار المزارعين بعيدا عن الاستعانة بالدولة ، معتمدين على أنفسهم تماما • ونافست سويسرا الدانمرك فى هذا المجـال ، حتى عدت فى مقدمة البلاد التعاونية التى قدم فيها النظام التعاونى مزيدا من الرفاهيـة والخير للمزارع السويسرى حتى أصبح أسعد مزارع بأوروبا مع عدم خصوبة أرضه • وتصل الحركة التعاونية الى انجلترا سـنة ١٩١٤ ، ثم الى ايرلندا ازدهرت الحركة فى ظل نظـام بلنكت • كما عرفت روسيا القيصرية النظام التعاونى ، وكذلك بولندا •

وينتقل عبد الرحمن الرافعى من الخـارج الى الداخـل فيدرس الحركة التعاونية فى مصر ، ويناقش عيوب النظام الزراعى بشطريه ؛ نظام التسليف الحكومى وشراء الحاجيات الزراعية وبيع الحاصـلات للأجانب • وما جره هذا النظام على البـلاد من خسائر لم تتحرك الحكومة لملافاتها •• بينما تحرك الوطنيون لمجابهة ما أصيب به الاقتصاد المصرى ، وبدأت بشائر التعـاون الزراعى فى مصر بفضل عمر لطفى سنة ١٩٠٨ ، ثم خلفه اخـاه أحمد لطفى ، وينتقد المؤلف عيوب القانون الذى أصـدرته

الحكومة سنة ١٩١٣ والمسمى بقانون الخمسة أفدنة ، وكذلك مساوىء التشريع الجديد للتعاون الصادر سنة ١٩١٤ الذى ضيق الخناق على الحركة التعاونية !

واحدى القضايا الجديرة بالنظر فى هذا الكتاب ، احتفال عبد الرحمن الرافعى الكبير بالبلاد التى تتشابه ظروفها وظروف مصر من احتلال وانهيار ، كايرلندا وبولندا وفنلندا فى السنوات الأولى من القرن العشرين . وكأن الكاتب يعطى درسه بطريق غير مباشر للمتخاذلين أو المتشائمين من المصريين .

وقد عدد الرافعى مساوىء التدخل الرسمى فى النشاط التعاونى . واختلف معه أحمد لطفى ورد على تخوفه فى مقدمة الرافعى بأن التعاون فى بدايته يحتاج الى مساندة الحكومة !

ولكن نعرف بعد ذلك ان الرافعى غير رأيه فى هذا الصدد ، فوافق على مشاركة الحكومة فى ميدان التعاون . ويروى الدكتور ابراهيم رشاد فى كتابه « مذكرات مجاهد تعاونى » ان عبد الرحمن الرافعى فى عام ١٩٢٠ ، أيده فى ضرورة مساهمة الحكومة فى المجال التعاونى عندما كتب أبو التعاون الدكتور رشاد تقريره عن انشاء ادارة التعاون بوزارة الزراعة التى كلف بانشائها وادارتها بعد عودته من ايرلندا وكمبردج ، وقدم نسخة من هذا التقرير للرافعى .. كتب الأخير : « فقد

انتهيت الآن من قراءة مذكرتكم فى تنظيم حركة التعاون ، فأعجبت بها اعجابا كبيرا ، لأنها فى الحقيقة جمعت بين المبادىء والنظريات الفنية الصحيحة ، والطريقة العلمية النافعة . وانى أهنئك بهذه الخدمة الكبرى التى قمت بها للتعاون بوضع هذه المذكرة . وانى موافق على اقتراحك فى الخطة التى رسمتها » (٣) .

٤

وانتظر القارىء ثمانى سنوات ليصدر عبد الرحمن الرافعى كتابه الثالث « الجمعيات الوطنية » عام ١٩٢٢ . عندما أعلن الرئيس الأمريكى ويلسن فى يناير سنة ١٩١٨ عند دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب الأولى ، مبادئه الأربعة عشر .. ونادى بحرية الشعوب جميعها فى تقرير مصيرها ، كانت غبطة الرافعى لا تقدر لعاملين : الأول اتفاق كاتبنا مع ويلسن فى نظرته للسلام ، والثانى اطمئنانه الى أن اقرار مبدأ تقرير المصير ، هو الذى سيضع النهاية لاحتلال الانجليز لمصر . ولكن هذه المبادىء العظيمة لم تلبث أن تبخرت فى الهواء ، وتهرب منها صاحبها نفسه . كما أن المجتمع الدولى المتمثل فى عصبة الأمم ، رفض أن تعرض قضية مصر على مؤتمر السلام المنعقد بباريس بل وأيد الاحتلال الانجليزى لمصر فى معاهدة فرساى بتاريخ ٧ مايو سنة ١٩١٩ !

وكانت صدمة للملايين ومنهم الرافعى الذى تأكد أنه لايزال أمام استقلال بلاده الكثير من النضـال فى الكثير من الميادين . فعكف فى عـام ١٩٢٠ على نشر سلسلة مقـالات بجريـدة « الأخبار » تحت عنوان « جهاد الأمم فى سبيل حريتها » . وشارك فى تعميق الصدمة « حادث » عام يبدو بعيدا ، ولكنه بالنسبة للرافعى كان شديد الوطأة عليه وهو استقبال الشعب المصرى لسعد زغلول استقبال الأبطال عند عودته من أوربا بعد نفيه الى مالطة ثم الافراج عنه وذهابه الى باريس لمؤتمر السلام الذى رفض ادراج القضية فى جدول أعماله . « وفى أوائل عام ١٩٢١ عاد سعد الى مصر ، فقامت البلاد نساؤها وشيوخها وشبابها تستقبل زعيمها البطل رافع علم استقلالها ، وكان ذلك اليوم المشهود يوم دخل سعد القاهرة فى موكب لم يحلم به قيصر ، ويوم ازدحمت شرفات المنازل والفنادق بالمتفرجين وبلغ ايجار المقعد فيها عشرين جنيها » (٤) . آلمـه هـذا الحادث ، اما باعثه الحقيقى فهو تأكيد قيادة سعد للجماهير فى مصر الذى يجعل زعماء الحزب الوطنى فى الظل .. أما الباعث الآخر الذى أقنع نفسه به فهو خداع الساسة للشعوب ! على أية حـال فى يناير سنة ١٩٢٢ جمع عبد الرحمن الرافعى مقالاته التى نشرها فى صحيفة « الأخبـار » التى كان يرأس تحريرهـا أخوه أمين الرافعى واستعان بها فى اصدار كتابه « الجمعيات الوطنية . صحيفة من تاريخ النهضات القومية » (٥) . والقارىء الذى

يطالع هـذا الكتاب اليوم بعد مرور أكثر من نصف قرن يشعر جيدا بما كان يعتمل فى كيان الرافعى وهو يكتب كلماته متغنيا بحب مصر ورغبته فى تقديم عصـارة وتتاج فكره الحر لمواطنيه ليساهم معهم فى تحرير وطنه من الغاصب المحتل .. « هـذه هى الجمعيات التى عنيت ببحثها وعزمت أن أقدم للقراء صورة صغيرة من تاريخهـا ونظامهـا وأعمالها وجهودها وآثارها فى النهضات القومية والتقلبات التى تعاقبت عليها والحوادث التى اتصلت بها . اخترت الكلام عن أهم هـذه الجمعيات وأكبرها أثرا فى تاريخ الشعوب وهى نموذج لمـا تبذله الأمم من الجهود فى سـبيل تحريرها من رق العبودية ومقاومة الاخطـار التى تتهدد كيانها وتدعيم حياتها المستقلة على أرقى القواعد السياسية والاجتماعية » (ص أ) .

ويقدم فى الكتـاب ، الثورة الفرنسية ، ومراحلهـا التى حفظت للمواطن الفرنسى حريته ، ثم استقلال الولايات المتحدة سنة ١٧٧٤ ، والجمعيات الوطنية الألمـانية التى تكونت عقب هزيمتها فى الحرب الأولى وأحالت الهزيمة والانكسار الى صمود وثبات وتقدم . « هذه الأمة المجيدة التى كانت عظيمة فى عزها ظهرت أيضا عظيمة فى هزيمتها ومصابها » (ص ١٩٩) . ويتابع الكتاب الأحداث التى ألمت ببولندا وهى تحت سيطرة المحتلين ، وجهود أبنائهـا فى استـغلال كل فرصـة مواتيـة لمناهضـة

الاستعمار مع كل ما تعرضوا له من اضطهاد وابادة ، فينشئون الجمعيات السرية والأحزاب السياسية للحفاظ على وحدتهم فى الداخل والخارج .. نعم فقد استطاع البولنديون المهاجرون الى أمريكا أن يرفعوا صوت بلدهم فى العالم الجديد لتصل الى كل أنحاء المعمورة .. « فان قلب الانسانية كان ينبض اشفاقا على تلك الأمة العظيمة التى برهنت للعالم على أن السياسة اذا أفلحت فى القضاء على الممالك والدول . فانها لا تستطيع أن تنال من الأمم . وأن المعاهدات والمؤتمرات اذا استطاعت أن تمحو الحدود الجغرافية للممالك وتبدلها وتغيرها . فانها لا تستطيع أن تمحو الحدود المعنوية للشعوب الحرة اليقظة . أجل كانت بولونيا المثل الأعلى لثبات الأمم فى جهادها الوطنى اذ برهنت على تلك الحقيقة الأزلية وهى أن الحكومات تمر وتزول والأمم تبقى وتدوم » (ص ٢٧١) .

وتكون آخر لمسات الجمعيات الوطنية متصلة بالحركة الوطنية فى الأناضول والجمعية الوطنية فى انقره ، ومقارنته بينها وبين الحركات التحريرية الأخرى .. « ولكن يجب أن لا ننسى ان موقف الأمة التركية أصعب بكثير من موقف فرنسا فى عصر الثورة الفرنسية ذلك أن فرنسا كانت ترد عادية أعدائها وهى مستجمعة لقواها وفى يدها عاصمتها وحكومتها وجيشها وأسطولها . أما الأمة التركية فقد نهضت وهى محرومة عاصمتها

وأسلحتها وجيوشها وحصونها • قامت والعدو محتل أهم مواقعها الحربية قابض بيده على عاصمة ملكها ومفاتيح بلادها ومستول على حكومتها • وكانت فرنسا تحارب دولا أضعفها الاستبداد وفساد الحكم • أما الأمة التركية فقد قامت فى وجه دول راقية منظمة قوية خرجت فائزة رابحة من الحرب العامة • فالفرق بين الموقفين كبير •• وهناك أيضا شبه كبير بين الحركة التركية وحرب استقلال أمريكا فى القرن الثامن عشر • والجمعية الوطنية فى أنقره تشبه فى كثير من الوجوه المؤتمر الأمريكى الذى أعلن الاستقلال وتولى تنظيم الجهاد الوطنى •• أما تركيا فقد نهضت منفردة وحاربت وحدها أعداءها الكثيرين • ومن أجل ذلك نالت احترام العالم المتمدين والشرق والغرب » (ص ٣٧٥) •

ويشير فتحى رضوان الى أهمية هذه الكتب الثلاثة لعبد الرحمن الرافعى التى باتت مجهولة للعامة والخاصة بقوله « ولسنا نحب أن نجارى هذا الاتجاه العام ، الذى قصر دور عبد الرحمن الرافعى على التأريخ لبلاده ، ونرى أن من حق تاريخه وتاريخ مصر الحديثة علينا أن نتحدث عن كتبه الأولى التى لو اتصل صدور مثلها ، وراجت الأفكار التى انطوت عليها بين صفوف الشباب وسهل عليهم أن يحصلوا على زاد منها ويتأملوا فيها ، ويفيدوا منها ، لانحسرت موجة الأمية السياسية

التى سادت بلادنا منذ كمل الاجهاض الوطنى فى أعقاب ثورة ١٩١٩ ، هـذا الاجهـاض الذى جعل غـذاء الشباب المصرى الثقافى ، ومعينه الفكرى مجلات تكتب بالعامية السوقية وتملأ صفحاتها وأنهارها بأخبار الزعمـاء الخاصـة ، وبالفكاهـات الجافية والتعليقات المبتذلة ، الى آخر سـمات هـذا الجدب الروحى الذى لانزال نعانى من آثاره حتى اليوم » (٦) .

المراجع

١ ـ **دكتور عبد العزيز محمد الشناوى** : قناة السويس والتيارات السياسية التى أحاطت بانشائها ج ١ ط ١ ص ١٤٢ .

٢ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ط ١ ص ٢١ .

٣ ـ **دكتور ابراهيم رشاد** : مذكرات مجاهد تعاونى ط ١ ص ١٢٨ .

٤ ـ **محمد التابعى** : ألوان من القصص ط ١ ص ١١٧ .

٥ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ص ٤١ .

٦ ـ **فتحى رضوان** : مشهورين منسيون ط ١ ص ٨٩ .

اهتماماته الوطنية

بالرغم من سيطرة الاحتلال البريطانى على مصر فى بداية القرن التاسع عشر وقضائه على المقاومة الوطنية التى انتهت بهزيمة عرابى ورفاقه ، ومحاكمتهم ونفيهم خارج البلاد ، وما تسرب الى النفوس من يأس من انبلاج نور الحرية (١) ، الا أن كثيرين دفعتهم الوطنية الى مهاجمة الاستعمار .. فى الصحافة والاجتماعات والندوات وتطعيم النشء فى المدارس بمقاومة الدخلاء وبث روح النضال فى نفوسهم لأنهم أمل المستقبل بعد أن نكب الآباء فى يومهم .

وواحد من هذه النماذج ، كان أستاذا للتلميذ عبد الرحمن الرافعى فى مدرسة رأس التين الثانوية (١٩٠١ ــ ١٩٠٤) وهو عثمان لبيب (بك) مدرس الرياضة ، الذى كان يبث فى

نفوس تلاميذه القيم الوطنية مبينا لهم آثام وجرائم الاحتلال ..
« كان يقول لنا خلال أحاديثه « افهموا يأولاد كويس » ، فكنت أستشعر معانى هـذه الأحـاديث ، وآنس لها وأعجب بهـا ، وأحببت من أجلها هذا الأستاذ ، وكنت ألاحظ أنه حين يبدأ بالحديث فى السياسة يقفل بنفسه باب الفصل لكى لا يسمع حديثه ناظر المدرسة عند مروره بين الفصول ، فكان اقفـال الباب اشـارة الى بدء دروسـه الوطنيـة ، وقد أفدت منها كثيرا » (٢) . وأصبحت أحاديثه المنبع الأول الذى يستقى منه تلميذنا الصغير حروف الأبجدية الوطنية . وفى سن الخامسة عشر يبدأ يتحسس طريقه فى مطالعة لصحف ولكنه لم يكتشف دور الزعيم الشاب مصطفى كامل الا عندما انتقل من المدرسة الثانوية بالاسكندرية الى مدرسة الحقوق الخديوية بالقاهرة سنة ١٩٠٤، فجذبته صحيفة « اللواء » بعد « المؤيد » و « الأهرام » .
واستفاد منها دروسا فى الوطنية ، ساعده فى ذلك الجو الحماسى الوطنى فى الحقوق حيث كانت هـذه المدرسـة العليا مرفـأ اليقظة الوطنية فى البـلاد ، حيث أذكى شعلتها الزعيم بآرائه وأفكاره . وحين أنشأ الوطنيون بدءا بطلبة الحقوق وبمشاركة طلبة المدارس العليا سنة ١٩٠٥ « نادى المدارس العليا » وضم الطلبة والخريجين وأنشأ به مكتبة جامعة ، أخذ الرافعى يشارك فى نشـاط النادى ، الذى أصبح مركزا للاشـعاع الفـكرى والوطنى (٣) .

ويحدث لقاء الرافعى بمصطفى كامل متأخرا قليلا ، فشغف به اعجابا وتقديرا ، يقول الدكتور محمد حسين هيكل فى مذكراته عن زميله عبد الرحمن الرافعى الطالب بالحقوق فى هـذه الفترة « والرافعى متحمس منذ كان طالبا بمدرسة الحقوق ، لمبادىء الحزب الوطنى ، متطرف فى نصرتها ، شديد الايمان بخلافـة آل عثمان » (٤) •

وتقع حادثة دنشواى فى ١٣ يونيـة سـنة ١٩٠٦ وتتبنى الصحافة الوطنية الدفـاع عن ضحاياها ، ويشذ ممثل النيابة المصرى ابراهيم الهلباوى فيتشـدد فى معاملة المتهمين الأبرياء وينعتهم بأقسى النعوت ، مطالبا فى النهاية باعدامهم • وقـد بلغت قسـوة تنفيذ الأحـكام منتهى الضراوة ، حيث تم نصب المشنقة فى ساحة القرية ، ونفذت الأحكام بها شنقا وجلدا أمام أسر المحكوم عليهم • واهتز الوجدان المصرى لهذه القسـوة الاجرامية ، وتأثر عبد الرحمن الرافعى بالحادثة تأثرا كبيرا •• « كنت عام وقوعها طالبا بالسنة الثانية من مدرسـة الحقوق ، وكنت أطالع نبأها فى (اللواء) ، فأدهش لمخالفة منهج التحقيق والمحاكمة فيها لمـا كنا نتلقاه من أصـول المحاكمات الجنائية التى تقضى بها القوانين ، وتساءلت ما فائدة ما نتلقاه من الدروس والقواعـد القانونيـة اذا كانت لا تطبق على النـاس كافة • ولمـا تلوت وصف تنفيذ الحكم فى (اللواء) بقلم الأسـتاذ

أحمد حلمى أحد محرريه ، اقشعر بدنى من هول ما قرأت ، وأدركت مبلغ هوان المصرى فى نظر الاحتلال ، وتحققت ان لا كرامة لأمة ولا لأى فرد من أبنائها بغير الاستقلال ، وخفزتنى هذه الحادثة الى أن أخصص حياتى للجهاد فى سبيل الاستقلال » (٥) • وكانت هذه هى البداية الحقيقية التى دفعته أكثر الى الاهتمام بالقضايا العامة واستقلال الوطن التاع مع وحدة مصر والسودان •

واستمرت حملة الصحافة الوطنية على ممثل الاحتلال اللورد كرومر ، وأكثرت الصحافة الأجنبية أيضا من الحديث عن فظاعة الحادث مما أدى فى النهاية الى استقالة كرومر المندوب السامى البريطانى فى أبريل سنة ١٩٠٧ ، والذى انهى خدمته فى مصر بامتهان الكرامة المصرية فى كلمته التى القاها يوم الاحتفال بوداعه ممتدحا الخديو توفيق والمتعاونين معه • وعندما يعلن الزعيم الشاب مصطفى كامل عن تكوين الحزب الوطنى فى أكتوبر سنة ١٩٠٧ يكون الرافعى من أوائل المنضمين اليه ، وبعد حوالى أربعة أشهر بموت مصطفى كامل تهتز مصر لوفاته •

ورغم أن عبد الرحمن الرافعى كان يعرف بخطورة مرض الزعيم التى تزداد يوما بعد يوم وأن لا أمل يرجى من الشفاء ، الا انه روع بوفاته المبكرة « واشتدت به العلة قبل وفاته بثلاثة أشهر ، ولكنه كان يغالب المرض ويجاهد جهاد الأبطال ، وأخذ

المرض يشتد ويلح عليه حتى أعيى الطب والأطباء ، الى أن حم القضاء ، وأسلم الفقيد الروح فى الساعة الرابعة من عصر يوم الاثنين ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ (٨ محرم سنة ١٣٢٦) ، فانتشر نعيه بسرعة البرق فى العاصمة والأقاليم ، وطيرت الأسلاك البرقية خبره الى الخارج ، وملأ النبأ الفاجع جنبات وادى النيل ، ويالها من لحظة رهيبة حين فوجئنا بالنعى ونحن فى مدرسة الحقوق ، فقابلناه بالذهول والوجوم ، وفاضت دموعنا حزنا وأسى على الفقيد الذى كان لنا اماما وطنيا ، وأبا روحيا ، وما كاد يذيع نعيه حتى عم الحزن أرجاء مصر ، فكان له فى كل نفس مناحه ، وفى كل قلب مأتم »[1] ٠

صدم الرافعى بموت مصطفى كامل صدمة اذهلته وكاد ان ينهار ، لولا أنه التمسَ العزاء من قرارين أخذهما على نفسه وهو فى قمة أمله ، الأول أن يهب ذاته لخدمة بلاده على خطى مصطفى كامل ، والثانى أن يتوفر على دراسة شخصية هذا الزعيم الشاب وتقديمها الى الأجيال الجديدة ، ولاشك أن عبد الرحمن الرافعى بر بوعده فى قسميه ٠ تفرغ لكتابة التاريخ المصرى الحديث بما لم يقم به أحد قبله واستمر يكتب عن زعيمه وعن مبادئه المقالات الطوال ، ليصدر فى سنة ١٩٣٩ مجلدا ضخما فى ٥٢٥ صفحة من الحجم الكبير عن « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ــ فى سلسلة تاريخ مصر القومى ــ

« فهذه الشخصية الكبيرة التي حملت عبء الجهاد ، ودعت الأمة الى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال ، فى وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود ، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة لكى تستطيع أن تشق لدعوتها طريقا وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم » (٧) .

ولم يختلف الوضع بالنسبة لدور الرافعى داخل الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل ، فقد كان وثيق الصلة أيضا بخليفته محمد فريد ، الذى نشر له لأول مرة بجريدة « اللواء » وهو طالب ، وعمل معه فيها عقب تخرجه . « انى اذا أعد نفسى تلميذا لمصطفى كامل ، فانى كذلك تلميذ لمحمد فريد ، بل ان صلتى بفريد ، كانت أطول مدى من صلتى بمصطفى ، فانى لم أدرك مصطفى الا فى أوقات محدودة ، حين كنت أستمع الى بعض خطبه ، أو أقابله فى (اللواء) منذ سنة ١٩٠٦ ، مرات معدودة ، أما فريد فقد اتصلت به عن كثب ، وعملت معه وتحت لوائه سنين عديدة . لقد كنت سنة ١٩٠٨ طالبا بالسنة النهائية بمدرسة الحقوق ، حين تولى زعامة الحركة الوطنية ، وكنت أتردد عليه كثيرا فى (اللواء) ، وتلقيت عنه مبادىء الوطنية ، كما تلقيتها من قبل عن مصطفى ، فصادفت فى نفسى موضع العقيدة والايمان ، واتخذته بعد مصطفى أستاذا واماما لى فى الوطنية ، وبدأت اكتب فى اللواء على عهده ، وأنا طالب بمدرسة الحقوق » (٨) .

ولما انشأ الحزب الوطنى مدارس الشعب الليلة بالقاهرة فى أواخر سنة ١٩٠٨ ــ فى أقسام الخليفة وبولاق وشبرا والعباسية تحوى كل مدرسة نحو مائة وعشرين تلميذا ــ لتعليم العمال والفقراء القراءة والكتابة والدين والصحة وتربية الأطفال والحساب وتاريخ مصر وجغرافيتها والتاريخ الاسلامى والآداب والأخلاق والقوانين الخاصة بالمعاملات اليومية ، شارك الرافعى متطوعا فى التدريس مع زملائه الشبان الوطنيين وكبار رجال الحزب الوطنى مثل محمد فريد نفسه وأحمد بك لطفى .

وعندما أعلنت الحرب الأولى ، استغلت انجلترا دخول الدولة العثمانية بجانب ألمانيا ضد الحلفاء ، وأعلنت الحماية على مصر فى ديسمبر سنة ١٩١٤ ، وعزلت الخديو عباس حلمى الثانى الذى كان يصطاف فى الآستانة وخلفه السلطان حسين كامل . ونشطت الحكومة فى اعتقال الوطنيين وخاصة رجال الحزب الوطنى بعد أن فتشت بيوتهم واستولت على أوراقهم . واعتقل عبد الرحمن الرافعى فى المنصورة فى أغسطس سنة ١٩١٥ مع مجموعة من الوطنيين (٩) . وكان قد تم اعتقال أخيه أمين الرافعى قبله فى سجن الاستئناف بالقاهرة (١٠) الذى أودع فيه أيضا فى البداية قبل ان ينتقل منه الى معتقل الجماميز ثم ليمان طره . وعن أسباب الاعتقال التى أغفلها الرافعى فى مذكراته ، يقول الدكتور محمد حسين هيكل بعد أن فشلت القوات التركية التى

وصلت قناة السويس فى فبراير سنة ١٩١٥ فى تحقيق أغراضها وشتتها الانجليز : « فت تفهقر القوات التركية فى اعضاد أنصار الأتراك وأنصار الألمـان وأنصار الخديو • وبدأت السلطات العسكرية البريطـانية بعد قليل حـركة (تطهير) ان شئت أن تسميها ، فنفت عددا غير قليل من المصريين المشتبه فى ميولهم الى الخديو أو ضـد انجلترا الى مالطة ، ونفت شوقى بك شاعر الخـديو الى الأندلس ، واعتقلت كثيرين من بينهم صـديقى عبد الرحمن الرافعى » (١١) •

ويضيف الدكتور عبد العظيم رمضـان ما وراء الجيش العثمانى المهزوم « وقد أخذ عباس حلمى يستعد للعودة الى مصر على رأس جيش عثمـانى ، ويرافقه محمد فريد ، ولكن هذا الجيش العثمانى هزم أمام قناة السـويس ، واضطر الى الانسحاب ، وضـاعت تماما فرصـة العودة الى مصر من يد الخديو عباس حلمى » (١٢) •

ولم يطل تنقل الرافعى فى السجون والمعتقلات فأفرج عنه وعن أخيه بعد عشرة أشـهر دون محاكمة وذهبا سـويا لشكر رئيس الوزراء حسين رشدى باشا الذى سعى للافراج عنهما ، فدعاهما لزيـارة السـلطان حسين كامل الذى التقى بهمـا فى الاسكندرية •

وقبل أن تنتهى الحرب الأولى فى نوفمبر سنة ١٩١٨ كان الدكتور ويلسن رئيس الولايات المتحدة قد أعلن فى ٨ ينـاير سنة ١٩١٨ مبادئه الأربعة عشر للسلام وأهمها حق تقرير المصير • ويسعد عبد الرحمن الرافعى بذلك ويظن مع الكثيرين ان الانجليز سيحققون وعودهم فى الجلاء عن البلاد •

ولم يكن الرافعى وحده الذى صدق بل صدق كثيرون معه فى مصر والعالم كله خاصـة الشعوب التى ترزح تحت نير الاحتلال • يقول أحمد شفيق باشا : « لبثت مصر تنتظر تطبيق هذه المبادىء العادلة عليها مع المنتظرين وهى آمنة مطمئنة • على أتم يقين من أنها أولى الأمم بهذا المستقبل الزاهر الباهر • كيف لا ؟ وهى التى قدمت من المساعدات والخدمات الى الحلفـاء ما اعترف به قوادهم ولم ينكره ساستهم وملوكهم » (١٣) •

ويسجل الدكتور محمد حسين هيكل حوارا دار بينه وبين الرافعى فى ذلك الوقت : « مساء اليوم الذى نشرت فيه صحف مصر شروط الدكتور ولسن قابلنى صديقى عبد الرحمن الرافعى مغتبطا متهللا ، وقـال : انتهينا يا سيدى ! لنا حق تقرير المصير، وعلى ذلك سيخرج الانجليز من مصر ويتم الجـلاء • وأجبته وهل تصدق يا صديقى أقوال الساسة ؟ ! ألست تتحدث ، أنت وزملاؤك رجال الحزب الوطنى ، عن وعود انجلترا الرسـمية بالجلاء وعودا لم يتحقق منها الى اليوم قليل ولا كثير ؟ فما بالك

ترى اليوم أن شروط الدكتور ولسن يجب أن تتحقق ؟ أولا يقتضينا الحذر أن ننظر اليها كأنها بعض وعود انجلترا بالجلاء ؟ وكان رد عبد الرحمن الرافعى أن قال فى حماسة : كلا !! فالولايات المتحدة هى التى انتصرت فى الحرب ، وهى ليست دولة استعمارية . وهى تريد صادقة الا تقوم حرب ثانية . وهى لذلك ستفرض حق تقرير المصير وتفرض الجلاء . وعبثا حاولت أن أقنعه بأن يخفف من غلوائه ومن حماسته . وعبثا حاولت ان أؤكد له أن الساسة البريطانيين بما عرف عنهم من دهاء سيجدون لهذه الشروط الأربعة عشر شتى التأويلات والتفسيرات . وقد كانت آخر كلمة له : لقد أصبحت لنا قضية يمكن أن نترافع فيها ، ونجد الحجة القاطعة . وكان آخر رد لى على كلمته هذه ان قلت : انك حين تترافع فى قضية أمام قاض تجد الصيغة التنفيذية التى تلزم البوليس والجند ورجال الضبطية القضائية أن ينفذوا الحكم . ولست أصدق أن الولايات المتحدة تحارب انجلترا لتحملها على الجلاء عن مصر » (١٤) .

ويلتقى سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى بالمندوب السامى البريطانى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ للمطالبة بالاستقلال وتحقيق وعود الجلاء .. الا أن اللقاء انتهى بالمراوغة (١٥) . ويكتشف الزعماء أن لا فائدة من انتظار تنفيذ الوعود ، وأن لا سبيل لمصر الا بعرض قضيتها على مؤتمر الصلح

المزمع عقده فى باريس ويتكاتف الشعب حول زعمائه ، وتؤيد الحكومة سعد ، ولكن الاحتلال ينكر على زغلول ورفاقه المطالبة بحق مصر لأنهم غير منتخبين أو ممثلين للجماهير ، فانهالت آلاف التوقيعات تأكيدا لاختيار سعد زغلول متحدثا وحيدا باسمها • وكان عبد الرحمن الرافعى يتردد كثيرا على القاهرة فى هذه الفترة اذا كان يقيم بالمنصورة • وقد شارك أيضا فى اختيار ممثلى الحزب الوطنى ضمن الوفد المزمع تشكيله لحضور مؤتمر السلام فى باريس ، ويقع الاختلاف بين الحزب الوطنى وسعد حول الأشخاص ويختار سعد زغلول عضوين فقط من المتعاطفين مع الحزب الوطنى هما مصطفى النحاس والدكتور حافظ عفيفى •

ويرفض الانجليز سفر سعد زغلول ورفاقه الى باريس لحضور مؤتمر الصلح ويقبضوا عليهم وينفوهم الى مالطة فى ١٩ مارس سنة ١٩١٩ ، الأمر الذى يرفع درجة الغليان الشعبى ، وفى نفس اليوم تقوم الثورة • ويقابلها الانجليز باطلاق الرصاص ، ويسقط الشهداء ، يقول الرافعى بعد ذلك عن الثورة فى كتابه الذى صدر عام ١٩٤٦ « ومن الحق أن نعد ذكاء الأمة المصرية وسبقها الأمم الشرقية فى مضمار التقدم والنهوض ، من أسباب ثورة سنة ١٩١٩ وكانت مصر أيضا أسبق الأمم الشرقية قاطبة الى رفع لواء النهضة الجديدة وخوض غمار الجهاد عقب

انتهـاء الحرب الأولى مبـاشرة ، فانـه لم يكد يعود السيف الى غمده حتى رفعت مصر صـوتها عاليا ، فهزت الانسانيـة بثورة سنة ١٩١٩ التى لفتت الى أرض الكنانة أنظار الشـعوب فى الشرق والغرب » (١٦) .

ويلعب الرافعى دورا بارزا فى المنصورة ــ وهى بلد ثائر على الدوام ــ فى تلك الأيام العصيبة ، ويحدث أن يسافر يوما الى القاهرة ، وفى نفس اليوم تهب المنصورة جميعها متظاهرة ، ويسقط من أبنائهـا تسعة عشر شـهيدا . ويقرر قائد القوة الانجليزية بها ــ كانت عاصـمة الدقهليـة أحد معاقل جيش الاحتلال البريطانى ــ انذار أهلها بأنه فى حالة تكرار التظاهر ، فسيعاقب مديريها وهم محمود نصـير والدكتور محمود سامى وعبد الوهاب البرعى وعبد الرحمن الرافعى باطلاق الرصـاص عليهم فى ميدان عام ! ولمـا بلغ خبر الانذار الرافعى فى القاهرة وكان يستعد للعودة الى المنصـورة عن طريق النيل بعد قطع المواصلات ومنع السلطات الانجليزية المرور بها الا بتصريح ، لم يعبأ وأصر على العودة وكانت وسيلته فى السفر مركب شراعى قطعت المسافة فى ثلاثة أيام (١٧) !

وتتابع الأحداث فالثورة التى غمرت البلاد من أقصاها الى أقصاها أخذت تكبد قوات الاحتلال خسـائر فادحة ، وتعمق أكثر الكراهية ضد الانجليز . وهكذا فبعد أقل من شهر يضطر

المستعمر الى الافراج عن الزعماء والسماح لهم بالسفر الى باريس ، والأسلوب الذى اتخذه الانجليز للاسراع فى اعلان هذا النبأ ، يبين الى أى مدى ركب الذعر الاحتلال البريطانى من امتداد الثورة ، فقد عمد الانجليز الى توزيع المنشورات التى تحمل خبر الافراج ، الى الطائرات تقوم بتوزيعه واسقاطه فى القاهرة والأقاليم على السواء وعلى القرى فى أعماق الريف ! كما قال أحمد شفيق : « وطارت الطيارات ليلا الى الجهات وألقت عليها البلاغ » (١٨) • ويسافر الزعماء الى فرنسا ويلحق بهم وفد من مصر • ولكن مؤتمر الصلح لا يسمح لهم بعرض القضية المصرية ، بل ويحدد اقامة الوفد المصرى ! ثم تعلن قرارات المؤتمر الموافقة على الحماية الانجليزية على البلاد ! وتعود الاضطرابات مرة أخرى • وتوفد الحكومة الانجليزية لجنة ملنر لتقصى الحقائق ويقاطعها الشعب بأجمعه ، ولم تظفر اللجنة الا بلقاءات الرسميين • وقد ابدع بيرم التونسى فى تصوير سعى ملنر الفاشل وهو يكتب (١٩) :

دخل السفير ملنر على مصر شارى

قالت بنى الأحرار حدانا البضايع

لم يلتق ملنر خلاف المعادى

امير بنى الاحرار فى مصر بايع

بيحسب المصرى ـ أمير الديالم ـ

يصبح بحد السيف والرمح طايع

فرشت فرش الليف ذوات العرايب
فى السجن والطراريح حريد للتبايع

واتغربت اشرافنـــا عن ديـــارهم
بهم يضـــيق الملك والملك ســـايع

واتيمت أطفـــال ومن كان عـــاقر
أخذ النصيب والحزن فى مصر شايع

دار الزمان وان دار على دى التخاين
خفض موازينهـــا وعلى الرفايـــع

يا آكلين الحـــق رحتم فى نايبـــه
والحـــق ده ينعاد ولو كان ضـــايع

هذا الغليان الشعبى العارم يبلغ حجمـــه الكبير فى نفس عبد الرحمن الرافعى فـــلم يستطع أن يحتفظ بهدوئـــه المعروف وايثاره للعمل المسالم ، فاذا به يتحول مرة واحـــدة الى العنف وأعمـــال العنف . يقول على أمين : « اختـــار ســـعد زغلول عبد الرحمن الرافعى عضوا فى الجهاز السرى لثورة ١٩١٩ مع أحمد ماهر والنقراشى وحسين كامـــل الشيشينى وغيرهم من أساتذة الجامعات الذين اختارهم سعد لتدريب فرق الفدائيين التى تهاجم أفراد القوات الانجليزية بالمسدســـات والقنـــابل . وعـــاش عبد الرحمن الرافعى تحت الأرض فى الثورة ســـنوات طوالا ، وعرف أسرار الثورة ولكنه دفنها فى صدره حتى بعد أن خاصم سعد زغلول » (٢٠) .

ومع أن الرافعى لم يشر فى مؤلفاته الى هـذا الدور ولم يعترف فى مذكراته بهذا التحول الا أن الباحث المدقق يستطيع أن يلمح فى أحد كتبه التى أصدرها بعد الثورة ، سنة ١٩٢٣ تلميحا وان كان بأسلوب غير مباشر فى الحقيقة ـ « وأما الشرق فقد هزت الحركة المصرية أعصابه وكانت لشعوبه مثالا يحتذى فى اعتماد الأمم على نفسها واستعانتها بقوتها وعدم تعويلها على الوعود الكاذبة التى كان الحلفاء يعلنونها وينادون بها قبل أن تضع الحرب العامة أوزارها . فليس ثمت شك فى أن الشرق كان مسترسلا للآمال والأحلام مصـدقا للوعود والمبادىء المزيفـة التى أعلنها أقطاب الحلفاء ولا سيما ويلسون الذى خدع الأمم بمبادئه الأربعة عشر المشهورة . فكانت الحركة المصرية وما انطوت عليه من الأقدام والمبـادرة بالجهاد دليلا على بعد نظر الأمـة المصرية واعتقادها فى وعود الحلفاء ومبادىء ويلسن انها كلام وأوهـام وأنها أكاذيب لا يقصـد منها الا تخدير أعصـاب الأمم» (٢١) .

وعند هذا التغيير الجذرى نفاجأ بشىء مثير هو اغفـال الرافعى لهـذا التحول فى كيانـه ومواقفـه .. فلم يشر اليه أو يسجله مفسرا أو منكرا . الى الدرجة التى أبدته على العكس فى بعض ما كتب ضد أعمال العنف فى الثورة ، مما عرضـه لاتهام أكثر من واحد من الدارسين باهمال الدور البطولى لعمليـات

الاغتيال ضد الانجليز . يقول المستشار حلمى شاهين : لقد حاولت كثيرا أن اكتشف الدور العنيف لأستاذى فى هذا المجال،ولكننى لم أظفر الا بجواب شديد الايجاز.. يرفض صاحبه الاسهاب ونحن يومذاك بالاسكندرية وأنا أسأله مداورا : هل شاركك أخوك أمين الرافعى فى الاغتيالات ؟ فرد بسرعة : لا .. « كان ملهوش دعوة بالحكاية دى » . ويتابع المستشار : فربطت توا بين قوله وبين اعجابه واشادته الدائمين بزميلى الجهاز السرى والاغتيالات محمود فهمى النقراشى وأحمد ماهر . وتأكيدا لما يرويه المستشار شاهين يقول الرافعى عن مقتل أحمد ماهر والقاتل محمود العيسوى كان يعمل محاميا بمكتب عبد الرحمن الرافعى نفسه بالقاهرة ــ ولم يشر مؤرخنا فى كتاباته عن عمل القاتل بمكتبه ــ « أطلق عليه محام شاب متهوس يدعى محمود العيسوى الرصاص فأصابه اصابات قاتلة أودت بحياته . كان لهذا الاعتداء المنكر وقع أليم فى النفوس ، ولقد علل القاتل فعلته الشنعاء بأن أحمد ماهر تسبب فى اعلان مصر الحرب على ألمانيا . ولعمرى ان ماهر لم يرتكب بذلك اثما ، بل كان عمله هو السبيل الى قبول مصر عضوا فى مؤتمر سان فرنسيسكو الذى أنشئت فيه هيئة الأمم المتحدة ، ذلك أن أقطاب الحلفاء الذين اجتمعوا فى مؤتمر القرم اشترطوا لقبول أى دولة فى هذا المؤتمر أن تعلن الحرب على المحور قبل أول مارس سنة ١٩٤٥ ، وكانت الحرب العالمية قد اشرفت

على نهايتها ، ولم يكن اعلان الحرب الا اجراء شكليا ، وقد بادرت كل دولة غير محاربة وقتئذ الى اعلان الحرب على ألمانيا واليابان ، وفى مقدمة هذه الدول تركيا وسوريا ولبنان ، لكى تظفر بعضوية المنظمة الدولية الجديدة ، فلا جرم كان عمل الفقيد وسعيه فى أن تعلن مصر الحرب على ألمانيا واليابان عملا قوميا سليما ، لم تخسر مصر فيه شيئا ، بل أفادت منه بقبولها عضوا فى هيئة الأمم المتحدة لها من الحقوق (نظريا) مثلما لبقية الدول الأعضاء • ولكن الوفديين استغلوا هذا الموقف ، وأثاروا النفوس على أحمد ماهر ، موهمين الناس أنه يسعى للزج بالبلاد فى أتون الحرب وارسال المصريين الى الخارج ليحاربوا فى ميادين القتال البعيدة ، ونشر النحاس بيانا بهذا المعنى احتوى على شر أساليب الاغراء واثارة الأحقاد فى النفوس، فافتتن الأغرار من هذه الدعاية المغرضة ، وكان من أثر هذه الفتنة وقوع تلك الجناية الفظيعة التى ذهب ضحيتها زعيم من خيرة رجالات مصر وعلم من أعلام الجهاد » (٢٢) • ويقول عبد الرحمن الرافعى فى موضع آخر عن زميلى الاغتيالات •• « حزنت وجزعت لمقتل الشهيد أحمد ماهر ، وحزنت وجزعت لمقتل الشهيد النقراشى ، لقد كانت تجمعنى بهما منذ الشباب صلات الود والصداقة الخالصة ، كان أحمد ماهر زميلا وصديقا لى منذ كنا فى مدرسة الحقوق ، وتخرجنا منها معا سنة ١٩٠٨ ، وترجع صداقتى للنقراشى الى أواخر سنة ١٩١٨ حيث جمعتنا

الحركة الوطنية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، كنا زمــلاء فى الجهــاد وقتا طويــلا ، ولئن اختلفنا فى بعض الاتجاهــات السياسية ، فان صداقتى لهما لم تنقطع ، وظللت احفظ لهما على مر السنين تقديرا خالصا ، وأرى فى شخصيهما ومواهبهما ركنا مكينا فى صرح الحياة السياسية والقومية فى البلاد ، وكانا رحمهما الله يبادلاننى الشعور والتقدير ، وان أنس لا أنسى يوم دعوت فى أواخر سنة ١٩٣٩ الى اكتتاب عام لاصلاح ضريح « مصطفى كامل » ، فكان أحمد ماهر فى مقدمة من لبوا دعوتى وظهر اسمه فى أول قائمــة للمكتتبين فى المشروع ، وكان وقتئذ رئيســا لمجلس النواب . كان أحمد ماهر يمتاز منذ أن كان طالبا بمدرسة الحقوق بشجاعته وصراحته واقدامه ، وذكائه المتوقد ، ومنطقه السليم ، وأفقه الواســع ، وصفاء نفسه ، ورحابة صــدره ، وقــد لازمته هــذه الصفات طول حياتــه . وكان النقراشى يشاركه فى هذه المزايا ، وخاصة فى الشجاعة والصراحة والاقدام، ولئن كان يقل عنه فى الذكاء والألمعية ، فانه يفوقه فى صلابته فى الحق ، وصرامتــه فى العدل والاستقامة ، كلاهما مكمــل لصاحبه ، وهما فى ميدان الجهاد صنوان ، وفرسا رهان ، ليس من السهل ظهور رجال كثيرين من طراز ماهر والنقراشى ، لقد آلمنى وحز فى نفسى أن يلقى المجاهدان الشهيدان مصرعهما من أيد مصرية ، وهما اللذان طالمــا عرضا حياتهما للخطر واستهدفا للموت فى سبيل مصر والمصريين ، فما أقسى تصاريف القدر !

وما أقل الوفاء فى هــذه الدنيا ، وما أشد ما يعبث الضــلال بالعقول والافهام ، رحم الله الشهيدين ماهر والنقراشى ، والى روحهما الفاتحة » (٢٣) •

وهناك شهادة أخرى على مشاركة الرافعى فى أعمال عنف الثورة ، يقدمها محمد ابراهيم جمعه عن أبيه صديق الرافعى ، ان هذا الأب ذكر لابنه أنه شاهد الرافعى المحامى بالمنصــورة ، يسلم بمكتبه مسدسات ألمـانية لمجموعة من الشباب الفدائى ! ويؤكد هــذا الدور العنيف أكثر أول من قدم رسالة جامعية عن ثورة ١٩١٩ وحصل بها على درجة المـاجستير من جامعــة جورج تاون بالولايــات المتحــدة وكانت عن « ســعد زغلول وثورة ١٩١٩ » وهو الصحفى المعروف الأستاذ مصطفى أمين •• « وأذكر أننى رأيت فى أوراق سعد زغلول الخاصــة أوراقا فهمت منها أن الأســتاذ عبد الرحمن الرافعى كان عضــوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات أثناء ثورة ١٩١٩ ! وذهلت ! فاننى قرأت كل الكتب التى ألفها المؤرخ الكبير ، ولم أجد اشــارة واحدة الى هذا الموضــوع • وكنت أعرف عبد الرحمن الرافعى معرفة عائلية ، فقد كان شريكا لوالدى فى مكتب للمحاماة فى المنصــورة ودمياط ، وكانت تربطنا صــداقة عائلية ، وكثيرا ما حضرته وهو يتبادل ذكرياته ، ولم يذكر مرة واحدة أنه كان عضوا هاما فى الجهاز السرى للثورة ! وذهبت اليه وسألته :

هل كان حقيقة عضوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات ؟ قـال : نعم . قلت : لمـاذا لم تذكر هـذا فى كتبك ومذكراتك ؟ قال : لأننى أقسمت اليمين ألا أفتح فمى مادمت حيا ! قلت : لمـاذا لا تكتب هذه الأسرار وتطلب الا تنشر الا بعد موتك ؟ قـال ضاحكا : لو كتبت ذلك أكون قد حنثت فى اليمين (٢٤) ! .

وحكاية أخرى يذكرها مصطفى أمين فى موضوع آخر ، عندما استقل أبوه وأمه وصغيريهما ابان ثورة ١٩١٩ أيضا مركبا شراعيا من القاهرة للتوجه الى دمياط حيث كان يعمل محمد أمين يوسف محاميا بها ، بعد أن قطع الثوار خطوط السكك الحديدية وأقامت الأسرة ليلة فى بيت عبد الرحمن الرافعى بالمنصـورة ، وتسلم الرافعى جزءا من المنشورات التى كانت والدة مصطفى وعلى أمين تربطها حول بطنها . وكما يقول الابن « ونقص وزن أمهما وأصبحت لأول مرة ، منذ بداية الرحلة ، تستطيع أن تمشى وتتحرك بسهولة ! » ثم استأنفت الأسرة السفر بالقطار الى دمياط ، وكان الانجليز قد استطاعوا فى اليوم السابق اصلاح الخط الحديدى بين المنصـورة وبور سعيد ، وسمع الطفلان ــ مصطفى أمين وعلى أمين ــ عبد الرحمن الرافعى يقول لأبيهمـا وهو يودعهم على رصيف المحطـة ، هـذا القول ذو الدلالة « ان هذه هى آخر رحلة لهذا القطار ، لأن الثوار سيحطمون القضبان فى أثناء الليل »(٢٥) ! .

واذا كانت هـذه السـطور قد كشفت النقاب عن دور عبد الرحمن الرافعى وعنفه المستكن فى الأعماق والذى لم يظهر الا ساعة الشدة ، فان الدراسات الحديثة توصلت الى ما هو أبعد من ذلك ، فوضعت أصابعها على أن الرافعى كان صالحا من وجهة نظر زعيم الثورة سعد زغلول ليكون أول الكفاءات الصالحة للقيام بالعمل الوطنى العنيف السرى .. هو أولا ثم أخوه أمين الرافعى ثانيا ! يكتب مصطفى أمين فى الجزء الثانى من دراسته « ولقد دهش عبد الرحمن الرافعى عندما علم أخيرا أن الكشف الذى كتبه سعد زغلول وسلمه فى ديسمبر سنة ١٩١٨ لعبد الرحمن فهمى رئيس الجهـاز السرى لثـورة ١٩١٩ عن الأشخاص الذين يمكن الاعتمـاد عليهم « كان أول اسم فيه (فى هـذا الكشف) هو اسم عبد الرحمن الرافعى ! .. والاسم الثانى هو اسم أمين الرافعى ! .. ولكن اذا كان عبد الرحمن الرافعى وأمين الرافعى لم يقبلا عضـوية الوفد ــ لأن اللجنة الادارية للحزب الوطنى لم توافق على ذلك ــ الا أنهما اشتركا فى الثورة من يومها الأول .. » (٢٦) .

ومع ذلك ، فلايزال هناك سؤال يتردد وهو .. ما الذى دفـع عبد الرحمن الرافعى الى العنف والاشـتراك فى اليـد السوداء ؟ هنـاك أكثر من سبب ، فلاشـك أن ضراوة المحتل الانجليزى فى ضرب ثورة ١٩١٩ باطلاق الرصـاص حتى على

المظاهرات السلمية عمل يخرج الحليم عن هدوئه ، ويؤكد انه لايمكن مقابلة العنف برفع أغصان الزيتون ، بل بالعنف . خاصة اذا كان غضبة جماهيرية . كما لم يكن مفهوما بالنسبة للمثقف المصرى كيف تهبط الامبراطورية التى لا تغيب عنها الشمس صاحبة الحضارة العصرية العظيمة المتنورة الى أن تقتل النساء والأطفال . لقد أدرك الرافعى ان القوة التى ستمنع من أن تتحول البلاد كلها الى دانشواى أخرى وستلقن الاستعمار الانجليزى درسا لن ينساه عندما يتعرض رجاله وممتلكاته للخطر . يشجع على ذلك أن الشعب المصرى قد أقبل على التضحية بحياته بفدائية منقطعة النظير ، وكان الفلاحون وأولاد البلد أسبق الجميع الى هذه التضحية الغالية ، فهل يعقل الا يشارك هو فى قمة العنف والخطر ؟ وباعث رابع يستخلص من كتابات الرافعى المبكرة ، فهى جميعا تحفل بلا استثناء بالاشارة الى مقاومة الشعوب الأجنبية المختلفة مثل الفنلندية والبولندية والتركية وغيرهما لمستعمريها والعمل على نيل استقلالها ، يجد القارىء ذلك فى كتاباته الأولى فهو يكتب : « فنلندا ولاية ممتازة من الولايات الروسية ، حافظ أهلها على استقلالهم الداخلى وقاوموا كل اعتداء من الحكومة الروسية على دستورهم فهم من الشعوب الحية التى عرفت كيف تدافع عن حريتها وتحافظ عليها » (٣٧) . ويسطر فى موضع ثان .. « واغتصبت الروسيا وبروسيا أجزاء من بولونيا سنة ١٧٩٣ ،

وحيال هـذا الاغتصاب دافع البولونيون عن بلادهم دفـاع الأبطال وأعلنوا الجهاد الوطنى فى ٢٤ مارس سنة ١٧٩٤ ... ولمـا فشلت من دفع العدوان ، بقيت بولونيا ترزح تحت نير الاضطهاد السنين الطوال على أن الروح البولونية لم تتزعزع أمام الشدائد ولم تضعف أمام المصائب بل بقيت الأمة ثابتة فى يقينها قوية بحقها تتحين الفرص لتحقيق آمالها » (٢٨) . وفى موضع ثالث يقول « ان القوة تحكم الآن كما حكمت فى بلجيكا وفى الصرب ورومانيا وفى شـمال فرنسا أثنـاء الحرب العامة . ولم يطعن أحد فى حيوية تلك الأمم لأن مظـاهر التذمر والاستياء والألم كانت تحفظ لها حقها وتصـون كرامتها » .. وفى جانب آخر يقول : « ان الاستقلال والاحتـلال الأجنبى لا يتفقان ولا يلتئمان . هـذه الحقيقة فهمها الأتراك عندما احتل الحلفاء الآستانة فى ١٦ مارس سنة ١٩٢٠ فقد عطل البرلمـان العثمانى جلساته اذ رأى من العبث أن ينعقد ويعمل وسلطة الاحتـلال الأجنبى قائمـة بجانبه وانتقل النواب الوطنيون الى الأناضول حيث أخذ المجلس الوطنى الكبير ينعقد فى أنقره ويعمل بعيدا على نفوذ الاحتلال » (٢٩) . وعامل خامس يبكر بتاريخ مشاركة الرافعى فى الأعمـال الفدائية ، يشير اليه أحد الأصوات الوطنية المصرية الذى يعرف صاحبه الكثير عن الرافعى وهو فتحى رضوان المحامى الذى يقول عنه : « ومحمد فريد هو فى واقع الأمر مؤسس مدرسة العمل السرى ضد الاحتلال البريطـانى ، وكان

عبد الرحمن الرافعى بحكم صلته الوثيقة وتأثره الشديد بشخصيته وبأسلوبه فى العمل الوطنى أحد أركان هذه المدرسة التى ضمت فيما ضمت : شفيق منصور المحامى الذى حكم عليه بالموت شنقا فى قضية مقتل السردار ، وأحمد ماهر ، ومحمود فهمى النقراشي وعبده البرقوقى وحسن كامل الشيشينى وسليمان حافظ وغيرهم • وقد آلت زعامة هذه المدرسة الى عبد اللطيف الصوفانى فاستمر يديرها بشجاعة واستهانة بالمخاطر، مع دأب ومثابرة وحرص الى آخر أيام حياته »(٣٠) •

فليس من قبيل الصدف اذن أن ينضم الرافعى الى اليد السوداء •• ساعده كثيرا من ذلك الانضباط الذى يأخذ نفسه به فى كل أعماله كما أن مبدأ التضحية فى سبيل الوطن عقيدة فى دمه ويكفى تفرغه المثالى لكتابة تاريخ مصر الوطنى • يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتيبه الذى ظهر بعد ثورة ١٩١٩ « هذه المنزلة التى نالتها حركتنا المصرية يجب أن نحتفظ بها لأنها أصبحت فى حكم التاريخ انموذجا صالحا لنهضة الشعوب التى تجاهد فى سبيل حريتها جهادا سليما • ولا يجمل بنا بعد أن نالت بلادنا تلك المنزلة أن تقف فى منتصف الطريق وتقبل الهوادة فى حقوقنا ونرضى بالنكوص على الأعقاب والرجوع الى الوراء بل يجدر بنا كلما تضاعفت العقبات وتعددت الصعاب أن نروض أنفسنا على مقاومتها وتذليلها والمضى فى سبيلنا لأننا عندما

أخذنا على أنفسنا تبعة الجهاد القومى لم نكن نعتقد أن نجد السبل أمامنا مذللة والغاية سهلة المنال بل وطنا النفس على استمرار الكفاح والنضال والتذرع بالثبات والمثابرة » (٣١) .

ثم أخذت الأعمال الفدائية والاغتيالات تنحسر شيئا فشيئا ، الى أن كف عبد الرحمن الرافعى يده منها كما أكد ذلك أيضا اعترافات شفيق منصور أحد المتهمين فى قضية السردار لى ستاك باشا بعد ما انتهى الحكم باعدامه (٣٢) ، وعاد الى هدوئه الخارجى والداخلى مرة أخرى . كيف ؟ يقول الرافعى سنة ١٩٤٦ .. كنت سنة ١٩١٩ لا أزال فى الثلاثين من عمرى ، أزاول مهنتى (المحاماة) فى المنصورة ، وكانت تغلب على نزعة الشباب ، وأتوق الى أن تسلك الأمة سبيل العنف فى جهادها ، أما الآن فانى أميل الى مبدأ عدم العنف ، وأراه أقوم السبل وأقربها الى النجاح والتقدم ، وبعبارة أخرى لست من دعاة الثورة Revolution وأوثر عليها التطور فى النهضة Evolution ، ومع ذلك لم تتغير وجهة نظرى فى الجهاد ، فانى أشعر والحمد لله بأن الشعلة التى تضطرم فى نفسى لاتزال كما كانت ، لم تهبط لها حرارة ، ولم يضعف لها أوار ، فالمقاومة الوطنية هى سبيلى فى الحياة ، وهى السبيل التى أدعو اليها ، وأنشد للوطن المزيد منها ، والثبات عليها ، وهى سبيل كل أمة تريد المحافظة على كيانها ، فى خضم هذا المعترك

العالمى ، اذ لابد لها من ذخيرة من المناعة تدافع بها الحادثات ، على أن المقاومة أو المناعة شيء ؛ والعنف شيء آخر ، وقد يكون عدم العنف أدعى أحيانا لدوام المقاومة واستمرارها ، وأجدى عليها من عنف يعقبه فتور ، ثم تراجع وخمود (٢١) .

فالرافعى كما نرى قد أسقط بواعث ارتداده عن الثورية ، ولكن المتابعة لكتاباته والظروف السياسية التى احاطت بالبلاد فى أعقاب ثورة سنة ١٩١٩ ، تساعد على تفسير موقفه ، فالاجراءات العنيفة للسلطات الانجليزية للاغتيالات السياسية ، وتعاون الحكومة المصرية فى فرض الهدوء الداخلى ، وتخاذل بعض الفدائيين بعد القبض عليهم أو بعد الحكم عليهم بالاعدام واعترافهم على زملائهم ، والانقسام الوطنى الذى أصاب البلاد . والاضطهاد بالشبهة ، جميعا دفعت الرافعى الى التوارى والبعد . وغالى فى ذلك الى درجة اغفاله الكتابة عن هذه الاغتيالات فى أعماله التى تناولت الثورة ، الأمر الذى سحب ظله على قضية الاغتيالات ككل ؛ مما عرضه لنقد عنيف . يكتب الدكتور حسين مؤنس فى احدى دراساته « ومن الغريب أن عبد الرحمن الرافعى لم يعط العمل الفدائى حقه من الأهمية ، بل هو يستنكر أعمال الفدائيين ويعتذر عنها ايراده اياها ، يقول : « وأنا ــ مع استنكارنا لمبدأ الاعتداء وحوادثه ــ نذكر فيما يلى تسجيلا للوقائع التاريخية من حوادث الاعتداء

بترتيب وقوعها ــ ثورة ١٩١٩ جزء ثان صفحة ٨٤ ــ وهو يقول هــذا بعد أن يسرد محاكمات الثورة ، ويعدد الأحكام الجــائرة التى أنزلتها المحــاكم العسكرية البريطــانية بكل مواطن ثبت اشتراكه فى الثورة ، أو قيامه بأى عمل عدائى ضد المحتلين ، وفى قضية واحدة منها أصــدرت المحكمة العسكرية حكما باعدام ٥١ مواطنا من أهل دير مواس بمديرية أسيوط • وأعدم ثلاثة من المصريين فى قضية قتل فيها انجليزى فى الواسطى ، وفى القضية نفسها حكم على ثلاثة آخرين بالاشغال الشاقة المؤبدة • وهذه كلها كانت اعتداءات اجرامية على المواطنين المصريين ــ وان تمت على يد محــكمة عسكرية ــ لأن قضاتها جلادون • ومثل هذه الأحكام تصــدرها اليوم سلطات الارهاب الصهيونى على أهالى الأراضى المحتلة فى فلسطين ، والغرض منها ابادة شــعب بأسره • ومع هــذا يستنكر عبد الرحمن الرافعى أعمــــال الفــدائيين المصريين ، وكأنه كان ينتظر أن نظــل نطرق أبواب الانجليز فى أدب مبالغ حتى يخجلوا من أنفسهم ويرحلوا »(٣٤)•

وتسير الحياة السياسية فى مصر كما رسمها الاحتلال ، فى ظل حكومات عميلة تحتمى بالأحكام العسكرية التى كانت رأس الحربة المسددة الى قلب الشعب ، ولا تعدم مصر من أبنائها من يجاهر بصــوته داعيا للاهتمام بها ، ويظل الدعاة يجاهدون من أجل الديمقراطية والحرية والجلاء ، الى أن تنتصر كلمة الحق

ويخضع الاحتلال للارادة الشعبية فيمنح البلاد استقلالا داخليا باصداره تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، فيعلن الملك فؤاد الدستور المصرى الثانى ـ بعد دستور شريف ابان حكم توفيق ـ فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ وتبعه بالدعوة للانتخابات لمجلس النواب والشيوخ (٣٥) • ورأت الجماهير ان هذا الاستقلال الداخلى المشوب بتحفظات مقدمة للاستقلال التام لأن النضال الشعبى هو السبيل لتحقيق الآمانى الوطنية • ويتقدم للترشيح كبار السياسيين والشباب من مختلف الأحزاب القائمة فى ذلك الوقت • ويرى عبد الرحمن الرافعى ان يخوض المعركة الانتخابية عن مركز المنصورة ، متابعة للخط الوطنى الذى ينتهجه منافسا لمرشح حزب الوفد عن نفس الدائرة على بك عبد الرازق • وكان حزب الوفد قد شكل لجانا من الطلبة فى كل دائرة لتأييد مرشحيه والدعاية لهم ، الا أن لجنة الطلبة العامة بالدقهلية خالفت القاعدة بالنسبة الى دائرة مركز المنصورة اعجابا وتقديرا لعبد الرحمن الرافعى وعزفت عن تأييدها لمرشح الوفد مزكية الرافعى •• الذى لم ينس هذا التأييد أبدا ••

« وكان لطلبة الدقهلية لجنة تسمى (لجنة الطلبة العامة بالدقهلية) ساهمت فى المعركة الانتخابية ، وكان أعضاؤها يزكون مرشحى الوفد فى دوائر المديرية ، ولكنهم استثنوا دائرة مركز المنصورة ، فمع انهم كانوا من الغالب وفديين ، آثرونى على مرشح الوفد . وعملوا ذلك بوازع من ضميرهم ووجدانهم ، وكان لانضمامهم

الى جانبى أثر محمود فى نجاحى ، وحفظت لهم هـذا الجميل على مـدى السنين ، وقد صـاروا الآن من رجالات القضـاء أو المحاماة أو الطب ، وأذكر منهم : الأسـتاذ أحمد كمـال (بك المستشار بمحكمة الاستئناف) . والأستاذ حسين حسنى المحامى . الأستاذ على السعدنى (القاضى الآن) . الأسـتاذ عبد الحميد خـلاف (القاضى) . الأسـتاذ محمود البحيرى (رئيس النيابة) . الدكتور زكى منتصر . الأستاذ بدوى حمودة (بك المستشار بمجلس الدولة الآن) . الأستاذ محمد عاشور سكرتير عام شركة الغزل والنسيج بالمحلة الكبرى . الأستاذ عبد الخالق الطنطاوى المفتش بالأوقاف . الأستاذ عباس رمزى وكيل النيابة ... الخ » (٣٦) .

ويذكر المستشار بدوى حمودة رئيس المحـكمة العليـا بالقاهرة السابق عن هذه الواقعة .. « عرفت المغفور له الأستاذ عبد الرحمن الرافعى عندما كان محاميا فى مدينة المنصورة مسقط رأسى . وكان علما من أعلام المحاماة بلغ مكانة مرموقة جـدا بشخصيته النبيلة الكريمة وبماضيه الناصع فى الكفاح فى صفوف الحزب الوطنى عندما كان الحزب الوحيد فى ذلك الوقت وكان نشاطه فى مجال السياسة نشاطا ملحوظا وقد ساهم فى جميـع حركات الحـزب الوطنى التى لم يتح لى أن أعاصرهـا فى ذلك الوقت ولكنى أعلم أنه ساهم فى الحياة السياسية منذ بدأت فى عام ١٩٢٤ أثر صـدور الدستور الأول سنة ١٩٢٣ وقد رشح

نفسه فى دائرة مركز المنصورة التى يقع فيها موطنى الانتخـابى ، وقد ألف الوفد برياسة المغفور له الزعيم سعد زغلول فى ذلك الحين لجانا من الطلبة لتأييد مرشحى الوفـد بالانتخابات وقد كنت سكرتيرا للجنة الطلبه الوفـدية فى مديرية الدقهلية وكان رئيسها زميلى الأستاذ أحمد كمال المستشار السابق وكانت تضم طلبة الكليات والمعاهد العليـا فى ذلك الوقت وكانت رسـالة اللجنة كما قلت تأييد مرشحى الوفد والدعاية لهم فى جميع دوائر المديرية ما عدا دائرة مركز المنصورة التى رشح فيها المغفور له عبد الرحمن الرافعى وقد كان خصم الرافعى الذى رشحه الوفد رجلا لا يبلغ مبلغ عبد الرحمن الرافعى فى تاريخه الطويل فى خدمة الوطن ، ومن أجـل هـذا عقدنا اجتماعا خاصا لبحث موقف اللجنـة بالنسبة لهـذه الدائرة بالذات .. هل تؤيد خصـم عبد الرحمن الرافعى رغم انه أقل منه أهلية بالنهوض لعمل وطنى جليل بالنيابة عن الأمة ، وكان عملا جليلا مشرفا لهذه اللجنـة ان أجمعت آراءها على عرض الأمر على هيئـة الوفـد بريـاسـة سعد زغلول بعد اجراء استفتاء فى الدائرة لمعرفة رأى الناخبين فيها هل هو الى جانب هـذا المرشح أم ذاك وفعلا قمنا بجولة فى هذه الدائرة ، واتصلنا بجميع العائلات وكثرة الناخبين فيها ، قمنا بعمل شبيه باستفتاء شعبى ، وكانت نتيجة هـذا الاستفتاء أن أغلبية ضئيلة تؤيد المغفور له عبد الرحمن الرافعى ، ولكن اتجاه اللجنة كان تصميما على تأييد عبد الرحمن الرافعى فأعددنا

تقريرا رفعناه الى هيئة الوفد بنتيجة هذا الاستفتاء واقترحنا ترك هذه الدائرة دون ترشيح أحد من الوفد وأخلائها لعبد الرحمن الرافعي ، وكان رد الوفد عنيفا بعث الينا بحملة يرأسها المغفور له حمد باشا الباسل والمغفور له الأستاذ محمود غنام وبعض أعضاء الوفد الأخرين واجتمعوا بنا فى مقر اللجنة فى نادى بشارع البحر لايزال قائما الى اليوم بجوار فندق الاكربول ، ودارت مناقشة بين أعضاء الوفد وبين أعضاء اللجنة ، وكانت حجة أعضاء الوفد انه حزب وان النظام الحزبى يقتضى من أعضائه وانصاره وأتباعه تأييد مرشحيهم مهما كانوا ، وكانت مناقشتنا تدور حول تغليب الأهلية والكفاية على اعتبار الحزبية ، خاصة وان أكثرية النواب المرشحين من قبل الوفد فى هذه المديرية كانوا ذوى الكفاية ولم يكونوا فى حاجة الى غيره ولم يكن كثيرا على الوفد أن يترك دائرة واحدة فى مديرية تضم ٢٥ دائرة على ما أتذكر لمرشح ممتاز ذو ماض مجيد مثل عبد الرحمن الرافعى ، وانتهى الاجتماع باعلان فصل طلبة اللجنة وحلها ، وكان الرد أن انقلبت اللجنة كلها الى جانب عبد الرحمن الرافعى تؤيده علنا حتى اننا أخذنا أجازات من دراستنا فى أيام الانتخابات وخصصنا هذه الأجازة للعمل لتأييد عبد الرحمن الرافعى والدعاية له حتى نجح ولو أن النجاح كان بصوت واحد ، وأعتقد أن المغفور له عبد الرحمن الرافعى لم يكن يتوقع هذه النتيجة لأن قوة حزب الوفد فى ذلك الحين برياسة سعد زغلول كان لا قبل لأحد

بمغالبتها والوقوف فى وجهها ، ونجح عبد الرحمن الرافعى وكان علما فى أول برلمـان اختير سنة ١٩٢٤ وكان موضـع تقدير سعد زغلول نفسه عندما تولى رياسة الحكومة » (٣٧) .

ويروى على عبد الله قرمد عن ذكريـاته مع الرافعى ابان الانتخابات فيقول : « التقيت به ابان شبابى عندما كنت أدرس بالمعهد الدينى بطنطا وطالعت كتاباته العديدة فى صحافة هـذه الفترة وعرفت ثوريتـه التى أدت الى اعتقاله فى المنصـورة سـنة ١٩١٥ ، كما شـارك فى لجـان جمع التبرعات لحزب الوفد ــ وهو رجل الحزب الوطنى ابان وجود سعد زغلول فى باريس ولندن . بالاضافـة الى مساعدته لأسر ضحايا الثورة والعمـال المصريين ، كمـا شاهدت تطوعه للدفـاع مجانا عن المسجونين المتهمين فى قضايا مظاهرات سنة ١٩٢١ ضد وزارة عدلى يكن ، وقد ساهم فى تأسيس لجنـة مقاطعة البضـائع الانجليزية ، وجمعيـة المواسـاة الخيرية ، لذا فقد سعيت اليه أتعرف به وأتشرب من وطنيته ، وكنت من شباب المنصـورة الذين ساندوه فى أول انتخابات مصرية . فعندما تشكلت لجنة تنفيذيـة للدعـوة له ، كنت ممن خطب وألف القصـائد ومن الذكريات التى تذكر بنزاهتـه واتزانه ، ان منافسه الوفـدى على عبد الرازق أصدر بيانا يسىء اليه فعكفت على الرد عليه ونظمت قصيدة قلت فيها :

اليك عنا فلسنا نبتغى بدلا
من نابغينا باحجار واخشاب

انا اعتزمنا وعين الله شاهدة
ان لا نبيع ضمائرنا لكذاب

القول للشعب لا للوفد فانصرفوا
لسنا دعاة آقاويل واحزاب

انا نطالبكم بالعلم يصحبه
ما لا يدع حجة تبقى لمرتاب

أين الكفاءة والاخلاص أين هما
ما ان نطالبكم يوما بالقاب

دعوا ملابس سعد خاب فالكمو
لا يوجد المجد فى الدنيا بأثواب

وأتوا باعمالكم ان صح انكمو
جئتم لمصر بأعمال واسباب

وذهبت بالأبيات الى الرافعى فى مكتبه ولكننى لم أجده لأنه كان دائم التجوال فى الأقليم ، فتركت القصيدة على مكتبه الى أن يجيىء ويقرأها . وفوجئت بعد قليل برسالة يبعث بها الى على جناح السرعة غير صابر حتى اجيء اليه . يقول فيها « ... اسمح لى أن أقول أن عنوان القصيدة من جهة - الى مرشح الوفد كلمة رد موجزة - وبعض أبياتها من جهة أخرى ربما يتخذها خصومى سلاحا ضدى ومع أنى فى الواقع لست مسئولا عن احساس أصحابى وأنصارى فان خصومى

كما تعملون لا يتركون فرصة الا وانتهزوها للنيل منى والايقاع بينى وبين زعمـاء الوفد مع ما بينى وبينهم من الصـلات الودية والروابط الوثيقة العرى • وأنى لذلك ارجوكم رجـاء خاصا أن لا تذيعوا هـذه القصيدة ويكفى أنى سأحفظها عندى فى سجل الوثائق التى احتفظ بها » (٣٨) •

فما حـكاية الصـوت الواحـد الذى أصبح به عبد الرحمن الرافعى نائبـا بمجلس النواب عن دائـرة مركز المنصـورة ؟ لقد أجريت الانتخابات صـباح يوم ١٢ ينـاير سنة ١٩٢٤ بعد معركة حامية الوطيس وتوافد الناخبون على صناديق الانتخاب •• ويقترب موعد اغـلاق الصناديق ويتقدم رجل مسن فيسأله رئيس اللجنة عن مرشحه فينطق باسم الرافعى ويسجل له رئيس اللجنة ما يطلب ، ولكن العجوز يتراجع راغبا فى تعديل اختياره للمرشح الوفـدى وانه أخطـأ فى الاسم ، ويرفض رئيس اللجنـة الاستجابـة الى طلبـه • ويكتب عبد الرحمن الرافعى « فزت على منافسى بصـوت واحـد ، اذ نلت ١٧١ صوتا ونال هو ١٧٠ ، وكان عدد المندوبين الذين أعطوا أصواتهم ٣٤١ مندوبا • كان هـذا الصوت الواحـد حديث الناس فى مجلسهم ، وتحدث الناس كثيرا عن نجـاحى بصوت واحد ، وقال لى بعض الصوفية انه صوت الله ، فحمدت لهم هذا التعبير ، وقلت لهم اننى فعلا كنت ومازالت (ولا ازال)

معتمدا على الله . وقد طعن فى انتخابى أمام مجلس النواب ، واكتنف الطعن بحــوث فقهيــة طويلة فى نصــاب الأغلبيــة ، ومدلولها ، وفى قيمة هــذا الصوت الذى رجح كفتى فى الميزان ، وكان سببا لنجاحى ، وكان محور الطعن أن الأغلبية هى نصف الأصوات زائدا واحدا ، وبما أن عدد الأصــوات التى أعطيت ٣٤١ فيكون نصفها ١٧٠ ١/٢ زائدا واحدا ، وتكون الأغلبية ١٧١ ١/٢ لا ١٧١ ، وأننى على هــذا الحساب ينقصنى نصف صوت ! ولكن لجنة الطعون رأت أن طريقة الحساب بهذا الشكل غير معقولة ، وأن الأغلبية فى هــذه الحالة تكون بجبر الكسر ، وأقر المجلس وجهة نظر اللجنة ، وقرر رفض الطعن » [٣٩] .

ويفتتح البرلمــان باجتماع أعضاء مجلسى النواب والشيوخ صباح ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وكان حدثا كبيرا « ... وكان يوما مشهودا فى تاريخ مصر الحديث ، فلأول مرة منذ وقع الاحتلال سنة ١٨٨٢ اجتمع نواب البلاد وشيوخها المنتخبون انتخابا حرا فى برلمــان تتمثل فيه سلطة الأمة . وقد أعاد هــذا الافتتاح الى الاذهــان حفلة افتتــاح مجلس النواب الأول الذى اجتمــع سنة ١٨٨١ فى عهد الثورة العرابية ، وكان أول مجلس نيابى كامل السلطة شهدته مصر الحديثة ، ثم عصفت به يد الاحتلال فالغى سنة ١٨٨٣ ، وظلت البلاد بلا دستور أربعين سنة متوالية ، الى أن ظفرت به سنة ١٩٢٣ » [٤٠] .

ويتولى الرافعى زعامة المعارضة بمجلس النواب على هدى مبادىء الحزب الوطنى ، ولاشك انه أثرى الحياة السياسية بمواقفه الوطنية ، الى أن انفض المجلس باستقالة الوزارة .

وخلفت وزارة أحمد زيور الوزارة المستقيلة ، وتكرر اعتداؤها على الحياة السياسية فى البلاد ، فشارك الرافعى فى الاحتجاج عليها مرات فى الصحافة اليومية . واستمرت الحياة النيابية معطلة قرابة عام الى أن دعا أمين الرافعى رئيس تحرير « الأخبار » الى جمع شمل الأحزاب فى اجتماع موسع للبرلمان لمواجهة التسلط ، فاجتمع من تلقاء نفسه فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ ، واتفقت الأحزاب برئاسة سعد زغلول على توزيع الدوائر الانتخابية فيما بينها ، وأجريت انتخابات مجلس النواب فى مايو ١٩٢٦ ولم يتقدم الرافعى لترشيح نفسه كما قال فى مذكراته « بيدى لا بيد عمرو » نظرا لأن الوفد لم يخصص له دائرته السابقة ، بل نافسه فيها مرشح قوى من الوفدين . ويرجع الرافعى ذلك الى اعتراض سعد زغلول عليه لتزعمه المعارضة ضد الوفد فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ .

وبعد أن ابتعد عبد الرحمن الرافعى عن الحياة النيابية قرابة ثلاثة عشر عاما ، يعود اليها فى ديسمبر سنة ١٩٣٩ عضوا (بالتزكية) بمجلس الشيوخ عن دائرة كفر بداوى دقهلية ، والحقيقة انه منذ انتخابه بالمجلس الى أن انتهت عضويته به

فى مايو ١٩٥١ حفلت مناقشاته واقتراحاته فيه كما اعتاد بالموضوعية والاتزان وهو يطالب بـ [٤١] :

— تسوية ديون الفلاح .

— حماية الملكية الزراعية الصغيرة .

— الاهتمام بتعزيز الجيش .

— تبسيط النظام الداخلى للحكومة واهتمام الموظفين بواجباتهم .

— انشاء مصنع مصرى جديد للورق بدلا من الاستيراد .

— تمصير البورصة .

— زيادة عدد الملحقين التجاريين فى القنصليات .

— تحديد النسل .

— محاربة المسكرات .

— تمجيد ذكرى الزعماء المصريين جميعا .

— تأليف موسوعة المذاهب والأحكام الشرعية بمعرفة وزارة المعارف العمومية .

— تبادل البعثات بين الأزهر والجامعة .

- تجنيب مصر ويلات الحرب الثانية باعلان حيادها .

- عدم تخفيض سن مستشارى النقض للاحالة للمعاش من ٦٥ الى ٦٠ .

- حماية المعتقلين السياسيين .
- احياء الصناعات الوطنية وفق برنامج زمنى .

- اهتمام بالاقتصاد المحلى والنهضة الصناعية والصناعات اليدوية .

- استقلال مصر المالى عن انجلترا ، مع مقابلة الصادرات التجارية بواردات بدلا من سداد القيمة نقدا لأن ذلك هو السبب الحقيقى للتضخم النقدى .

- نشر الجمعيات التعاونية لمكافحة الغلاء .
- حرية الصحافة .

- ضرورة عرض الاتفاق الذى تم بين الحكومة المصرية والحكومة الأمريكية بشأن اعفاء قواتها أثناء الحرب الثانية على البرلمان .

- تقليل مدة خبرة المرشحين لتولى وظائف القضاء

من حملة الدكتوراه ودبلوم معهد العلوم الجنائية .

ـ اشتغال القضاة بالسياسة وكانت الحكومة قد قدمت اقتراحا بمنعهم .

ـ عدم تعيين خبير اقتصادى بريطانى فى حكومة النحاس فى مايو سنة ١٩٤٣ .

ـ توحيد الصفوف .

ـ مراقبة النقد الأجنبى .

ـ انشاء بنك للتعاون .

ـ تحقيق أهداف البلاد القومية وفى مقدمتها الجلاء ووحدة وادى النيل .

ـ رفض المرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦ بجواز اختيار شيخ الأزهر من غير أعضاء هيئة كبار العلماء ومن يعين شيخا للأزهر من غير هذه الهيئة يعتبر عضوا فيها بحكم القانون .

ـ عدم حبس الصحفيين .

ـ منع تملك الأجانب للأراضى الزراعية والعقارات المبنية أو المعدة للبناء فى الديار المصرية . وفعلا

صــدر القــانون رقم ٣٧ بتــاريخ ١٠ مارس سنة ١٩٥١ « يمنع غير المصريين من تملك الأراضى الزراعية فى المملكة المصرية » •

ـــ عدم الاقالة الضمنية للوزير •

وابان عضويته بلجنة العمال والشئون الاجتماعية بالمجلس واختياره مقررا لها صــدرت القوانيين الهامة التالية : قــانون نقابات العمال رقم ٨٥ لسنة ١٩٤٢ ، وقانون عقد العمل الفردى رقم ٤١ لسنة ١٩٤٤ •

وفى الحقيقة لقد أثرى عبد الرحمن الرافعى الحياة النيابية بفيض هائل من الأفكار البناءة ، واســتطاع فى نضاله داخــل البرلمــان أن يكون مثلا عظيما ، يذكر فيحمد دائما •• هى سمة الشخصية الوطنية الأصيلة •

المراجـــع

١ ـ **الدكتور عبد اللطيف حمزة** : أدب المقالة الصحفية فى مصر ج ٥ ط ١ ص ٥٣ .

٢ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مـذكراتى ط ١ ص ٨ .

٣ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مصطفى كامل ط ٤ ص ١٩٣ .

٤ ـ **الدكتور محمد حسين هيكل** : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ط ١٩٧٧ ص ٥٥ .

٥ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مـذكراتى ص ١٢ .

٦ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مصطفى كامل ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

٧ ـ **المرجـع السـابق** ص ٢٤٣ .

٨ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : محمد فريد ط ٣ ص ٤٩٧ .

٩ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مـذكراتى ص ٢٧ .

١٠ ـ **صبرى أبو المجد** : أمين الرافعى ط ١ ص ٦٦ .

١١ ـ **الدكتور محمد حسين هيكل** : مذكرات فى السياسة المصرية ج ١ ط ١٩٧٧ ص ٦٣ .

١٢ ـ **الدكتور عبد العظيم رمضان** : أوراق عباس حلمى الثانى الخاصـة . صباح الخير العدد ١٣٠٦ ١٥ ينـاير سنة ١٩٨١ .

١٣ ــ **أحمد شفيق** : حوليات مصر السياسية جـ ١ ط ١ ص ١٣٤ .

١٤ ــ **الدكتور محمد حسين هيكل** : مذكرات فى السياسة المصرية جـ ١ ط ١٩٧٧ ص ٦٧ .

١٥ ــ **أحمد شفيق** : حوليات مصر السياسية جـ ١ ط ١ ص ١٣٧ .

١٦ ــ **عبد الرحمن الرافعى** : ثورة سنة ١٩١٩ جـ ١ ط ٢ ص ٦٠ ، ٦١ .

١٧ ــ المرجع السابق ص ٢٤٠ .

١٨ ــ **أحمد شفيق** : حوليات مصر السياسية (تمهيد) جـ ١ ط ١ ص ٣١٠ .

١٩ ــ **بيرم التونسى** : المجموعة الكاملة لشاعر الشعب ط ١ ص ١٩٥ .

٢٠ ــ الأخبار عدد ٢٠ أغسطس ١٩٧٤ .

٢١ ــ **عبد الرحمن الرافعى** : مجموعة رسائل وخطب ومقالات جـ ١ ط ١ ص ١٠٩ .

٢٢ ــ **عبد الرحمن الرافعى** : فى أعقاب الثورة المصرية جـ ٣ ط ١ ص ١٥٢ .

٢٣ ــ المرجع السابق ص ٢٧٢ .

٢٤ ــ **مصطفى امين** : الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩ جـ ١ ط ١ ص ٧ .

٢٥ ــ **مصطفى امين** : من واحد لعشرة ط ١ ص ٢٠٣ .

٢٦ ــ **مصطفى امين** : الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩ جـ ٢ ط ١ ص ٢١٦ ، ٢١٨ .

٢٧ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : نقابات التعاون الزراعيـة ط ١ ص ١٣٦ .
٢٨ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : الجمعيـات الوطنيـة ط ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤٣ .
٢٩ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مجموعة رسائل وخطب ومقالات ج ١ ط ١ ص ١١ ، ٩١ .
٣٠ ـ **فتحى رضـوان** : مشهورون منسيون ط ١ ص ٨٢ .
٣١ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مجموعة رسائل وخطب ومقالات ج ١ ط ١ ص ١١٠ .
٣٢ ـ **مصطفى امـين** : الكتاب الممنوع أسرار ثورة ١٩١٩ ج ٢ ط ١ ص ٢١٩ .
٣٣ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : ثـورة سـنة ١٩١٩ ج ١ ط ٢ ص ٢٣٥ .
٣٤ ـ **الدكتور حسين مؤنس** : دراسـات فى ثـورة ١٩١٩ ط ١ ص ١٥٥ .
٣٥ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : فى أعقاب الثورة المصريـة ج ١ ط ١ ص ١١٢ .
٣٦ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مـذكراتى ط ١ ص ٤٥ .
٣٧ ـ حـديث خـاص .
٣٨ ـ حـديث خـاص .
٣٩ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مـذكراتى ط ١ ص ٤٦ .
٤٠ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : فى أعقـاب الثورة المصريـة ج ١ ط ١ ص ١٥٠ .
٤١ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : أربعة عشر عاما فى البرلمـان ط ١ ص ١٠٧ .

تعاونيـــا

كانت حدة التنافس الدولى على امتلاك المستعمرات قد بلغت الذروة فى القرن التاسع عشر ، واستطاعت بريطانيـا أن تحتل مصر ، وفرضت سيطرتها على مقدرات البـلا حتى دانت لها بالولاء بعد أن صـدم الشـعب بنهاية الثورة العرابيـة • وقامت الأبواق بدورها تثبط من عزيمة الشعب ومقاومته حتى بات أمر وجود الاحتلال كأنه لا يعنيه ، وبدت مصر بقرة حلوبا لكل أجنبى وطأت قدمه أرضها •

وصارت النتيجة الحتمية لكل هذه التراكمات ان انهارت الصناعات المصرية أمام المعروضـات الاستهلاكية الأجنبية التى تطلع اليها المصريون بافتنان ، وأصبحت الأرض الزراعية مزرعة لامداد مصانع لانكشير بالقطن •

وكما كان الفلاح المصرى غير سعيد الحظ فى ظل حكم محمد على الذى قام اقتصاده على الاحتكار (١) ، استمر الحال على ما هو عليه أيام خلفائه ، حتى أن المبعوثين المصريين الذين ذهبوا للدراسة بالخارج لم يهتموا عند عودتهم بتطوير حال الفلاح المصرى ، وهكذا بقى الوضع الى أن جاء القهر الانجليزى وتسلط آكثر الفساد الأوربى فدفع الفلاح المصرى الى القاع السحيق .

ولما كان مصطفى كامل الذى شغف بالدفاع عن وطنه المغتصب ، وشغلته الأحداث السياسية طوال عمره القصير (٢) ، فلم يستطع أن يعطى الناحية الاقتصادية مع علمه بخطورتها نفس الاهتمام . فقد جاء خليفته محمد فريد وتمكن من أن يوازن بين الجانبين ، فاهتم رجال الحزب الوطنى بالكتابة فى الشئون الاقتصادية للبلاد والعمل على وضع الحلول لعلاجها .. بل والمشاركة فى النشاط الاقتصادى أيضا وتفجير الدعوة التعاونية فى أنحاء مصر لانقاذها من المرابى الأجنبى الذى كان يشكل ظاهرة بشعة وخطرا داهما .

وعندما اجتاحت البلاد الأزمة الاقتصادية سنة ١٩٠٧ التى طحنت فى فلكها الفلاح المصرى ، اندفع الوطنيون سعيا من واقع أهدافهم السياسية للمشاركة فى رفع المعاناه عن الفلاحين والفقراء، وقد تبلورت هذه المشاركة الفعالة فى العمل على نشر التعاون

من أقصى البلاد الى ادناها ، وتولى الدعوة عمر لطفى مؤسس التعاون فى مصر ورئيس نادى الطلبة فى ذلك الحين ، فسافر الى ايطاليا لدراسة نظم التعاون بها حيث وجدها أقرب الى التطبيق فى مصر وأفضل من نظام التعاون الألمانى . وعقب عودته سنة ١٩٠٨ ابتدأ فى نشر دعوته والقاء المحاضرات فى المدن والنوادى التى ارتادها (٣) ، وقد استجابت الجمعية الزراعية الخديوية بالقاهرة الى دعوته ، فدرست اقتراحاته وتقدمت للحكومة سنة ١٩٠٩ بمشروعى قانونى للتعاون واللائحة التنفيذية له ولكن الحكومة تجاهلتهما . ولم يسلم الداعية المناضل عمر لطفى من مضايقات الحكومة لمحاربته سوء حال بنوك التسليف الحكومية ؛ فلم يملك غورست المندوب السامى البريطانى فى تقريره السنوى لحكومته عن مصر لعام ١٩٠٩ الا الاعتراف فعلا بفشل تجارب بنك التسليف (٤) .

وعلى الرغم من موقف الحكومة المعادى أو المتجاهل من الدعوة التعاونية الشعبية ، فقد ساهم محمد فريد زعيم الحزب الوطنى ورجال حزبه ومن بينهم عبد الرحمن الرافعى بجهودهم فى النشاط التعاونى منذ سنة ١٩٠٨ وعملوا على انتشار الجمعيات الزراعية بالقرى وشركات التعاون المنزلية بالمدن (٥) .

وللرافعى مبادرة حميدة فى هذا المجال فعندما ألف كتابه « حقوق الشعب » سنة ١٩١٢ الذى يشتمل على محاضرات

يلقيها مجموعة من الطلاب أثناء العطلة الصيفية على أبناء قريتهم في المســاء لتعليمهم ما لهم وما عليهم اتجــاه الوطن • نراه في الاجتماع الثامن يشير الى رسالة وردت من أحد أعضاء الفريق الذي سافر لفرنسا للسياحة والدراسة ، ذكر فيها انه يقيم باحدى القرى الفرنسية « ليدرس أخلاق الفلاح الفرنسي وعاداته في معيشته وفي بيته وفي غيطه وهو يدرس على الأخص وسائل الاقتصاد الزراعي لأنه عازم على أن ينشيء في بلده نقابة زراعية ويلقي على أعضائها دروسا في الاقتصاد والتعاون » (٦) •

وقد أنشأ أحمد لطفي خليفة عمر لطفي سنة ١٩١٢ نقابة عامة للتعــاون المنزلي والزراعي للاشراف على هــذه النقابــات والشركات المنشأة والعمل على نشرها في كافة أنحاء البــلاد ، حتى ارتفع عددها ســنة ١٩١٤ نتيجــة لجهود الوطنيين فبلغت ٢٣ نقابة زراعية ، و ١٧ شركة تعاون (٧) •

وكان محمد فريد بالنســبة للرافعي قمــة الوطنيــة بعد مصطفى كامل ، فاتجه الى الأخذ بفكره واتباع هديه ومداومة الاتصــال به مضحيا بسببه بكل ما يمــكن أن يتعرض له من اضطهــاد وسجن ، ولا تنقطع الصــلات بين الرافعي وأســتاذه محمد فريد بعد مبارحة الأخير مصر سنة ١٩١٢ ، فيراسله بشكل منتظم وتحمل رسائله الى زعيمه ، في هــذه الفترة صورة قاتمة للأحداث السياسية ، واضطهاد السلطات البريطـانية للوطنيين

مما أدى الى عزوفهم عن المشاركة فى الأنشطة السياسية وابتعادهم عن الأضواء وهو من بينهم ، بعد أن رأوا التنكيل الذى حدا بزعيمهم ــ أى فريد ــ الى النفى الاختيارى ، ولكن محمد فريد فى رده على عبد الرحمن الرافعى .. يدعوه الى عـدم اليأس ويخطط له مسارا وطنيا آخر ، بجانب السياسـة ولا يقل نفعا عنها بل يساويها وهو العمل فى المجال الاقتصادى ، ايمانا بأن استقلال مصر الاقتصادى مقدمة لاستقلالها السياسى . فى هذه الرسالة التى بعث بها فريـد فى ٢٥ ديسمبر سـنة ١٩١٣ من الآستانة الى تلميذه يقول فيها « .. فاذا كان الخوف من رجال السلطة حدا بالكثيرين الى عـدم اظهار احساسهم الوطنى ، فمـا يمنعهم من صرف همتهم الى المشروعـات الاقتصـادية ، كالنقابات وشركات التعاون المنزلى والمـالى ، وقد برهن ما أسس منها على نجـاح عظيم ، وعلى استعداد الأمة للاقبال على مثل هذه المشروعات ، هـذا ميدان واسع للجميـع ، فادخلوا فيه بهمة ونشاط ، فاستقلال مصر الاقتصـادى مقدمة لاستقلالها السياسى » (٨) . وكان هـذا بمثابة نقطة الانطلاق للرافعى حين يأخذ بنصيحة رائده ، وهو يضع النقاط الاساسية لموضوع التعاون . ويتحدث عبد الرحمن الرافعى عن هـذا الأمر فيقول : « وقد عملت بنصيحته ، وضاعفت جهودى فى خدمـة الحركة التعاونية والحركة الاقتصادية ، وصرفت سنة ١٩١٣ فى وضـع

كتابى عن (التعاون) ، والمساهمة فى تأليف بعض النقابات الزراعية ، ودراسة بعض الشئون الاقتصادية » (٩) .

وفى سنة ١٩١٤ يصدر الرافعى كتابه الثانى عن « نقابات التعاون الزراعية » فى فترة افتقدت فيها المكتبة العربية ، الأبحاث والمراجع فى هذا المجال . ويهنئه محمد فريد على ذلك فى رسالة بعث بها من جنيف فى ٢٣ يولية سنة ١٩١٤ بقوله : « .. فقد وصلنى كتابكم فى تاريخ النقابات ومستقبلها فى مصر ، وقرأته من أوله لآخره ، فألفيته أحسن كتاب أخرج للأمة المصرية فى هذا العام ، فشكرا على هذه الخدمة الوطنية التى لا تقدر ، وفقكم الله للاستمرار فى هذا الطريق المفيد . وأفاد البلاد بآرائكم . والأمل الآن أن كل النقابات التى تؤسس تنشأ حرة بحيث يسقط قانون الحكومة من نفسه أو تضطر هى لتعديله » (١٠) .

وفى يولية سنة ١٩١٩ يؤسس عبد الرحمن الرافعى مع مجموعة من أصدقائه بالمنصورة ، جمعية لنشر وتعميم جمعيات التعاون الزراعية فى قرى الدقهلية ، مساعدة للفلاح المطحون ، ويستمر الرافعى حاملا لواء التعاون فى المنصورة والعمل بجد على نشر جمعياته المختلفة وذلك بمساعدة الشباب الوطنى المهتم بالتعاون ، مثل الدكتور محمد حسين هيكل ، وابراهيم الطاهرى، وحسين هلال ، وعبد الوهاب البرعى ، والدكتور ابراهيم الوكيل،

ومحمود نصير ، وعبد الفتاح نور ، ومحمود مرسى . ولذلك ما أن حلت سنة ١٩٢٠ الا وأسسوا ــ بعد الجمعيات التعاونية الزراعية ــ جمعيات التموين الخيرية فى المنصورة وغيرها من المدن فى فبراير . يكتب الرافعى مفصلا هذا الجهد بقوله « .. ولكن الحالة التى واجهناها سنة ١٩٢٠ اضطرتنا أن نعفى جمهور المستهلكين من الفقراء ومتوسطى الحال من عضوية جمعيات التعاون ، وعلى هذا الأساس انشأنا جمعية التموين الخيرية بالمنصورة ، والغرض منها مشترى المواد الغذائية والحاجات الضرورية وبيعها لأعضاء الجمعية ولطبقة صغار المستخدمين والعمال والفقراء بدون ربح ، بقصد تخفيف وطأة الغلاء عنهم ومساعدتهم على الحصول على حاجتهم بأرخص الأسعار الممكنة ، وجعلنا رأس مال الجمعية مقسما الى حصص قيمة الحصة الواحدة خمسون جنيها ، توزع على الموسرين من أهل المدينة ، وجعلنا مهمة مجلس ادارة الشركة شراء الأصناف بالجملة وقت نزول أسعارها ، وعليه أن يسعى لدى الخيرين من أصحاب المزارع والمتاجر من اعضاء الجمعية أو من غيرهم فى مديرية الدقهلية أو غيرها للحصول على تعهدات منهم بتوريد بعض الأصناف الضرورية للتموين بأسعار تقل عن الأسعار التى يبيعون بها فى الأسواق ، مساعدة منهم لصغار المستهلكين الذين أنشئت الجمعية لدفع الضرر عنهم ، وعلى مجلس الادارة أيضا أن يجتهد فى الحصول من جهات الحكومة على توريد بعض

الأصناف للجمعية بأسعار مخفضة ... وقد أدت هذه الجمعيات خدمات جليلة لصغار المستهلكين ، وانخفضت بفضلها أسعار الحاجات ولأصناف الضرورية ، فكانت من خير الوسائل لمكافحة الغلاء » (١١) .

وفى هذه الأثناء ينشر عبد الرحمن الرافعي المحامى ، عدة مقالات فى جريدة « الأخبار » ــ التى أسسها أخوه أمين الرافعي ــ بتاريخ ٣ و ١١ و ١٨ مارس سنة ١٩٢٠ عن « تطبيق مبادىء التعاون لمكافحة الغلاء وجمعيات التموين الخيرية » ، وقد ساعده صديقه محمد أمين يوسف ــ والد على ومصطفى أمين ــ فى عقد اجتماع بدار الأوبرا بالقاهرة يوم ٥ مارس سنة ١٩٢٠ للدعوة الى تشجيع اقامة جمعيات التموين الخيرية (١٢) .

وكان انتخاب عبد الرحمن الرافعى عضوا فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ نائبا عن دائرة مركز المنصورة فرصة لمطالبة الحكومة من موقع المسئولية البرلمانية ، فى المساهمة فى دفع عجلة التعاون الى الأمام بعد أن أصدرت قانونه سنة ١٩٢٣ وانشأت فى نفس السنة لأول مرة قسما للتعاون بوزارة الزراعة . فرأيناه يقترح بجلسة ٢٤ مارس سنة ١٩٢٤ تأليف لجنة جديدة بالاضافة الى اللجان القائمة تسمى « لجنة التعاون والشئون الاجتماعية » تتولى بحث الاقتراحات والمشروعات الخاصة بالتعاون الزراعى والمنزلى والمالى (١٣) ، وتوافق الأغلبية

الوفدية على اقتراحه بجلسة ٣٠ مارس سنة ١٩٢٤ ، وتشكل اللجنة من خمسة عشر عضـوا ويصبح هو من بينهم سكرتيرا لها (١٤) • وتبدأ باكورة عملها فى نظر قانون التعاون رقم ٢٧ لسنة ١٩٢٣ ، وتقدم اللجنة مقترحاتها لاضافة تعديلات عديدة عليه ليصبح أكثر ايجابية وجدية فى مجـال التطبيق التعـاونى فى البـلاد ، ولمـا كان مجلس النواب قد حـل فى ديسـمبر سـنة ١٩٢٤ عقب استقالة سـعد زغلول ، فلم يتيسر النظر فى التعديلات • وتمر سنوات ويقر البرلمـان فى سنة ١٩٢٧ قانون التعاون الجديد بعد الأخذ بغالبية تعديلات « لجنـة التعـاون والشـئون الاجتماعيـة » بمجلس النواب التى اقترحتهـا سنة ١٩٢٤ (١٥) •

وفى أكتوبر سنة ١٩٣٩ يعود الرافعى للحياة النيابية مرة أخرى عضـوا بمجلس الشيوخ • ولمـا كان يعد من أقطـاب التعاون فى مصر ، فقد اختير فى سبتمبر ١٩٣٩ عضوا بلجنـة التعاون التى أنشأتها وزارة الشئون الاجتماعية ، هدفها العمل على النهوض بالحركة التعاونية • وتقدم اللجنة نتاج مقترحاتها للوزارة للعمل على انشاء بنك تعاونى مستقل أو تحويل بنك التسليف الزراعى القائم الى بنك تعاونى ، وتتولى مصلحـة التعاون الاشراف على الجمعيات القائمة التى بلغت أربعة آلاف جمعية بالاضافة الى انشاء تفتيش للتعاون فى كل مديرية على

أن يكون هنـاك مراجعا لكل ثلاثين جمعيـة ، وتدعيما لزيادة العمالة بالتفتيش ينقل اليه بعض العاملين من الوزارات الأخرى من مختلف المؤهلات اما لمراجعة الحسابات أو لنشر الارشـاد الزراعى ومقاومة دودة القطن (١٦) .

ويشير الرافعى الى ما انتهت اليه هـذه اللجنـة بقوله : « قدمنا تقرير اللجنـة بهذه المقترحات الى الوزارة فى أكتوبر سنة ١٩٣٩ وقد نوهت الى هـذا التقرير ومقترحاته فى كلمتى بمجلس الشيوخ بجلسـة ١١ ديسمبر سـنة ١٩٣٩ وأهبت بالحكومة أن تعمل بمحتوياته ، وأظن أن هذا التقرير صار مع الزمن موضع التنفيذ تدريجيا ، مما كان له أثره فى اطراد النهضة التعاونية » (١٧) .

ويواصل مؤرخ مصر الحديثة كلما سنحت له الفرصة فى مجلس الشيوخ الحديث عن التعاون ، فنراه فى جلسة ٨ ديسمبر سنة ١٩٤٢ يطالب الحـكومة بالعناية بالجمعيـات التعاونيـة والاشراف عليها على أن تمدها وزارة التموين بكافة احتياجاتها لأن فى ذلك مساعدة جدية على نمو أعمالها (١٨) .

وتقيم مصلحة التعاون فى ٥ يونية سنة ١٩٤٣ أول مؤتمر عام للتعاون فى المنصورة عاصمة الدقهلية تكريما لها باعتبارها من أوائل العواصم التى ساهمت مبكرا منذ سنة ١٩٠٨ فى انشاء

النقابات والجمعيات التعاونية ، ورأس المؤتمر فؤاد سراج الدين وزير الشئون الاجتماعية ودعى عبد الرحمن الرافعى للمشاركة فيه • ويسجل الرافعى هـذا الحدث فى مذكراته قائلا : « اقيم المؤتمر فى سيما « ركس » بالمنصورة بالسكة الجديدة ، وكان المكان غاصا بالمدعوين من كبار الأعيان والموظفين والمثقفين من مختلف الطوائف ، وكان من خطبائـه مدير الدقهليـة وقتئذ محمود حسيب بك ، وقد أشار فى خطبته الى من خدموا التعاون فى مصر ، وذكرنى منهم ، فما أن سمع الجمهور اسمى حتى ضج المكان بالتصفيق الحاد المتكرر حتى اضطررت أن أقف وأشكرهم مبتسما ، فزاد التصفيق حدة وتكرارا ، فاغتبطت فى خاصـة نفسى لهذه الظاهرة المفاجئة ، وعلمت أن منزلتى فى النفوس أكبر مما ظننت وأنه لا يجوز للمجاهد أن ييأس من أن هـذه الأمة تقدر يوما عمله وجهاده » (١٩) •

ويختتم الرافعى مشاركته الفعاله وهو فى سن الخامسـة والخمسين فى مجـال التعـاون ، عندما حولت الحـكومة فى سنة ١٩٤٤ مشروع قانون الجمعيات التعاونية من مجلس النواب لمجلس الشيوخ لدراسته ، فيحال الى لجنة الشئون الاجتماعية والعمل ، وتختار اللجنة عبد الرحمن الرافعى مقررا لها مع تكليفه بوضـع تقرير واف عنه ، وبناء على التقرير المقدم تتم الموافقة عليه وتصدر الحكومة القانون رقم ٥٨ فى ٣٠ مايو سنة ١٩٤٤ •

ويشير مؤرخنا الى ذلك بقوله : « ساعد هـذا القانون على نشاط الحركة التعاونية ، وجاءت الحرب العالمية الثانية حافزا جديدا على اطراد هـذا النشاط ، وخطا خـلال سنى الحرب خطوات واسـعة موفقة ، وتضاعف عـدد منشآته ومنظماته ، وبخاصـة جمعيات التعاون المنزلى ، اذ تبين من التجـارب أنها وسيلة فعالة للحد من الغلاء الفاحش وحماية الجمهور من تلاعب التجار واستغلالهم حالة الحرب لرفع أسعار الحاجيات ، وساعد على انتشار هـذه الجمعيات تقدم الوعى القومى والشـعور بالواجبات الاجتماعية ، وادراك الطبقة المثقفة فى المدن والقرى روح التعاون ومراميه ، واضطلاع المثقفين بادارة الجمعيات ، فنجحت منشآت عديدة صار بعضها مضرب المثل فى الانتظام وحسن الادارة ، نعم أن هناك جمعيات تألفت على عجل أو قام عليها أشخاص لا يؤمنون بمبادىء التعاون والاستقامة والنزاهة، فلم تلبث أن سرى اليها الخلل والبوار ، ولكن الروح التعاونية سائرة فى الجملة فى سـبيل التقدم والنمو . يدل على ذلك ان عدد الجمعيات التعاونية القائمة فى القطر على اختلاف أنواعها بلغ نيفا و ٢٠٠٠ جمعية ، وعدد أعضائها نيفا و ٨٠٠٫٠٠٠ عضو ، وبلغت قيمة معاملاتها فى السنة نحو ثمانية ملايين جنيه ، ومن مقارنة هذا الاحصاء بالاحصاءات القديمـة يتضح ان الحركة التعاونية سنة ١٩٥١ ــ قد زادت الى ما يقرب من عشر أمثال ما كانت عليه قبل خمسة أعوام » (٣) .

المراجـــع

١ ــ **الدكتور أمين مصطفى عفيفي :** تاريخ مصر الاقتصـــادى والمـــالى فى العصر الحديث ط ٣ ص ٥٣ .

٢ ــ **الدكتور عبد اللطيف حمزة :** أدب المقالة الصحفية فى مصر جـ ٥ ط ١ ص ٧١ .

٣ ــ **عبد الرحمن الرافعى :** نقابات التعـــاون الزراعيـــة ط ١ ص ١٨٧ .

٤ ــ المرجع السابق ص ١٩١ .

٥ ــ **عبد الرحمن الرافعى :** مـــذكراتى ط ١ ص ٢٤ .

٦ ــ **عبد الرحمن الرافعى :** حقوق الشعب ط ١ ص ٩٧ .

٧ ــ **عبد الرحمن الرافعى :** نقابات التعاون ص ٢٣٣ .

٨ ــ **عبد الرحمن الرافعى :** محمد فريد ط ٣ ص ٥٠٦ .

٩ ــ المرجع السابق ص ٥٠٧ .

١٠ ــ **عبد الرحمن الرافعى :** مـــذكراتى ص ٢٦ .

١١ ــ المرجع السابق ص ٤٠ ، ٤١ .

١٢ ــ المرجع السابق ص ٤٠ .

١٣ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : أعمالي فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ ط ١ ص ٩٦ ، ٩٨ .

١٤ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : أربعة عشر عاما فى البرلمان ط ١ ص ٧٤ .

١٥ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ص ١٠٥

١٦ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : أربعة عشر عاما فى البرلمان ط ١ ص ١١٨ .

١٧ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ص ١٠٦ .

١٨ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : أربعة عشر عاما فى البرلمان ص ٢٨١ .

١٩ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ص ١٠٨ .

٢٠ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : فى أعقاب الثورة المصرية جـ ٢ ط ١ ص ٣٣٩ .

زعيما للمعارضه

لعبت المعارضة دورا بارزا لا ينكر فى الحياة المصرية قبل يولية ١٩٥٢ ، فلم ترهب العناصر الوطنية بطش سلطات الاحتلال الانجليزى أو اذنابه ، أو تسلط الحاكم المستبد ومراكز قواه ولقد بدأ هـذا الدور فى الظهور منـذ وقت بعيد فى التاريخ الحديث خاصة فى أيام الخديو اسماعيل الذى ابتليت مصر فى عهده بالديون مما جعله يسمح بسيطرة الدول الأوربية ودخول الأجانب أعضاء فى الوزارة المصرية . وتحركت العناصر الوطنية لمجابهة التدخل الأجنبى وساندتها الصحافة . مما اضطر الخديو الى الاستجابة الى هـذا التيار القوى وأسـند الوزارة الى شريف باشا الذى جعلها مصرية لحما ودما . يقول الرافعى : « .. فألف شريف باشا الوزارة على هذا الأساس ، وكانت أول

وزارة مسئولة أنجبتها الحركة الوطنية فى تاريخ مصر الحديث ، وكان من أعظم أعمالها وأجلها شأنا أنها وضعت دستورا على أحدث المبادىء العصرية • وقدمته الى مجلس شورى النواب لينال اقراره ، وخولت ذلك المجلس سلطة جمعية تأسيسة تملك حق اقرار الدستور وتعديله » (١) •

وعندما وقع الاحتلال البريطانى فى عام ١٨٨٢ ، بقيت بعض القوى الوطنية تقاوم تسلطه حتى فى داخل مجلس شورى القوانين — الهزيل — وجدت المعارضة عندما طالب أعضاؤه سنة ١٨٩٤ من الحكومة بمنع تملك الأجانب للأراضى الزراعية بعد استدانة أصحابها وعدم قدرتهم على السداد •

ومنذ سنة ١٩٠٨ بدأ فى الأفق نجم شاب وطنى ثائر فطالعنا بمجموعة مقالات وطنية فى صحف الحزب الوطنى ، فى جريدة « الأخبار » مقالة حماسية « لماذا لا نحترم ارادة الأمة » (٢) •

وما أن يصدر الملك فؤاد قانونا بفتح باب الانتخاب بعد أن أعلن أول دستور للبلاد فى ١٩ أبريل سنة ١٩٢٣ حتى يفكر عبد الرحمن الرافعى فى ان يطور جهاده الوطنى بمحاولة دخول البرلمان ، ويقرر أن يخوض المعركة الانتخابية مع مجموعة من زعمائه أعضاء الحزب ، وتختاره جماهير مركز المنصورة نائبا عنها بمجلس النواب •

وقبل أن نتحدث عن مواقف الرافعي داخل أول برلمان مصري ، نشير الى تصوره للحياة النيابية ومسئولية النائب وذلك من خلال كتابه « حقوق الشعب » الذى اصدره لتوعية الشعب بحقوقه وواجباته السياسية ، كان الرافعي يرى أن وجود الحياة الديمقراطيــة فى مصر كفيل بانقاذها من الاحتـــلال الانجليزى وتحقيق أهداف البلاد الوطنية . « .. فأحسن وأسهل طريقة لوضع القوانين بمعرفة الأمة هى أن يختار أهالى كل جهة من جهات البلاد رجلا منهم يحبونه ويحترمونه ويثقون بعلمه وفضله فيكون هــذا الرجل نائبــا عنهم ومعبرا عن رغباتهم وارادتهم فيجتمع هذا النائب ونواب الجهات الأخرى ويتكون منهم مثلا مائتنا أو ثلاثمائة نائب . وتكون وظيفة هؤلاء النواب أن يجتمعوا جميعا ويتباحثوا فى وضــع القوانين النافعة للبلاد والسهر على تنفيذها ومراقبة الحكام مراقبة شديدة ومحاسبتهم على كل عمل يأتونه مخالفا لتلك القوانين . هذا ما يسمونه بمجلس النواب . فمجلس النواب هو مجموع الرجال النائبين عن الأمة أى الذين أنابتهم الأمة للتعبير عن رغباتها وتقرير كل ما تريده . هــؤلاء النواب تنحصر وظيفتهم كما قلنا فى التعبير عن رغبة الأهــالى وارادتهم » (٢) .

ويقول فى مكان آخر « .. وعلى من يشتغل بالسياســة سواء تحت لواء الأحزاب أو مستقلا ــ على أن يكون هــذا

الاستقلال استقلالا حقيقيا ـ أن تكون له مبادىء عامة يعتنقها، ويعمل على تحقيقها ، ويصدر عنها فى أعماله وتصرفاته ، لا أن يكون هدفه الوحيد أن ينال لنفسه مركزا ممتازا فى المجتمع فحسب » [٤] .

ولهذا لم يكن غريبا أن يكون منهج الرافعى متسما بالموضوعية التى ظهرت فى مناقشاته ، فهو يزن أعمال الحكومة الوفدية بميزان دقيق ، وكأنه يقف على منصة القضاء ، فيساندها فيما يراها مصيبة فيه ، ويعارضها فيما يختلف واياها حوله .. وهو موقف ينبع أصلا من عدم تعارضه مع مبادىء الحزب الوطنى قبل كل شىء .

وفى البداية يحمل مشعل المعارضة نواب الحزب الوطنى ، مع أن عددهم كان أربعة هم عبد اللطيف الصوفانى وعبد الرحمن الرافعى وعبد العزيز الصوفانى والدكتور عبد الحميد سعيد . وقد جعلهم أسلوبهم الجاد غير المهاتر فى المناقشة يكسبون احترام وتقدير بقية أعضاء المجلس وأغلبيته الوفدية ، مما دفع نواب حزب الأحرار الدستوريين وبعض النواب المستقلين بل والوفديين أيضا الى الانضمام لجبهة المعارضة حتى ارتفع عددهم الى عشرين نائبا [٥] .

ومع ارتياح الرافعى الى اهتمام النواب الوفدين بالمعارضة الا أنه كان يرى أن موقف حكومتهم يختلف عنهم ، ولعل نائبنا

كان يطالب بأكثر مما يجب ويطبق النظريات لا الواقع يقول الرافعى : « •• فمع أن مجلس النواب كان فى الجملة واسع الصدر بازاء المعارضة فالوزارة نفسها لم تكن على هذا الغرار، ويلوح لى أنها كانت تنظر الى المعارضين بعين الحقد ، وبدا ذلك فيما اضمره الوفد لنا من المحاربة فى الانتخابات اللاحقة ، وكان واجبا على الوزارة أن ترحب بالمعارضة الدستورية •• وكان يضيق صدرها أيضا بالصحف المعارضة ، فتعقبتها بالاضطهاد والتحقيق والمحاكمة ، كانت المظاهرات العدوانية تقوم ضد الصحف المعارضة فلا تبذل الوزارة أى جهد لمنعها ، وقد طلب مرة من سعد أن يمنع اعتداء وقع على جريدة « الأخبار » التى كان يصدرها المرحوم أمين بك الرافعى اذ كان المتظاهرون يقذفونها بالطوب والحجارة ، فقال لمحدثه : أتريد منى أن أحمى خصومى ؟ •• وأسرفت الوزارة فى التحقيق مع الصحفيين المعارضين وتقديمهم الى المحاكمة ، وقد قضت المحاكم فى معظمها بالبراءة » (٦) •

كانت الجلسة الأولى التى اعتلى فيها عبد الرحمن الرافعى منصة الخطابة فى مجلس النواب فى ٢٩ مارس سنة ١٩٢٤ ، حيث اشاد بخطاب العرش وحكومة سعد ورغب مع زملائه المعارضين الثلاثة ادخال تعديلات على الخطاب بعدم تقيد مصر بتحفظات تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٢٢٩ ، ولم يقبل المجلس •

وعلقت جريدة « المحروسة » الوفدية فى عددها الصـادر بعد يومين بقولها : « ... رأيت فى الرافعى الأدب فى التعبير ، وخفة الروح فى الاشارة والايماء ، ولطف الدخول فى الاخلاص للعرش والثقة بوزارة الشعب التى يرأسـها الزعيم الجليـل سعد زغلول باشا مما استدعى الهتاف وحسن الاستعداد للسماع، ثم التدرج الى طلب التعديل ، ولو كان المجلس مستعدا لسمعت كلمتـه وراجت دعوتـه ، ولكن سـلطان الرئيس ، رئيس السلاطين » .. !

وشرت جريـدة « الأهرام » فى عـددها الصـادر فى ٣١ مارس سنة ١٩٢٤ « سمعنا فى الجلسة التاسعة من جلسات مجلس النواب أربعة خطباء ينقدون خطاب العرش اطلقوا عليهم تسامحا كلمـة « خطبـاء المعارضـة » وقبلوا هـذا الوصف تسامحا ، ولمـا سئل المجلس هل يوافق على الرد الذى وضعته اللجنة على خطاب العرش أم يوافق على ادخـال التعديل على ذلك الرد ، وقف الجميع الا أربعة قالت الغالبية « أربعة فقط » ويقينا أن هؤلاء الأربعة لو لم يكونوا خطباء المعارضـة لوقفوا مع الواقفين ، ـ لأن نفسية خطباء المعارضة ليست نفسية معارضة أو مقاومة للوزارة أو نفسية مشادة ـ بل هى نفسية آمـال وآمانى دل سعد باشا المجلس على احترامها كل الاحترام عندما صفق هو ذاته للأستاذ الرافعى بك وعندما وجه كلامه خاصـة

الى الصوفانى بك وعندما صافح الصوفانى بك وهو يهم بالخروج من القاعة » (٧) .

ويواصل الرافعى نشاطه داخل المجلس فنراه ــ عندما يرفض المجلس النظر فى اقتراح أحد النواب ــ البدراوى عاشور نائب نبروه ــ بنقل مركزى طلخا وشربين من مديرية الغربية الى الدقهلية بحجة انه موضوع ادارى ، يثير قضية هامة وهى أحقية المجلس بوصفه الممثل لسلطة الأمة فى مطالبة الحكومة باستصدار قوانين بناء على رغبات النواب ، الا أن المجلس ينتهى بأغلبية الآراء الى أن تكون الرغبات التى يقررها المجلس غير ملزمة للحكومة مع عدم المساس بمسئولية الوزارة (٨) !

وتقف جريدة « الأهرام » بجانب عبد الرحمن الرافعى مؤيدة موقفه ومفهومه ومنددة بقرار المجلس « ... فاذ كانت الهيئة النيابية القائلة فينا الآن قررت مبدأ نحن نراه خطأ بعد ما رأته غالبيتها صوابا ، فان فى الهيئة النيابية حكمة مستكنة تصلح دائما الخطأ ولا تصر عليه ، فلنولها ثقتنا ولتول هى الصحافة انتباهها يتم التعاون والتآزر بين الأفكار والعقول وتمحص الحقائق فلا يبقى الا الصحيح ، والهداية من الله » (٩) .

وتحقيقا لمبادىء الحزب الوطنى يولى الرافعى اهتمامه لوحدة مصر والسودان والأحداث الدائرة فى السودان ، فنراه

بتاريخ ٧ أبريل ١٩٢٤ يقدم ستة أسئلة لوزير الاشغال العمومية مرقص حنا باشا عن حقيقة مشروعات الرى فى السودان المدرجة بكتاب (ضبط النيل) التى تصممها وزارة الاشغال المصريـة بمشاركة المستشارين الانجليز ؛ والتى يقيمها الانجليز فى الجزيرة وسد النيل الأبيض فى السودان واضرارها على الرى فى بلادنا حيث تتحكم فى كمية المياه لرى مصر ومناسيبها . فيقوم الوزير بالرد على الأسئلة بجلسة ١٣ أبريل سنة ١٩٢٤ ولا يقتنع الرافعى الذى يكرر مطالبته بتاريخ ٢١ أبريل سنة ١٩٢٤ بتأليف لجنـة فنية لدراسـة الموضوع ، وعندما يناقش اقتراحه فى جلسـة ٢٤ مايو سنة ١٩٢٤ يكون سعد زغلول رئيس الوزارة ضمن مناقشيه . وتعد هذه الجلسة واحدة من أعنف الجلسات التى شاهدتها قاعة النواب ، فقد ارتفعت درجة غليانها حدة مناقشتها، خاصـة عندما وافق الوزير على تأليف اللجنـة . ولا يكتفى الرافعى بذلك بل يطالب الوزارة بالتدخل بحزم لايقاف المشاريع حتى تعرض اللجنة الفنية تقريرها ، وأن يكون اهتمام الوزارة المصرية بهذه المشروعات لا يقل عن اهتمام الحكومة الانجليزية بها . فيرد مرقص حنا قائلا : ... ان لاحق للرافعى فى هذا الكلام فلا علاقة له بسؤاله . ويتدخل رئيس المجلس أحمد مظلوم باشا ويعد اشارة الرافعى خروجا عن الموضوع . ويشارك سعد زغلول فى المناقشة فى هـذا الحوار الساخن مع عبد الرحمن الرافعى . ويذكر أحمد شفيق الحوار الآتى :

رئيس الوزارة ـ الحكومة تقول أن المشروعات مضرة اذا اختلف المالك ، فهل تدلنا على الطريقة التى بها يكون المالك واحدا ؟ ان ما نريده هو هذه الطريقة ولسنا بمقصرين فى شىء بل نريد حيازة السودان دون الانجليز فما هى الطريقة العملية التى توصلنا الى ذلك ؟

عبد الرحمن الرافعى ـ الوزارة يمكنها وقف هذه الأعمال .

رئيس الوزارة ـ المسألة ترجع الى أمر واحد وهو من الذى يجب أن يضع يده على السودان أنحن أم الانجليز ؟ فما هى الطريقة التى بها نحوز السودان دون الانجليز ؟ أما سياسة وخز الابر فلا أعرفها ، ونحن قوم عمليون ، نحن نقول . ونكرر ونؤكد . ونقيم الحجج على اننا ما لكون للسودان . وهم لنا معارضون . ان كنت تعرف هذه الطريقة ولا تريد أن تفضى بها علنا فتعال وأخبرنى بها سرا . نحن لا نفرط فى حقوق الأمة ولا نتهاون فى أمر السودان . انما قوة وزارة الشعب مستمدة من قوة الأمة . فما هى الطريقة التى بها نحوز السودان بدون منازع وكلنا نسعى لهذه الغاية . كلنا يقول بأن السودان

لنا وهذا حقنا ففكر وتعال اتفق معنا على أحسن طريقة . أما الكلام فكل واحد يمكنه أن يتكلم .

عبد الرحمن بك الرافعى ــ أنا عملى أيضا وأطلب من الوزارة وقف المشروعات .

رئيس الوزراء ــ لقد طلبت الوزارة السابقة وقف الأعمال . فكان الرد وقف الأعمال النافعة لمصر على النيل الأبيض . واستمر العمل فى مشروعات النيل الأزرق . وسمحت لهم الحكومة بالاستمرار فى العمل على حسابهم وتحت مسئوليتهم .

عبد الرحمن الرافعى بك ــ هناك فرق بين الحكومة والشعب والحكومات السابقة .

رئيس الوزراء ــ واذا قلنا لهم أوقفوا العمل فقالوا لنا لا . كما سبق ! .. دعونا ندير الأمور كما تقضى به مصلحة البلاد .

عبد الرحمن الرافعى بك ــ ولكن المهندسين تابعون لوزارة الاشغال .

رئيس الوزراء ــ تعال نولك الوظيفة التى تعجبك ونفوض لك أمر وقف هذه المشروعات .

عبد الرحمن الرافعى بك ــ أنــا لا أريــد وظيفــة وأطلب من
الوزارة أن تقوم بعملها لأن معالى الوزير يعلن أن
مصلحة الرى فى السودان تابعة لوزارة الاشــغال
وعمالها تابعون لها .

رئيس الوزراء ــ أتريد سحبهم أتشير بذلك ؟

عبد الرحمن الرافعى ــ هــذه اللهجة لم نكن لننتظرها من دولة
الرئيس فمنه ينتظر الأمل لا اليأس .

رئيس الوزراء ــ لا تقف موقف المعجز فقوتى من قوتك ، وقل
لى ما يمكننى تنفيذه . انك تسأل فما هو الغرض ؟
وهل تتوقف نحن عن عمل ما هو فى خير الامكان
اننا نريد السودان . ومحال أن نتركه غنيمة باردة .
وان ما تراه يابنى ليس تقصيرا .

عبد الرحمن الرافعى بك ــ واللجنة الفنية ، لمــاذا لا تعين فهل
ينتظر حتى تنتهى المشروعات فتعين وتصبح أمــام
الأمر الواقع ؟

رئيس الوزراء ــ نحن نعرف ونقول بأن المشروعات مضرة .
اذا اختلف المــالك فما فائدة اللجنة وهى لن تقرر
أكثر مما نعرف » (١٠) .

ومن أشهر مناقشات الرافعى معارضته فى جلسة ٢٤ يونية

سنة ١٩٢٤ لتنفيذ قانون تعويضـــات الموظفين الأجانب الذين تركوا خدمة الحكومة الصادر فى ١٨ يولية سنة ١٩٢٣ ـــ قبل تولى سعد الحـــكم ـــ حيث يكلف ميزانيـــة الدولة مليونا وثلاثمائة ألف جنيه • ويكون رد سعد زغلول رئيس الوزراء متفقا فى الجوهر مع الرافعى ومؤيدا له ، ولكن للسياسة منطقها ولصاحب القرار مسئوليته « والنار لا تحرق الا من يقبض عليها » كما يقول المثل الشعبى • ويشير الزعيم المصرى الى موقفـــه المعارض من القانون قائلا :

ـــ لا أقول الى أول شخص انتقده ولكنى من الذين انتقدوه بكل شدة واستنكروه • وقد بينت عيوبه ولا أزال استنكره وأعده ضربة على الخزانة ونكبة على أموال الأمة وانه سابق لأوانه • بل أقول أيضا انه مخالف للدستور ولم أقل هـــذا الآن فقط بل قلت هذا قبل الآن بزمن طويل وقبل خطبة العرش قلته رسميا وكتبت به للحكومة الانجليزية فأنا بصفتى منكم وبصفة كونى رئيس الحـــكومة أعتبر هـــذا القانون باطـــلا ومخالفا للدستور ومجحفا بحقوق الخزانة وسابقا لأوانه • أعتبر كل هـــذا واستنكره من قلبى وجوارحى ولكن فرقـــا بين أن يستنـــكر الانسان شيئا ويحتج عليه ويعتبره باطلا وبين أن يتوقف عن تنفيذه • مثل ذلك حكم يصـــدر على

نافذ المفعول . قد استنكره واحتج عليه ولكن أنفذه رغما عنى . مكره أخاك لا بطل فهذا القانون الذى هــذه صفاته أعتبره معاهــدة واتفاقا مأذونا به من السلطة الشرعية فى البلاد وبهذا انعقد الاتفاق بين الطرفين وانى أوافق حضرة الرافعى بك فى أن هــذا ما كان ينبغى أن يعمل . ولكنــه عمل وارتبطنا به فمهما كان فى هذا الارتباط من البطلان القــانونى فقد انعقد سياسيا ولا يمكن لأحد الطرفين أن يتحلل منه الا باتفاق مع الطرف الآخر . ولا يمكننا أن ننهى الأمر بيننا وبين الطرف الآخر بمجرد القول ببطلان هــذا بل ينبغى أن نتحادث مع الطرف الآخر ونتفاهم معه حتى نصــل الى الاتفــاق على بطلانه والامتناع من تنفيذه هناك دولة ارتبطت معنا فاذا تشبثنا بالبطلان وامتنعنا عن التنفيذ وقالت لنا هذه الدولة ليكن ذلك . ولنرجع الى الحالة التى كنا عليها قبل هذا الارتباط فهل يمكن أن نحتمل عودة الموظفين الأجانب الى مصالح الحكومة ! هل منكم من يقول هــذا ؟

أصــــوات ــ حاشـــا

رئيس الوزراء ــ ما كنت أريــد أن أقول ذلك ولكن الضرورة

الجأتنى اليه ، نعم أن المبلغ باهظ ولكن العودة الى الحالة الأولى أصعب لقد اشترينا بهذا المبلغ الباهظ سعادتنا الداخلية لأن الموظفين الانجليز كانوا سادة وحكاما لذلك لما جاءت طريقة أخرى للحكم قالوا لا يمكننا أن نعيش كمحكومين أو مسودين ويجب أن نخرج ونأخذ تعويضا . فهذا منشأ قانون التعويضات . وتقرر الأغلبية اعتماد المبلغ (١١) .

ولاشك أن كثيرا من الاقتراحات التى قدمها عبد الرحمن الرافعى فى مجلس النواب ، تؤكد الجهد الكبير الذى قام به والدراسات التى أعدها ، وقبل ذلك ايمانه بالخدمة الوطنية وهذه بعض اقترحاته (١٢) :

- ايفاد بعثات علمية للتعاون فى ايطاليا وبلجيكا وهولندا وايرلندا . وعده نائب وزير الزراعة بقرب تقديم الوزارة لقانون خاص بذلك .
- استثمار الأموال المودعة بالبنوك لفائدة الجامعة المصرية بافتتاح أولى كلياتها .
- تكليف المطبعة الأميرية بطبع مؤلفات والمحاضرات العلمية بالاضافة الى ما تقوم به من أعمال نظرا لطاقتها الكبيرة المعطلة . وهذا يلفت الى اهتمامه المبكر بالثقافة ونشرها . ويجيبه وكيل وزارة

المـالية أن المطبعة كانت تقوم بطبع احتياجات دار الكتب الى أن أقامت الدار لها مطبعـة خاصـة والمطابع الأميرية على استعداد لطبع النافع •

— تأجير أطيـان الحكومة للأهـالى المقيمين ببلادها وتفضيلهم على غيرهم خدمة للصالح العام ، وقامت الحكومة بذلك مع الوعد بالتوسع فيها •

— انشاء اسـطول تجارى مصرى بدل الاعتماد على بواخر الشركات الانجليزيـة •• استعادة لعظمـة الملاحة البحرية المصرية التى ازدهرت أيام محمد على وباع الاستعمار البريطانى بواخرها • وعندما اعتذر وزير المواصلات بضيق الوقت وقلة المـال ، طلب الرافعى البدء بشراء مركب أو ثلاثة كنواة ، اتفق فى هـذا مع اللجنة التى شكلت لترتيب زيـارة الحجاج ووعدت الوزارة بتدبير المبالغ المطلوبة •

ولاشك ان موقف عبد الرحمن الرافعى أحد قادة الحزب الوطنى من معاهدة ١٩٣٦ ، تستأهل وقفة خاصة • لم تكد تذاع نصوص معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ التى وقعتها هيئـة المفاوضة المصرية المؤلفة من ممثلى الأحزاب السياسية عـدا الحزب الوطنى ابان حكومة النحاس باشا ، حتى اهتم الرافعى

سكرتير الحزب الوطني ببحثها وتحليلها فى مقال حاد نشره بعد عشرة ايام من اعلان بنودها فى جريدة « الأهرام » فى ٦ سبتمبر سنة ١٩٣٦ . ولم يكتف الرافعى بذلك بل طبع نصوص المعاهدة ورأيه فيها فى كتيب صغير على حسابه مرتين متتاليتين وكل طبعة فى خمسة آلاف نسخة فى ٦٤ صفحة من القطع الصغير وزعها بالمجان وكان عنوان الكتيب (قواعد المعاهدة استقلال أم حماية ــ بحث وتحليل ــ) مشيرا فى المقدمة الى « الآن وقد نشرت نصوص المعاهدة ، وانقضت فترة كافية لمن أرادوا الابتهاج بها ، يجب على الأمة أن تبحثها وتفهمها على حقيقتها . لأنها لا ترتبط بحقوق الأفراد وحدهم بل تتعلق بحقوق الوطن . فى حاضره ومستقبله . ولا تقتصر نتائجها على الجيل الحاضر فحسب . بل تتعدى الى الأجيال جملة . واذا كانت عقود التصرفات بين الأفراد كالبيع والايجار والرهن وما الى ذلك لا يبرمها أصحاب الشأن الا بعد بحثها وتمحيصها وانعام النظر فى شروطها ومحتوياتها . فأجدر بالعقود التى يرتبط بها مصير أمة أن تكون موضع الدرس والعناية من طبقات الأمة كافة حتى تتبين أى مصير هى قادمة عليه اذا هى قبلت المعاهدة » .

وكان أهم جوانب نقد الرافعى لها ، ان الشروط العسكرية فيها والتى تعد من أهم بنودها ، قد اشتملت على مزايا للانجليز تفوق ما رفضه سعد زغلول سنة ١٩٢١ ورفضه النحاس نفسه سنة ١٩٣٠ فهى قد اتاحت للمحتل :

— رقعة أوسع ، حيث تستوعب منطقة القناة كلهـا وشـبه جزيرة سيناء كلهـا والجزء الجنوبى من الشرقية لحدود القاهرة وحدود الجيزة .

— لم تحدد عدد القوات الانجليزية . كما أنها فرضت على الجانب المصرى لانتقال قوات الاحتلال انشاء المعسكرات والطرق الحربيـة اللازمة وتحسـين المواصـلات .

— ابقت الطيران الانجليزى فى القناة قريبا من السكك الحديدية واشترطت على الحكومة المصرية انشاء مطارات جديدة — وقد تبين ان هذه الانشاءات لن تقل عن عشرين مليون كرأى المهندسين .

— قيام الحكومة المصرية بتقديم جميع المساعدات داخل حدودها فى حالة قيام حرب .

وكان من عيوب المعاهدة أيضا فى نظر الرافعى ، انه لا يصح النظر فيها الا بعد عشرين عاما . وكذلك فى حالة عدم اتفـاق الطرفين بعد ثلاثين عاما من ابرام المعاهدة ، يعرض الأمر على الأمم المتحدة . كما أصبح السودان من خلال المعاهدة مستعمرة انجليزية تحرسها القوات المسلحة المصرية تحت سيطرة الحاكم العام البريطانى .

ولم تفد المعاهدة فى الغاء الامتيازات الأجنبية والمحـاكم المختلطة كما كان متوقعاً بل اساءت الى مصر حيث لن تستطيع أن تلغى الامتيـازات من جانبها فقط بل التزمت بالاتفاق مع الدول المعنية .

ورأى الرافعى أن شروط المعاهـدة تتمثل فيهـا قواعد الحماية ، فالمحالفة أبدية . كما أنها حولت الاحتلال غير المشروع الى احتـلال مشروع بالسيطرة على السـودان وبقاء القوات المسلحة المصرية تحت تأثير البعثة العسكرية البريطانية وكان من رأيه أيضا ان الاعتراف بأن مصر دولة مستقلة ذات سـيادة ، المقترن ببقاء القوات البريطانية فى مصر ، لا ينتج استقلالا .

ويختتم عبد الرحمن الرافعى تحليـله بقوله « ان الأمم لا تتعاقـد وعلى الأخص لا تتحالف ولا تتصـادق على قاعدة التسليم فى حقوقها وقبول الحماية عليها . ان الحماية قد تفرض على الأمة رغما عنها بحكم القوة . وفى هذه الحالة يبقى حق الأمة ثابتا وروحها سليمة . أما قبول الحماية وجعلها أساسا لصـداقة ومحالفة . فهذا عمل أمة تعبت من الجهـاد القومى وانصرفت عنه . وآثرت التسـليم فى اسـتقلالها . وهـذا ما لا ترضاه أمة تقدر قيمة الاستقلال وتحـافظ على حقوق الوطن المقدسة . ورحم الله المغفور له محمد بك فريد اذ يقول

(اننا نعرف كيف نصبر على المكاره ولكننا لا نعرف التسليم فى حقوقنا والتنازل عن مطالبنا » [١٣] .

وظل الرافعى يندد بالمعاهدة كلما وجد الى ذلك سبيلا ، وطوال عضويته بمجلس الشيوخ (١٩٣٩ ــ ١٩٥١) فعل ذلك أيضا ، حتى بدا الأمر حينا غير طبيعى . ومن أطرف المواقف ما حدث فى جلسة ١٢ يونية سنة ١٩٤٠ وهو يتحدث عن دخول ايطاليا الحرب الثانية وقطع الحكومة المصرية علاقتها الدبلوماسية معها ، ورغبته فى اعلان حياد مصر .. قال : « .. قطع العلاقات قد يؤدى بنا الى مشاكل والى الاستهداف الى ويلات الحرب . قد يقال اننا مرتبطون بالمعاهدة ولا يمكننا أن نبقى على الحياد مع وجود نصوص هذه المعاهدة . وهنا أستسمحكم ولا أقصد توجيه اللوم الى أحد أن أقول أن المعاهدة قد ألقت علينا تبعات ثقيلة كنا فى غنى عنها » . فينبرى للرافعى رئيس المجلس (محمد محمود خليل) بقوله : ارجو من حضرة الزميل أن يتكلم فى الموضوع فالمعاهدة قد صدق عليها البرلمان ولا محل الآن لنقدها فى هذا المقام ! ولكن الرافعى يتابع هجومه على المعاهدة ، فيرد عليه هذه المرة رئيس الوزراء على ماهر قائلا : لقد نصت المعاهدة على ان نعاون الحليفة داخل حدود الأراضى المصرية بجميع التسهيلات والمساعدة التى فى وسعنا . ولكن الرافعى يشير الى أن الأحكام

العرفية المعلنة فى البلاد فيها الكفاية . فيعقب العضو يوسف أحمد الجندى قائلا : لزم علينا فى هذا الموقف العصيب أن نصارح أنفسنا بالحق والواقع فيجب أن نقول ان بلادنا فى مركز يرثى له ولا يحسد عليه فى مركزها هذا سواء أكانت المعاهدة قد عقدت أم لم تعقد . اذ ليس بصحيح ما قاله زميلى الأستاذ عبد الرحمن الرافعى من أن المعاهدة ألقت علينا أعباء ثقيلة . فهذه الأعباء موجودة حتما . ولابد من أن توجد ما دام فى هذه البلاد جندى انجليزى واحد . وهذه هى حالة البلاد قبل ان تعقد المعاهدة ووقت ان لم تكن متمتعة باستقلالها . فنحن فى مركز دقيق غاية الدقة . وكل غيور على مصلحة هذه البلاد يجب عليه أن يعمل ويسعى بكل ما يستطيع ليخفف عنها الويلات التى قد تتعرض لها بسبب الحرب » (١٤) .

ومن أشهر مناقشات الرافعى حول المعاهدة أيضا ، ما وقع فى جلسة ٣ يونية ١٩٤٢ وهو يناقش خطاب العرش فى عهد وزارة مصطفى النحاس فما كاد يتكلم عن الحياد والجلاء والسودان ، حتى أخذ ينتقد المعاهدة فعارضه وزير العدل وتدخل بهى الدين بركات رئيس المجلس لتخفيف حدة الرافعى (١٥) .

وفى جلسة ١١ أكتوبر ١٩٤٥ تقدمت الحكومة مشروع قانون بالموافقة على ميثاق الأمم المتحدة الذى وقعته ٥٣ دولة

من بينهم مصر فى مؤتمر سان فرنسيسكو فى ٢٦ يونية ١٩٤٥ فيعترض الرافعى على هـذا الميثاق ويربط بينه وبين نصوص معاهـدة ١٩٣٦ حيث رأى انه عبـارة عن احيـاء وبعث وتجديد لها !

وفى جلسـة ٦ أغسطس ١٩٤٥ يتحـدث الرافعى فى استجوابه عن الأهداف القومية للبلاد ويطالب الحكومة بمطالبة انجلترا بها ويعرج على المعاهدة « أنـا بطبعى ميال الى الوسائل السلمية فى المطالبة بأهـداف مصر . بقيت كلمة ربما وجهت بها وهى أن يقال لى ان بين مصر وبريطانيا معاهدة فما رأيك فيهـا ؟ وأنـا فى الواقع لا أريـد ان احاججكم بالمنطق الذى تعودتموه منى فى هذه النقطة وهو اننى لم أقبل هذه المعاهدة ولم أقرها ، وهـذه حجتى . ولكننى لن أتمسك بهذا المنطق فى هـذه الليلة بالذات ، لأننى أريد أن تكونوا راضـين عن أفكارى ولذلك فانى ألجـأ الى منطق آخر أعتقد أنه يرضيكم تمام الرضا ، وهـذا المنطق هو أن العقود التى تبرم بين الدول يجب أن يكون أساسـها الحرية التامة لأن العقود بين الدول كالعقود بين الأفراد اذا شابها اكراه أو ضغط فهى عقود غـير ملزمة . فالظروف التى وقعت فيها معاهدة سنة ١٩٣٦ ليست ظروفا تدل على حرية تامة فى التعاقد .. ولذلك نرجو أن تستبعد كل حجة تستمد من هـذه المعاهدة ؛ ويجب أن تكون حججنا

مستمدة من حقنا الطبيعى فى الاستقلال ، وهذه هى الحجة التى لا يمكن مطلقا لأحد أن ينكرها علينا (١٦) •

وكذلك رأيناه فى مناقشته لخطاب العرش فى عهد وزارة النقراشى بجلسة ١٤ يناير سنة ١٩٦ لا يمل من الترديد أن الأمة تريد أن تتحلل من المعاهدة •

ومن أهم مناقشاته الوطنية فى ظل تسلط حكومة صدقى، مطالبته فى جلسة ١٢ يونية سنة ١٩٤٦ بتعويض أسر شهداء الاسكندرية الذين قتلوا فى المظاهرات برصاص الانجليز يومى ٢١ فبراير ، ٤ مارس سنة ١٩٤٦ وبلغ عددهم ٢٨ شهيدا واصابة ٣٤٢ جريحا • وهذا جانب من المناقشة بين اسماعيل صدقى رئيس الوزراء وعبد الرحمن الرافعى عضو الشيوخ :

اسماعيل صدقى ــ قلت ان القانون لا يلزمنى بدفع تعويض ، وقلت كذلك انى سأعطى تعويضا للذين يستحقون ويكونون فى حاجة تستدعى الاعانة والشفقة •

عبد الرحمن الرافعى ــ أريد أن أقول ان هناك ما يسمى بالواجب العام ، وهو ما يجب أن نقدمه دائما على القانون • وأضرب لحضراتكم مثلا بسيطا اتخذه حجة ذلك أنه فى كثير من الأحوال يتوفى موظف فى أثناء تأدية

وظيفته ، فترى الحكومة أن تساعد ورثته بالتنازل عن نصيبها فى المعـاش أو تقرر لأسرتـه معاشـا استثنائيـا ، وهى ترمى من وراء ذلك الى تشجيع الموظفين المقيام بأعمالهم استنادا الى الواجب العام •

اسماعيل صدقى ــ ليس هذا تشجيعا ، بل هى اعانة تقوم بها الحكومة فى بعض المناسبات •

عبد الرحمن الرافعى ــ أظن أن الذى سـقط فى الشـوارع وفى ميدان الجهاد أولى بالعطف من ورثة الموظف •

اسماعيل صدقى ــ أليس هـذا ميدان جهاد ؟

عبد الرحمن الرافعى ــ أما النقطة الثانية فاننى أرغب أن تظهر الحكومة عناية أكبر مما جاء فى أقوال دولة رئيس مجلس الوزراء • فقد كنت أنتظر عقب الحوادث مبـاشرة أن يخصص مبلغ ابتدائى لعائـلات الذين سقطوا فى ميدان الجهاد حتى يكون مظهرا حقيقيا للعطف على هؤلاء • أما انتظار تحقيقات أو استيفاء بيانات أو تحريات أو أبحاث ، فهذا أمر يطول بهم • وقـد يصـل الى عـام ولا يصرف شىء لأسر الشهداء (١٧) •

المراجــع

١ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** عصر اسماعيل جـ ١ ط ٢ ص ٨ .

٢ ـ الأخبار عدد ٢٦ يونية ١٩٢٢ .

٣ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** حقوق الشعب ط ١ ص ١١ .

٤ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** مـذكراتى ط ١ ص ١٤٥ .

٥ ـ المرجع السابق ص ٤٩ .

٦ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** فى أعقاب الثورة المصريـة جـ ١ ط ١ ص ١٥١ .

٧ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** أعمالى فى مجلس النواب ط ١ ص ٧ .

٨ ـ المرجع السابق ص ١٨ .

٩ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** أربعـة عشر عاما فى البرلمـان ط ١ ص ١٩ .

١٠ ـ **أحمـد شـفيق :** حوليات مصر السياسـية ـ الحولية الأولى سنة ١٩٢٤ ط ١ ص ١٩٠ .

١١ ـ **عبد الرحمن الرافعى :** أعمالى فى مجلس النواب ط ١ ص ٤٦ .

١٢ ـ المرجع السابق ص ٩٤ .

١٣ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : قواعد المعاهدة استقلال أم حماية ـ بحث وتحليل ط ٢ ص ٦٢ .

١٤ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : أربعة عشر عاما فى البرلمان ط ١ ص ١٦٩ .

١٥ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مذكراتى ط ١ ص ٩٧ .

١٦ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : أربعة عشر عاما فى البرلمان ط ١ ص ٤٣٨ .

١٧ ـ المرجع السابق ص ٤٨٦ .

يكتب عن الشعر والشعراء

كانت شخصـية المؤرخ الكبـير عبد الرحمـن الرافعى (١٨٨٩ ــ ١٩٦٦) مع بساطة صاحبها الظاهرية شديدة العمق متنوعة الاتجاهات ، وهـكذا لم يقتصر انتاجه الفـكرى على التاريخ فقط بل تجـاوزه الى السياسة والتعاون والأدب أيضا خاصة الشعر ، ولا غرابة فى ذلك وهو يملك رؤية شاملة للأشياء والانسـان . وهـذا الجانب الأخير الذى يبدو غير عادى فى شخصية شيخ المؤرخين ، هو الذى تعالجه هـذه الدراسة .

ان اهتمام مؤرخنا القوى بالشعر لم يكن نابعا من فراغ ، فقد عرف منذ طفولته طريقه الى الثقافة الاسلامية والشعر أيضا

بفضل أبيه الشيخ عبد اللطيف الرافعى أحد علماء الأزهر ومفتى الاسكندرية الذى كان يدرس لأولاده بعض العلوم . ثم كانت مطالعة عبد الرحمن فى صغره فى مكتبة أبيه الحافلة ، الخطوة الثانية فى هـذا الاتجاه . ولم يكن عبد الرحمن وحده الذى يعشق قراءة الأدب والشعر بين أخوته ، بل كانوا كلهم مثله .. أحمد وابراهيم وأخيرا أمين الرافعى الصحفى والسياسى والوطنى الذائع الصيت فى العشرينات .

وقد انعكست اهتمامات عبد الرحمن الرافعى بالشعر فى أربعة أشكال ، الأول مختاراته من الشعر العربى القديم التى كان يدونها فى مخطوط لم ينشر بعد ولم يشر اليه فى قصـة حياته ، والثانى التضمين الشعر الذى حفلت به كتبه بشـكل واضح . والثالث الاشارة الى أشهر الأدباء والشعراء الذين برزوا خـلال الفترة التى تتناولها كتاباته . وأخيرا كتابه عن « شعراء الوطنية » .

لقد كان مؤرخنا منذ صباه يسجل ما يعجبه من الشـعر الذى يطالعـه فى دواوين العرب القدامى ، فى أوراق خاصـة يحتفظ بها .. ويقرؤها كثيرا . وتاريخ هـذا المخطوط الشعرى يرجع الى سنة ١٩١٧ وتصـل صفحاته الى ٥٩٤ صفحة من القطع المتوسط . واختار له عنوانا هو « مختاراتى من دواوين الشعراء فى الجاهلية والاسـلام » (١) ! ويتكون من جزءين

يشتمل الأول على أربعة أبواب ويشتمل الثانى على الباب الخامس حتى الثانى عشر •

يسطر الرافعى فى المقدمة التى كتبها لمختاراته هذه الكلمات : « هذا ما اخترته من دواوين الشعراء على اختلاف طبقاتهم جاهلين ومخضرمين ومولدين • وقد توخيت فى هذه المختارات أن أدون فيها خير ما يتمثل به من أشعار العرب فى الكتابة والخطابة » •

وأبواب كل جزء تشتمل على عدة فصول ، ونبدأ بالجزء الأول • ففصول الباب الأول هى (فى الاخلاقيات) الذى يضم (فى اباء الضيم والنفور من الذل) • وتحمل الفصول من الثانى حتى الخامس والعشرين العناوين التالية : فى ايثار الموت الشريف على الحياة الذليلة ، المعالى محفوفة بالمكاره والشدائد خير مرب للرجال ، فى النفوس الكبيرة ، فى الشجاعة وامتداحها ، فى الحق ، فى الافتخار بالشجاعة وشدة البأس ، السجن لا ينضب الكرام ، الهجرة من دار الذل ، فى عزة النفس والعفة ، فى الاقدام والمخاطرة ، الطموح الى المجد والشهرة ، مغالبة الدهر ، الحرص على الحياة ، فى المثابرة ، فى الحذر ، فى الاعتماد على النفس والتعويل على الله ، الاضطلاع بعظائم الأمور ، العفو عند المقدرة وذم النفاق ، كتمان السر وافشائه ، المرء أسير طبعه وعاداته ، على المرء أن يسعى ، الارجاف بالكذب والاناء

ينضح بما فيه ، مواراة عيوب الناس ، متفرقات فى الاخـلاق والحكمـة •

أما عنوان الباب الثانى فهو (فى العواطف) يضم فصولا سبعة هى : محبة الوطن والحنين اليه ، تحية مصر عند القدوم اليها ، الحنين الى الأهل والصـديق ، مناجاة الاطلال ومخاطبة الآثـار ، فى الغزل النسيب ، الفراق وآلامـه ، الأمل غـذاء النفوس •

والباب الثالث (الزمان وأحواله) يشـمل ثمانية أبواب هى : فى شكوى الزمان ، الكرام عرضه لنوائب الزمان ، العظيم المجهول قدره ، فى الصبر على المصائب واطراح الهم ، ذم الدهر وغرور الدنيا والزهد فيها ، فى السفر والغربة ، تقلبات الأيـام ، لا مرد لقضاء الله ، الآمال والامانى •

أما عنوان الباب الرابع فهو (فى الفخر) بدون فصول •

ويحمل الخامس اسم (فى الاخوانيات) وفصوله الثلاثة تحتوى على : الغياب ومسامحة الاخوان ، الشـكوى من قلة الأنصار والاخوان ، مظاهر الأخاء والصداقة •

والباب السادس (فى الاستعطاف والتشكى) ولم يقسـم الى فصـول •

والسابع (فى المديح والتهانى) وتشتمل فصــوله التسعة على : امتداح السيادة والتفوق ، كرم المحتد ، امتداح الشباب ، امتداح البلاغة والافتخــار بها ، مدح الكرم والجود ، مدح العدل ، مدح العظماء ، فى التهانى ، فى الشكر والثناء .

والباب الثامن (فى الهجاء) ويضم فصــول ســتة هى : فيمن حياتهم جناية على الناس ، لوم الجــاهل ، عدم الأمانة ، لا يكرم اللئيم ، ذم النفاق ، فى الحسد .

والتاسع (فى الرثــاء) يتكون من ستة فصول : الحكمة والفلسفة فى معرض الرثاء ، التوجع فى الرثاء ، رثاء الزعمــاء والأبطال ، رثاء العزيمة ، رثاء أهل بيت النبوة ، رثاء الأمم .

والبابان العاشر والحادى عشر لم يقسمهما الى فصــول وهما (فى الوصف والتشبيه) و (فى النصح والارشاد والزجر والتقريع والتهديد) .

أما الباب الثانى عشر (شذور متفرقة فى الاجتماعيــات) فيشتمل على ثلاثة فصــول : الحق المقوة والسيف والقــلم ، اجتماع الكلمة والدعوة للوئام ، شذور متفرقة فى الاجتمــاع . والأخير يشمل على : فى الشعر السياسى ، فى الغزل والتشبب ، الحنين الى الأهل والحمى والصديق .

ويشتمل الباب الأخــير على طبقات الشــعراء والأدبــاء والعلماء فى الجاهلية والاسلام ، ويحمل هذه العناوين :

(أ) عصر الجاهلية : أصحاب المعلقات .

(ب) العصر الاسلامى : عصر الخلفاء الراشـدين والعصر الأموى ينتهى بسقوط الدولة الأموية .

(جـ) المحدثون ، العلوم الدخيلة ، الشـعراء فى ذلك العصر ، العصر العباسى ، العصر الأول ، ظهور الدولة العباسية ، كتاب الرسائل والكتاب والمؤلفون ، علمـاء الأدب ورواته ، علماء العروض والقافية ، علماء النحو ، الطبقة الثانية ، الطبقة الثالثة ، الطبقة الرابعة ، الطبقة الخامسة ، الطبقة السادسة .

(د) العصر العباسى الثانى : شعراء الحرب والسلام . كتاب الرسائل والكتاب المنشئون ، علمـاء الأدب ورواتـه . علماء النحو ، علماء اللغة ، علماء البلاغة ، علماء التفسير ، علماء الحديث ، علماء التاريخ .

(هـ) العصر المغولى :

وبهـذا الشـكل ضـم مخطوط الرافعى الشـعرى ، عشرات الاسـماء من شـعراء العربية الكبـار فى مختلف عصورهم حتى العصر المغولى . وهـذه المختارات التى انتقاها الرافعى من دواوين العرب لا تمضى بلا دلالة ، فهى تعكس من ناحية ايمانه العظيم بالله وبالقيم الاسلامية التى ظل وفيا لها طوال حياته ، كما تعرض من ناحيـة ثانية طبيعـة عبد الرحمن الرافعى الهادئة التى تقاوم ما يصادفها من صعاب ليس عن طريق العنف

بل عن الطريق الأطول ... الاعتماد على النفس . ومن ناحية ثالثة تعكس رسوخ عقيدة مؤرخنا الكبير فى المثل العليا التى اختارها لنفسه ثم دعا اليها غيره عندما أمسك بالقلم .

٢

أما الشكل الثانى الذى يعبر عن عشق الرافعى للشعر ، فهو استعانته بالتضمين الشعرى فى كتاباته البالغة القدم والبالغة الحداثة وما بينهما على السواء !

فقد كان مؤرخنا شديد الاهتمام بالحديث فى كل كتبه عن الحياة الفكرية والثقافية ، ومشاركة الأدب وخاصة الشعر فى الأحداث الوطنية ولم يكن يكتفى باختيار بعض أبيات القصيدة ، بل يعرض القصيدة كاملة . وقد بلغ اهتمامه بدور الشعر ان كان يضع اسماء القصائد التى يختارها عناوين فى فهرس الكتاب .

فى احدى كتبه المبكرة والثالث من حيث مؤلفاته وهو « الجمعيات الوطنية » ــ الذى صدر سنة ١٩٢٢ ــ يعرض مثلا لبيت من الشعر معروف يتفق مع اشارته الى الاضطراب الذى يصيب الأنفس ساعة الشدة ، وذلك فى عهد الارهاب فى فرنسا بعد ثورتها ، الذى قدم الى المقصلة مجموعة من

الشخصيات العظيمة مثل دانتون الخطيب الممتاز وكاميل ديمولان أكبر كتاب الثورة وعدم تبيين الشعب لاخطائه الا بعد أن قضى عليهم .. والبيت يقول :

يقضى على المرء فى أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

(ط ١ ص ٦٤)

وفى جانب آخر من الكتاب يشير كيف سمع العالم عن بولندا سنة ١٨٣٠ وهى تئن من نير الاحتلال ، بعد هجرة علمائها وكتابها وشعرائها لعواصم أوربا ليثيروا عواطف العالم لوطنهم السليب ، وكان من بينهم أشهر شعرائهم وهم : آدم ميكافكس ، وشوبين ، وجول سلواكى ، وآدم كرازنسكى ، ونمسيفكس .

وعندما يشير الرافعى فى كتابه السابع « **عصر محمد على** » الى الفارق بين قوة محمد على الذى لم تنل منه انجلترا شيئا لتحقيق أطماعها وبين عهد أحفاده الضعفاء حيث احتلت انجلترا مصر . يذكر مؤرخنا الكبير البيت المشهور :

لم اكن من جناتهـا علم الله
وانى بحرهـا اليوم صالى

(ط ٣ ص ٣٥٦)

وكان عبد الرحمن الرافعى من أوائل الكتاب الذين لفتوا بقوة الى رفاعة الطهطاوى ، عندما درسه طويلا فى نفس المجلد « عصر محمد على » مصـــورا الصعاب التى تعرض لها عندما نفاه عباس الأول سنة ١٨٥١ الى السودان لتولى نظارة مدرســة ابتدائية بالخرطوم ويقدم انتاجه الشــعرى الذى يعكس حالته النفسية ، كما تعرض قصيدته التى قالها وهو فى السودان :

فما انــا للأيــام غــير محــارب
أصاحبهــا مســتبشرا متهــللا

فان كان حظى رامحا كنت رامحا
وان كان حظى أعزلا كنت أعزلا

(ط ٣ ص ٥١٩)

« وفى الثورة العرابيــة والاحتــلال الانجليزى » يصف مؤرخنا حالة الزعماء المصريين عند محاكمتهم ونفيهم ويتوقف عند قصــيدة البارودى التى يصف فيهــا رحيــله عن أرض مصر ومطلعها :

محا البين ما أبقت عيون المهى منى
فشبت ولم اقض اللبانة من سنى

(ط ١ ص ٥١٠)

ويقدم نموذجا آخر لرب السيف والقلم يفيض تضحيــة وبطولة فى قصيدة له فى منفاه :

لم اقترف زلة تقضي عـلى بهـا

أصبحت فيه فماذا الويل والحرب

(ط ١ ص ٥٢٥)

ومن الملاحظ بهـذه المناسـبة أن الرافعى لا يستشـهد الا بالشعر الذى يتفق مع وجهة نظره هو فى الأحـداث التى يعرض ، واذا كان هذا الموقف يبدو متسقا مع المنهج ، الا انه فى الوقت ذاته لا يتفق مع الموضوعية فى الدراسة التى تستوجب عرض وجهات النظر المختلفة وعدم الاقتصار على التفسير الذى يقدمه الباحث . ولكن مؤرخنا لم يفعل ، وكان التضمين الشعرى يحمل وجهة نظر واحدة .. وفى هـذا الموضـع وهو الثورة العرابيـة المدانة فى معظم الأحـوال من عبد الرحمن الرافعى ، لا يأتى كاتبنا الا بما يؤكد هـذه الادانة . ولذا فليس بمستغرب ان يذكر مؤرخنا قصـيدة الشيخ محمد عبده التى قالها تأييدا لرياض حين يصف واقعة عابدين وذلك قبل أن ينصهر فى الثورة ابان وزارة البارودى ويقول الشيخ محمد عبده فى قصيدته :

قامت عصابات جند فى مدينتنا

لعزل خـير رئيس كنت راجيـه

ذاك الذى أنعش الآمـال غيرتـه

وخلص القطر فارتاحت أهاليه

(ط ١ ص ٥٤٠)

وتشتمل بعض كتب الرافعى على قصائد كاملة لمشاهير الشعراء ، كما فى كتاب « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » الذى يعرض لنماذج وطنية لأشعار حافظ ابراهيم وأحمد شوقى وخليل مطران واسماعيل صبرى وأحمد محرم وكذلك فى كتابيه « محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية » و « ثورة سنة ١٩١٩ » .

ولاشك أن مواكبة الشعر المصرى للأحداث القومية ومساهمة الكثير من الشعراء فى المواقف السياسية ، ساعدتا الرافعى المحب للشعر ، فى استخدامه وهو يدرس لتاريخ مصر الحديث .. ففى كتابه الرابع عشر « فى أعقاب الثورة المصرية » نجد الرافعى وهو يدرس اجتماع البرلمان من تلقاء نفسه يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ متحديا الحكومة ، وكذلك اجتماع المؤتمر الوطنى عصر يوم الجمعة ١٩ فبراير سنة ١٩٢٦ بحديقة منزل محمد محمود باشا الذى رأسه سعد زغلول . يعرض للقصيدة التى نظمها شوقى تحية للدستور وتوحيد الصفوف وألقاها فكرى أباظه والتى يقول فيها أمير الشعراء :

صرح على الوادى المبارك ضاحى
متظاهر الأعلام والأوضاح

ضافى الجلالة كالعتيق مفصل
ساحات فضل فى رحاب سماح

(ج ١ ط ١ ص ٢٥٥)

وفى الجزء الثانى من « أعقاب الثورة المصرية » يقدم الرافعى قصيدة حافظ ابراهيم التى هاجم فيها الانجليز وصدقى باشا سنة ١٩٣٢ قائلا :

بنيتم على الأخلاق اساس ملككم
فكان لكم بين الشعوب ذمام

فمالى أرى الأخلاق قد شاب قرنها
وحل بها ضعف ودب سقام

اخاف عليكم عثرة بعد نهضة
فليس لملك الظالمين دوام

(ج ٢ ط ١ ص ١٥٨)

ثم يعرض الرافعى قصيدة حافظ ابراهيم التى قالها فى أبريل سنة ١٩٣٢ بعنوان « الى الانجليز » متحديا ظلم المحتلين :

حولوا النيل واحجبوا الضوء عنا
واطمسوا النجم واحرمونا النسيما

واملأوا البحر ، ان أردتم ، سفينا
واملأوا الجو ، ان أردتم ، رجوما

واقيموا للعسف فى كل شبر
(كونستبلا) بالسوط يفرى الاديما

(ج ١ ط ١ ص ١٦٠)

وفى الجزء الثالث من نفس الكتاب يشير الرافعى الى قرار الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بتاريخ

٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ وما حل بالشعوب العربيـــة من ضعف وتفكك مستشهدا بقول الشاعر :

ومن رعى غنما فى أرض مسبعة
ونـام عنها تولى رعيها الأسـد

(ج ٣ ط ١ ص ٢٣٩)

وفى موضــع ثان وهو اهمــال وزارة الوفــد الأخـير سنة ١٩٥٠ ـــ من وجهـــة نظر الرافعى عضـــو الحزب الوطنى وخصم الوفد ـــ للمشروعات الانتاجية ، يستشهد مؤرخنـا بقول الشاعر القديم :

ومكلف الأيـام ضــد طباعهـا
متطلب فى المـاء جذوة نـار

(ج ٣ ط ١ ص ٣٠٥)

وكان الرافعى محبا للتضمين الشعرى ، ففى « جمال الدين الافغانى باعث نهضة الشرق » الذى صــدر بعد وفاته بأيام .

يكتب جمــال الافغــانى يصف ثــورة الأمريكيين على الاستعمار الانجليزى بقيادة جورج واشنطون :

السيف أصدق انبـاء من الكتب
فى حده الحد بين الجد واللعب

(ط ١ ص ١٦٩)

وليست مختارات الشعر والتضمين الشعرى ، هما وحدهما

اللذان يعكسان حب الرافعى للفن العربى الأول ، بل انه يناقش أيضا بعض القضايا الشعرية مثل حاجتنا الى شعر الملاحم نصور فيه تاريخنا النضالى الرائع .

ففى كتابة الحادى والعشرين « تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة من فجر التاريخ الى الفتح العربى » يلتفت الرافعى الى اهتمام شعوب العالم بأمجادها وبطولاتها فى ملاحمها الشعبية منذ كتابات هومير اليونانى صاحب الألياذة والاوديسة ، فيتساءل « فهل لنا أن نأمل فى تخليد بطولة المصريين فى حرب التحرير ضد الهكسوس . وأن نمجد هذه البطولة فى ملحمة من نظم شاعر عربى يشيد بالروح الوثابة التى انبعثت فى الشعب المصرى القديم وجعلته يكافح الهكسوس من أجل حرية الوادى واستقلاله ؟ هل نجد فى شعرائنا هومير الثورة على الهكسوس ؟ اننا نأمل ونرجو » .

(ط ١ س ٨٣)

وكان عبد الرحمن الرافعى يجد بعض الاجابة فى كتابه وهو يذكر قصيدة أحمد شوقى المشهورة « كبار الحوادث فى وادى النيل » التى يعدها البعض ملحمة حديثة مشيرا الى بسالة المصريين فى طرد الهكسوس :

لا رعاك التاريخ يا يوم (قمبيز)
ولا طنطنت الأنباء

دارت الدائرات فيك ونالت
هـذه الأمـة اليـد العسراء

فبمصـر ممـا جنيت لمصـر
اى داء ما ان اليـه دواء

نـكد خـالد وبـؤس مقيـم
وشـقاء يجـد منـه شـقاء

(ط ١ ص ١٧٠)

ولم تكن الكتـابة وحدها هى التى تستوعب التضـمين الشعرى عند الرافعى ، ففى خطبـه القليلة كان يستعين به فيها أيضـا .. فعندما أقيم فى دمنهور مساء الجمعـة ٢٠ ينـاير سنة ١٩٢٨ احتفالا لتأبين شقيقه أمين الرافعى يقول عبد الرحمن : ذهب يلقى وجه ربه راضيا مرضيا ولسان حاله يقول :

قـد عـذب المـوت بأفواهنـا
والموت خير من حيـاة الذليـل

انـا الى اللـه وانـا لـه
وفى سـبيل الله خير سـبيل (٢)

٣

والشكل الثالث الذى يعكس حب عبد الرحمن الرافعى للشعر وهو تسليط الأضواء على الشعراء ــ ضمنا ــ فى بحوثه التاريخية .. فى مجال عالم الثقافة والفكر الذى يعده عنصرا

هاما فى دراسة المجتمع المصرى الذى لا يقل ان لم يزد على دنيا السياسيين والمهندسين والعلماء والعسكريين وغيرهم •

ففى « عصر محمد على » يتوقف مؤرخنا طويلا عند رفاعة رافع الطهطاوى • (ط ٣ ص ٤٩٨) وفى كتاب « عصر اسماعيل » الجزء الأول يتحدث عن كثير من الشعراء مثل محمود سامى البارودى ، وعائشة عصمت تيمور ، وعبد الله نديم، وأديب اسحق ، والشيخ على الليثى ، وعلى أبو النصر المنفلوطى، والسيد صالح مجدى ، وابراهيم مرزوق ، ومحمود صفوت الساعاتى •

وهذا نموذج لمعالجة الرافعى لشخصيات الأدب والشعراء • ويكتب عن عائشة تيمور (١٨٤٠ – ١٩٠٢) قائلا : « طليعة اليقظة النسوية فى تاريخ مصر الحديث ، وأول من نبغ من المصريات فى الشعر والأدب ، نشأت من بيت كريم ، اذ كان أبوها اسماعيل باشا تيمور ، أحد كبار الحكام فى عصر عباس الأول وسعيد واسماعيل ، وشقيقها العلامة أحمد باشا تيمور ، بدت عليها ملكة الأدب والشعر وهى بين السابعة والثالثة عشرة ، ورأى أبوها منها هذا الميل ، فعنى بتثقيفها ، وأحضر لها أستاذين لتأخذ عنهما الأدب والعلوم ، وقالت الشعر وهى فى الثالثة عشرة ، فأعجب بها والدها وحبب اليها اجادته • فأكبت على نظم الشعر بلغات ثلاث ، الفارسية والعربية والتركية ،

وتزوجت وهى فى الرابعة عشرة بمحمد بك توفيق بن محمود بك الاسلامبولى ، فشغلتها الحياة الزوجية عن الأدب حينا ، فلما شبت ابنتها (توحيدة) عهدت اليها شئون المنزل ، وبعد وفاة والدها سنة ١٨٨٢ وزوجها سنة ١٨٨٥ تفرغت للشعر والأدب ، وأتقنت النحو والعروض على يد معلمتين من أهل العلم فى هذا العصر ، هما فاطمة الأزهرية ، وستيتة الطبلاوية ، وعادت الى نظم الشعر ، ثم توفيت ابنتها توحيدة فاشتد حزنها عليها ، وشغلت بالذكرى والبكاء سبع سنين عددا ، ثم عادت الى الكتابة والشعر ، وكانت وفاتها سنة ١٩٠٢ . ولها من الآثار الأدبية « حلية الطراز » وهو ديوان شعرها العربى ، و « شكوفة » وهو ديوانها التركى والفارسى ، و « نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال » وهى قصة أدبية كتبتها بأسلوب المقامات » (ج ١ ط ٢ ص ٢٥٧) .

وفى كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » تناول الرافعى باهتمام بالغ الشاعرين محمود سامى البارودى وعبد الله نديم . (ط ١ ص ٥٢٠ ، ٥٣٠)

وكذلك يفعل فى « تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم » الجزء الأول وهو يعالج الحياة الثقافية والأدبية وتطورها فى عهد السلاطين البحرية والبرجية واضمحلالها فى ظل الحكم العثمانى لأكثر من ثلاثة قرون . (ج ١ ط ٤ ص ٤٧)

ولكن من الملاحظ ان هـذا العنصر ، أى الالتفات الى الشعراء والحياة الثقافية لم يتكرر دائما فى دراسات الرافعى التاريخيـة .

٤

والشكل الأخير لاهتمام عبد الرحمن الرافعى بالشعر يقدمه كتابه « شعراء الوطنية » ـ ٣٠٨ صفحة من القطع الكبير ـ الذى ظهرت طبعته الأولى عام ١٩٥٤ .

ويشير مؤرخنا فى مقدمته الى باعث اصـداره « عندما أرخت الحركة القومية فى أدوارها المتعاقبة ، تبينت مبلغ ما للشعر الوطنى من أثر عميق فى التمهيد لها وبعثهـا ، واذكاء الروح الوطنية فى نفوس المواطنين ، وتسجيل الحوادث الهامة فى تاريخ مصر القومى ، ومن يومئذ وأنـا تواق الى أن أخصص لشعراء الوطنيـة سفرا منفردا ، يجمع معظم ما جادت به قرائحهم من الشعر الوطنى ، مع التعريف بشخصياتهم ، وذكر المناسبات التى أنشأوا فيها قصائدهم الوطنية »

ويوضح عبد الرحمن الرافعى منهج كتابه قائلا : « فانى أقصد من شاعر الوطنية من تغلب عليه النزعة الوطنية فى شعره، فاذا كان قد فاتني أن أتحـدث عن بعض الشعراء الممتـازين ،

فالأمر لا يعدو أن يكون رأيا تقديريا ، وأن يكون شعرهم الوطنى قد بدا الى مغمرا فى بحر شعرهم الفياض ، وهذا لا يغمض بداهة من منزلتهم فى عالم الشعر والأدب ، وحسبى عذرا لى أن رأيى التقديرى فى تخير شعراء الوطنية كان نتيجة دراسات مستفيضة ، عكفت عليها سنين عديدة ، ولم أقتصر على ما وعته ذاكرتى من الشعر الوطنى فى مختلف المناسبات ، ولا على دواوين الشعراء ، بل ذهبت أستقصى الشعر الوطنى فى مجاميع الصحف والمجلات ، عاما بعد عام ، قرابة نصف قرن من الزمان ، بحيث اكتملت لدى مجموعة من أشعار الوطنية ، بعضها لم ينشر من قبل فى كتاب أو ديوان . (ط ١ ص ٣ ، ٦)

والمتصفح للكتاب يكتشف أن غالبية الشخصيات قد سبق أن قدمها الرافعى فى مجلداته التاريخية ، وأنه فى « شعراء الوطنية » لم يفعل أكثر من تجميع ما كتب قبلا واضافة بعض القصائد الجديدة . وأغلب أصحابها كما ننتظر من منتم الى الحزب الوطنى ، هم من شعراء الحزب الوطنى أو من المتعاطفين مع مصطفى كامل ومحمد فريد وبقية رجال الحزب .

والشعراء الذين عرض لهم الرافعى فى كتابه هم : رفاعة رافع الطهطاوى ، عبد الله نديم ، محمود سامى البارودى ، اسماعيل صبرى ، أحمد شوقى ، حافظ ابراهيم ، خليل مطران ، أحمد محرم ، أحمد نسيم ، أحمد الكاشف ، محمد عبد المطلب ،

أحمد زكى أبو شادى ، عبد الحليم المصرى ، عزيز فهمى ، على الغاياتى • تناولهم بنسق واحد ، يكتب عن حياتهم ويعرض أجزاء من قصائدهم مشيرا الى مناسباتها •

والشاعر الأول الذى يقدمه مؤلفنا هو رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ــ ١٨٧٣) ذلك الواعظ الذى أوفده محمد على فى أولى بعثاته سنة ١٨٣٦ الى باريس ليرعى المبعوثين فانتظم فى الدراسة وتبوأ عند عودته ارفع الوظائف فى التعليم • ومن الطريف أن القصائد التى جاء بها الرافعى فى كتابه ، سبق أن نشرها فى « عصر محمد على » ، (ط ٣ ــ ص ٤٩٨) ! وقد أعجب الرافعى من قصائد رفاعة بقصيدة « حب الوطن من الايمان » التى يقول فيها :

هذا لعمرى ان فيها سادة
قد زينوا بالحسن والاحسان

يا أيها الخافى عليك فخارها
فاليك أن الشاهد الحسنان

ولئن حلفت أن مصر لجنة
وقطوفها للفائزين دوان

وهذه القصيدة من وطنيات رفاعة الطهطاوى التى يقول عنها الدكتور أحمد أحمد بدوى فى كلمته عن « رفاعة الأديب » ضمن مهرجان رفاعة الطهطاوى الذى اقامه المجلس الأعلى للفنون

والآداب : « .. ولكن الشيء الجديد الذي جاء به رفاعة هو هذه الأناشيد الوطنية التى وضعها حينا على لسان الجيش ؛ يفتخر بتاريخه المجيد ، وبشجاعته الباسلة ، وحينا بمجد مصر ، ويدعو الى فدائها بالدم والمـال ، وحينا دعوة حارة الى العمل كى يسود الوطن ؛ ويتناسب حاضره مع ماضيه ، ورفاعة بذلك أول من نظم فى الشعر العربى هذه الأناشيد الوطنية » (٣) .

ويتفق فى هذا الرأى الدكتور طه وادى ، الذى يقول فى كتابـه « ديوان رفـاعة الطهطاوى » : « لم تظهر بوضـوح الحساسية المفرطة لانتماء العربى لاقليمه الوطنى الا مع بداية النهضـة الحديثة ، وظهور المشاعر الخاصـة ازاءه . ذلك أن النهضة قد اعتمدت فى كل قطر عربى على جوهر كل ما يتصـل بتراث العروبة . بيد أن اليقظة كانت تقوم فى كل وطن فى مرحلة متفاوته ــ نسبيا ــ عن غيره ، مما حدا بالبعض الى أن يدعم نضاله الاجتماعى والسياسى ، الذى يعتمد ــ فى ــ الغالب على جهد فردى من أبناء شعبه . باثارة مشاعر الوحدة الوطنيـة والانتمـاء المتميز . والطهطاوى يعد (أول) معبر عن هـذا الأساس « الوطنى » فى الشعر العربى الحديث » (٤) .

والشخصـية الشـعرية الثانيـة فى كتـاب الرافعى هى « عبد الله نديم » (١٨٤٥ ــ ١٨٩٦) خطيب وشاعر الثورة العرابية ومن أصدق أعوانها حتى نهاية عمره على الرغم مما اصابه

من أجلها من عداء السلطات الحاكمـــة • وأديب الثورة يعده عمر الدسوقى « فى الطليعة من رواد الأدب الحديث » (٥) • ويقول عنه الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى « وعلى الجمـــلة فالسيد النديم يعد بحق من أعظم قادة الجماهير » (٦) • ومن المعروف ان النديم كتب كثيرا من الشعر ، ويشير جرجى زيدان الى ذلك بقوله « ومن مؤلفاته الكثيرة ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت نظمها وشبابه باسم الثغر طلق المحيا • وديوان آخر فى نحو ثلاثة آلاف بيت • وروايتا « الوطن » و « العرب » ورسائل أدبية مسجوعة لم تصـــل أيدى جامعى السلافة منها الا أربع عشرة رسالة بعد السعى الكثير ومكابدة العنايـــة الجزيل ، وكان ويكون (وهو الذى طبع بعضـــه فى الأستاذ) وواحد وعشرون كتابا فى فنون مختلفة قطع لأجلهـــا أيام حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الاقلام • منها ديوان شعر يحتوى على ما يقارب عشرة آلاف بيت وهو الآن محجور عليـــه فى الآستانة • ومنهمـــا النحلة فى الرحلة • والاحتفـــاء فى الاختفاء • والشرك فى المشترك • وكتاب فى المترادفات • وآخر فى اللغة سماه موحد الفصـــول وجامع الأصول والفرائد فى العقائد • واللآلىء والدرر فى فواتح السور • والبديع فى مدح الشفيع • وأمثال العرب وغير ذلك • وقد فقد كثير من مؤلفاته ومنظوماته حرقا أو ضياعا أو اغتيالا » (٧) •

ومن شعر النديم الذى أعجب به الرافعى قوله مخاطبا المصريين مدافعا عن الثورة العرابية :

اليكم يرد الأمر وهو عظيم
فانى بكم طول الزمان رحيم

اذا لم تكونوا للخطوب وللردى
فمن أين يأتى الديار نعيم

وقوله فى قصيدة أخرى :

اتحسبنا اذا قلنا بلينا
بلينا أو يروم القلب لينا

نعم للمجد نقتحم الدواهى
فيحسب خامل أنا دهينا

تناوشنا فيقهرنا خطوب
ترى ليث العرين لها قرينا

سواء حربها والسلم أنا
أناس قبل هدنتها هدينا

وشاعرنا الثالث من شعراء الوطنية هو « محمود سامى البارودى » (١٨٤٠ — ١٩٠٤) الذى يعتبره الرافعى « امام الشعراء المحدثين قاطبة ، وباكورة الاعلام فى دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، فبعث النهضة الشعرية من مرقدها بعد طول الخمود » . وقد تخير له أبيات من قصائد « الحنين الى

الوطن ــ الصبر على الشدائد ــ الحنين الى الأهل والولد ــ عظمة الأهرام ــ الفساد فى عهد اسماعيل ــ عبرة الحوادث » والقصيدة الأخيرة أنشدها بعد عودته لمصر من منفاه يقول فيها :

يا أيها السادر المزور من صلف
مهلا فانك بالأيام منخدع

دع ما يريب وخذ فيما خلقت له
لعل قلبك بالايمان ينتفع

ان الحياة لثوب سوف تخلعه
وكل ثوب اذا مارث ينخلع

لقد شارك البارودى مع استقراطيته فى الثورة العرابية تحت تأثير بما ينفث التدخل الأجنبى من ذل ، وما يجتاح مصر من مظالم . يقول الدكتور على محمد الحديدى « وثورة البارودى على الأوضاع الفاسدة عام ١٧٦٨ ودعوته قومه إلى الثورة واستعمال القوة حدث وطنى يستحق الدراسة والاهتمام. فالبارودى لم يكن من الطبقات المظلومة التى تعانى ارهاق الضرائب أو محنة السخرة ، ولم يمس عرضه بأذى من فجور الخديو وبطانته ، ولم يهضم حق من حقوقه فى الرتب العسكرية أو المراكز المدنية ، بل كان على النقيض من ذلك ، يرفل فى الثراء والنعيم ، ويعمل حارسا للخديو ثم ياورا ، ويصاهر الأسرة الخديوية بزواجه من بنت أحمد يكن ابن أخت محمد على ، ولو اننا تعمقنا دراسة « القصيدة العينية » التى

خرجت منها صيحته الأولى للثورة ، وما أحاط بها من ظروف نفسية للشاعر لوجدناها صرخة صادرة عن وطنية صادقة ، أطلقها البارودى الشاعر ذو الاحساس المرهف ، والنفس الحرة الكبيرة انبعثت من شعور الفنان المتألم للحرية المذبوحة فى وطنه ، وللظلم الذى يجثم على صــدر مواطنيه ، وللارهاب الذى يفرى كرامة المصريين وقلوبهم ، فيهب بهم اذ يهبوا للثورة » (٨) .

ورابــع المــؤرخ لهم هــو « اســـماعيل صــبرى » (١٨٥٤ ١٨٢٣) الذى أشــاد به المؤلف لوطنيتــه .. فهــو الموظف المصرى الوحيد من كبار الموظفين المصريين الذى لم يزر انجليزيا ولم يسع لزيارة كرومر المندوب السامى البريطــانى الذى يعد الحاكم الفعلى لمصر ابان الاحتلال بالرغم من محاولات الأخير استمالته . وكان هــذا استثناء نادرا . وكان الشاعر من أصدق أصدقاء مصطفى كامل ومن مناصريه . أما موهبته فيقول عنها الرافعى : « انه شاعر موهوب من صغره ، صافى الذهن والوجدان وأشعاره وطنية تنم على مدى حب الوطن وكرامته وآمال الشــعب وحزنه على مآسيه كما أنه من اعلام الطبقــة الأولى من الشعراء ، ويعد ثانيهم فى الترتيب بعد البارودى » .

ومن القصائد التى أشار اليها المؤلف « الدعوة الدستور ــ حادثة دنشواى ــ رثاء مصطفى كامل ــ التنديد بالمستعمرين لاعتداء ايطاليا على ليبيا سنة ١٩١١ ــ الامتيازات الأجنبية ــ

التوحيد والحريــة ـ التغنى بعظمة مصر ـ الى شــوقى فى منفاه » ويختار له الرافعى قوله المشهور :

لا تقربوا النيل ان لم تعملوا عملا
فماؤه العذب لم يخلق لكســلان
ردوا المجـرة كدا دون مـوردة
أو فاطلبوا غـيره ريـا لظمـآن

ويقول الدكتور طه حسين عن شعر اسماعيل صبرى فى مقدمته لديوان صبرى « وفى الشعر السياسى لصبرى هــذا الروح المصرى الذى نعرفه فى شعر حافظ وشوقى ، ونعرفه فى حياة الجيل كله هــذه الوطنية الحارة الحادة الطامحة الى مثل أعلى غير محدود ولا واضح الاعلام ، والتى لا تخلو من الفكاهة المرة أحيانا ومن الدعابة الحلوة أحيانا أخرى » (٩) .

أما الدكتور محمد حسين هيكل ، فقد اختار شاعرنا ضمن الشخصيات المصريــة التى درسها فى كتابه « تراجم مصريــة وغربية » ويقول عنه « كان شاعرا مصريا حقا ، ومن ان النزعة البدوية كانت لا تعرف سبيلا الى نفسه ، وان الرقة التى تسيل بها جوانب وادى النيل والصفو الذى يظل ســماءه والخضرة النضرة التى تزين جنباته وأغاريد الطير فى هوائه الرقيق ، كل ذلك كان ينعكس فى نفس اســماعيل صبرى بقوة لا تراها فى كثيرين غيره من الشعراء . ولعلك لذلك تقر له باللقب الذى لقبه به معاصروه : لقب شيخ الشعراء » (١٠) .

وخامس الشعراء هو « أحمد شوقى » (١٨٧٠ — ١٩٣٢) الذى يعتبره الرافعى « شاعر الوطنية الأكبر وليس أمير الشعراء فلقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية ، ولم تعد الامارة تضفى على صاحبها منزلة محترمة ، هـذا الى أن شوقى أكبر من أن يمجد بهذا اللقب ، وقد جارى فحول الشعراء المتقدمين ، وبذهم فى كثير من قصـائده ، وجدد بعض التجديد فى الشعر العربى بما اقتبسه عن شعراء العرب ، ومن الثقافة الأوربية ،وفى قصـائده يسطع نور الوطنيـة ، ويتأرجح لهيبها ، وهو أغزر الشعراء مادة وأوسعهم انتاجا فى هذه الناحية ، الوطنية فى شعره هى فيض الفطـرة والالهـام ، وليست من صـنع الظـروف أو التكلف ، ولذلك جاءت قوية جارفة ، عميقة رائعة » .

ويعرض الكتـاب لمختـارات من قصائد المترجم له مثل « كبار الحوادث فى وادى النيل — ذكرى دنشواى — رثـاء مصطفى كامل — رثاء محمد فريد — ثورة ١٩١٩ — وحـدة وادى النيل — مشروع ملنر — الدعوة للتضحيـة ومهاجمـة الاستعمار — الدستور — الدعوة للنهضة الاقتصادية » .

ومن أبيات قصيدته فى أبى الهول :

أبـا الهول طـال عليـك العصر
وبلغت فى الأرض أقصى العمـر
فيا لدة الدهـر لا الدهـر شـب
ب ولا أنت جاوزت حـد الصغر

الآم ركوبك متن الرمـا
ل لطى الأصيل وجوب السحر

تسافر متنقلا فى القرو
ن فأبان تلقى غبار السفر ؟

ان الدكتور شوقى ضيف يكتب عن شوقى قائلا « وعاد شوقى الى وطنه فوجد أرضه مخضبة بدماء الحركة الوطنية الذكية ، ووجد كل شيء فيه يتحول ويتغير ، ولا ندرى هل فكر فى العودة الى القصر ؟ ولكن المؤكد أن أبواب القصر لم تفتح له ، فظل بعيدا مع الشعب ، يعيش فى حياته الجديدة . فلتفرحى ربة الشعر ، ولتدقى البشائر ، فان طائرك لن يعود رهين محبسه القديم ، ولا رهين ذهب اسماعيل وأبنائه ، فقد أخذ يرفرف حرا طليقا فى الفضاء ، وأخذت أجنحته تلمع فيها ألوان الطيف ، وهى ألوان لم تكن تستمد من القصر وأميره ولا من حياته الارستقراطية القديمة ، وانما كانت تستمد من دماء الشعب التى سفحها راضيا فى الحركة الوطنية المباركة سنة ١٩١٩ ومن آماله وآلامه ، وأيضا من آمال الشعوب العربية جميعها وآلامها وأصبح شوقى الى حد ما ديمقراطيا يعيش مع شعبه والشعوب العربية » (١١) .

والشخصية السادسة المترجم لها هى « حافظ ابراهيم » (١٨٧٢ ــ ١٩٣٢) ويقدمه عبد الرحمن الرافعى بقوله : « هو صنو شوقى فى احياء دولة الشعر ، ولئن تميز عنه شوقى

بالزعامة ، فان حافظ يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية ، فكان أقرب الى روح الشعب ومشاعره ، وأقدر على تصوير آلامه التى شاركه فيها ، وتغنى بمصر والنيل فى قصائده الغر ، ولعل بقاءه فى السودان عدة سنين ، ومشاهدته غدر الانجليز هناك ، وتدابيرهم فى تحقيق أغراضهم الاستعمارية ، قد زاده سخطا على الاستعمار واستمساكا بوحدة وادى النيل ، وتجلت هذه المواهب فى شعره فى شتى المناسبات حتى سمى بحق « شاعر النيل » ، وهو الى جانب ذلك شاعر الوطنية والاجتماع والاخلاق . وعاصر حافظ مصطفى كامل ، وكان صديقا له معجبا بجهاده ، رغم صداقته وصلته بخصومه السياسيين . وكان مصطفى كامل شديد الاعجاب بشعره وأدبه » .

وقد استعرض الرافعى مجموعة من قصائد حافظ فى مختلف المجالات الوطنية والاجتماعية وهى « ملجأ الحرية ـ حادثة دنشواى ـ شكوى مصر من الاحتلال ـ استقالة اللورد كرومر ـ استقبال السير جورست ـ رثاء مصطفى كامل ـ تحية العام الهجرى ـ مسألة قناة السويس ـ رثاء محمد فريد ـ مصر تتحدث عن نفسها » .

ومن قوله عن مظاهرة السيدات الأولى فى ١٦ مارس سنة ١٩١٩ احتجاجا على فظائع الانجليز فى قمع الثورة الشعبية :

خرج الغوانى يحتججن
ورحت ارقب جمعهنه

فـــاذا بهــن تخــذن مــن
ســـود الثيــاب شعارهنـــــه

فطلعـــــن مثـــل كـــواكب
يسطعن فى وســط الدجنـة

وقد أشاد الكثيرون بحــافظ ، ومن هؤلاء طه حســين وأحمد أمين وروفائيل مسيحة . يقول الأول عنه : « ولمــا كانت نفس حافظ فى جوهرها نفسا مصريــة كانت قطعة من هــذه النفس المصرية الاسلامية ، التى تجد بساطتها وسذاجتها فى كل أثر من آثار المصريين المسلمين ، فلم لا يحبها الناس وانما يرون فيها أنفسهم ؟ ولم لا يعجب بها الناس وانما ينظرون فيها الى صورهم ، تعكسها مرآة صافية وضيئة نقية لا يشوبها صــدأ ولا يغشاها غبار ؟ » (١٣) .

أما أحمد أمين ، فيكتب عن حافظ : « وكان فى شعره يقف موقف الصحافة الوطنيــة والخطبــاء الوطنيين ، وقــادة الرأى الاجتماعيين ، يغشى مجالس كل هؤلاء ، ويتشرب من أرواحهم ، ويستمد من وحيهم ويغذى عواطفه من عواطفهم ، ثم يخرج ذلك كل شــعر قوى ملتهب ، يفعل فى النفوس ـ وذلك شأن الشعر الحى ـ ما لا تفعله الخطب والمقالات ، فكان حافظ ـ حقا ـ شاعر الوطنية ، وشاعر الشعب ، وشاعر السياسة والاجتمــاع ، ولم يجاره أحد فى ذلك من شعراء عمره .. كان فى شعره سجل

الأحداث ، انما يسجلها بدماء قلبه ، وأجزاء روحه ويصوغ منها أدبا قيما يستحث النفوس ، ويدفع الى النهضة ، سواء أضحك فى شعره أم بكى ، وأمل أم يئس . ويتسع أفقه فى كثير من الأحيان ، فينظر الى الوحدة العربية ، الوحدة الاسلامية » (١٣) .

ويكتب صاحب كتاب « حافظ ابراهيم الشاعر السياسى » ، « من الجلى أن مصر كانت تحتل من نفسية حافظ مكانا محمودا، وحسبنا أن نسوق الى القارىء هذه الأبيات ليلمس من ثناياها تلك العاطفة الوطنية الملتهبة التى كانت تفخر بها روحه :

كم ذا يكابد عاشق ويلاقى
من حب مصر كثيرة العشاق

انى لأحمل فى هواك صبابة
يا مصر قد خرجت على الأطواق

لهفى عليك متى اراك طليقة
يحمى كريم حماك شعب راق(١٤)

وكان عبد الرحمن الرافعى من المعجبين بشاعر القطرين « خليل مطران » (١٨٧٢ — ١٩٤٩) فهو « شاعر الحرية والعروبة ، حمل لواء التجديد فى الشعر ، نيفا ونصف قرن من الزمان ، وبلغ الذروة فى عالم الشعر والفن والبلاغة والخيال . كان انسانا فى شخصه وفى أخلاقه وفى شعره وأدبه . كان فى

شعره ينشد الكمال ، ويحلق فى أجواء الحرية والوطنية . وقد أرخ فى شعره الوطنى العذب مراحل النهضة المصرية والشرقية ، وسجل حوادثها ووقائعها ، وترجم لرجالها وأشخاصها ، وغذى بقصائده الروح الوطنية جيلا بعد جيل . كان بينه وبين الزعيم مصطفى كامل صداقة وود داما طول العمر ، كان مؤيدا لدعوته نصيرا لرسالته ، دافع عنها فى حياة مصطفى ، وظل وفيا بعد وفاته » .

ومن القصائد التى اختار منها بعض أبياتها ، النهضة العربية ــ حق الوطن وحق الاخاء ــ الثبات فى الكفاح ــ تحية بعثة الأطباء المصريين الى حرب طرابلس سنة ١٩١١ ــ رثاء محمد فريد ــ رثاء أمين الرافعى .

وقد صاغ مطران قصيدة وطنية سنة ١٩٢٠ عاتب فيها شباب مصر لترددهم فى العمل الوطنى ومناهضا الاحتلال .. بقوله :

ان تكونوا حماتها وبنيها
ما لتلك الذئاب تعتس فيها ؟

افترضون أن تهون عتيدا
بعد ذاك الأباء فى ماضيها ؟

تلك اوطانكم تباع عليكم
صفقة بخسة فمن مشتريها ؟

ومن الدارسين الذين كتبوا عن شاعر القطرين خليل مطران، طاهر الطناحي الذي يقول عنه : « وقد نشأ خليل مطران عربيا حرا ، رضع لبان الحرية من المهد ، يعيش فى بلاده التى ساد فيها الفساد ، واستحر فيها الظلم والاستبداد ، وخرج من بيروت فى ظلام الليل ، يحدوه الولاء لقومه وتحرير وطنه من فوضى الحكم التركى واستبعاده ، وهو يتغنى بقوله :

داعى الولاء اذا دعانى
سمعا له فى كل آن

ومسرة باشق ما
يرضى البلاد وان شجانى

يابى الهوان دمى ، وفى
عز الحمى اهوى هوانى (١٥)

أما الشاعر « أحمد محرم » (١٨٧١ — ١٩٤٥) فهو الشخصية الثامنة فى « شعراء الوطنية » الذى يقول عنه عبد الرحمن الرافعى : « شاعر ملهم من شعراء الوطنية والاخلاق، كان أدباء الجيل يضعونه فى صف شوقى وحافظ ومطران ، وكان شيخ الشعراء اسماعيل صبرى يتغنى بشعر هؤلاء الأربعة ويطيب له التحدث عنهم ، وأمتاز محرم الى جانب مكانته الشعرية بحرارة العاطفة ، وتذوقه للفن والجمال ، وقوة ايمانه ، وتأملاته العميقة الفلسفية ، واستمساكه طوال حياته بمبادئه الوطنية ، فكان شعره كله وفقا على هذه المبادىء ، لم ينحرف عنها يوما

فى قصيدة أو فى أى بيت من الشعر ، ظل مقيما عليها وفيا لها فى السراء والضراء ، فكان حقا مثلا أعلى فى الشعر والوطنيـة ، وكان مصطفى كامل يعجب به وبشعره ، ويشيد به على صفحات (اللواء) ويسميه (نابغة البحيرة) ، وبقى أحمد محرم على صلته به ووفائه له ولذكراه ، كما ظل وفيا لمبادىء الوطنيـة الى أن توفاه الله • كان شاعرا بفطرته وسليقته ، قال الشـعر وهو فى سن مبكرة » •

واستعرض الرافعى قصائده : النيل ـ الدعوة الى بعث مصر ـ رثاء مصطفى كامل ـ رثاء فريد ـ فلسطين الشـهيدة سنة ١٩٣٨ •

وهذه أبيات من قصيدته « رحلة عابسة » التى تناول فيها حال الفلاح المصرى البائسة :

ويـلى على فـلاح مصر اما كفى
ما ذاق من عنت ومن ارهـاق

يغنى الوف المترفـين بمالـه
ويعيش فى فقـر وفـى املاق

سبحان من شرع السبيل لخلقه
أكـذا يكون تفاوت الأرزاق ؟

وقد عاش محرم مظلوما ، ولا يكاد يقدره أحد التقدير الواجب •• يقول عنه عمر الدسوقى « بقى حتى اليوم محروما

القلم القوى الذى يعرض درره بين الناس ، ويعرف بين قومه ، وهو الذى آثر الفقر ، والوحدة ، والحرمان فى سبيل مبدئه ، وكان شاعرا صاحب رسالة ، وكان من أقوى الشعراء ديباجة وأنصعهم بيانا . كان عيب أحمد محرم أنه يمثل الفريق الجاد من الأمة الذى يشعر بآلامها المبرحة وأدوائها المستعصية ، وكان صاحب مثل أعلى فى أمة هازلة تطرب للعبث ، ويفتنها زبرج الحضارة الغربية ليفتننا عن أهدافنا القومية . كان شاعر مصر سياسيا واجتماعيا ، وكان شاعر العروبة والاسلام ، متعدد النواحى الأدبية ، ومع ذلك كان عاثر الجد فى حياته » [١٦] .

ومن شعراء الحزب الوطنى أيضا « أحمد نسيم » (١٨٨٠ ـ ١٩٣٨) الذى يقدمه الرافعى بقوله : « شاعر مبدع ، من أعلام الشعر الوطنى ، يمتاز بجذالة الأسلوب ، وتدفق المعانى والأحاسيس الوطنية فى قصائده ، لا يقل شعره رواة وحسن ديباجة عن شعر شوقى وحافظ وأحمد محرم ، سمى « شاعر الحزب الوطنى » ، ويعد نسيم ثانى الطبقة الأولى من شعراء الحزب الوطنى ، وأولهم أحمد محرم ، وثالث الثلاثة المعاصرين أحمد الكاشف .

ويستعرض المؤلف عددا من قصائد نسيم والتى ألقاها فى مناسبات ، تأييد مصطفى كامل فى قطع علاقته بالخديو عباس حلمى ـ مهاجمة اللورد كرومر قبل رحيله سنة ١٩٠٧ ـ تمجيد الشرق والحزن لحاله .

ومن المعروف ان نسيم أصدر الجزء الثاني من ديوانه سنة ١٩١٠ بعنوان « وطنيات أحمد نسيم » مهديا أياه الى « سعادة محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني لاحتوائه القصائد الوطنية التي نظمها ما بين سنتي ١٩٠٩ ، ١٩١٠ » وقدم كل قصيدة بما قدمته به الصحف التي نشرتها ومن ذلك قصيدته في توديع « وفد الحزب الوطني الى عاصمة الاسلام ، التي نشرت بجريدة « اللواء » بتاريخ ١٨ يوليو سنة ١٩٠٩ لمشاركة الأمة العثمانية النجيبة في حفاوتها بعيد الحرية الأسنى ، وقد وقف حضرة رئيس الحزب الوطني الذي رأس هذا الوفد يتلقى من جماهير المودعين تحيتهم الى أحرار العثمانيين وأدلة اشتراكهم معهم بقلوبهم في اكبار عيد الحرية العثمانية العظيم » وأنشد نسيم :

قطار النوى هل وقفة قبلما تعدو
تودع وفدا ما لنا غيره وفد

ايا وفد (مصر) انت عنوان امة
به يعرف الاقدام والداب والجد

اذا جئت ارض الفاتحين فحيها
تحية مشتاق أضر به البعد

وزوروا امير المؤمنين وقبلوا
يدا فاض من هتان انملها السعد

وقولوا له ان وفود معاشر
اذا احتدمت نار الوغى كلهم جند(١٧)

ويكتب محمد عبد الغنى حسن عن الشاعر : « على الرغم من الأصول التركية لأحمد نسيم ، نرى أن مصر قد صهرته كما صهرت كثيرين غيره من الشعراء والأدباء الذين ولدوا فيها من أصول غير عربيـة . وقد جمع شاعرنا بين حبه لمصر وطنـه الصغير ، وحبه للشرق ذلك الوطن الكبير ، فلم يدع مناسـبة تمر الا أشاد بأمجـاد مصر والشرق ، ولم يقس فى عتابه على أهل مصر والشرق الا ليوقظهم من سباتهم ، ويحرك من هممهم حتى يستعيدوا تلك الأمجاد الضائعة » (١٨) .

ويقـدم عبد الرحمن الرافعى الشـاعر العـاشر ، وهو « أحمد الكاشف » (١٨٧٨ ــ ١٩٤٨) بقوله : « من الرعيل الأول من شعراء الوطنية ، مالت نفسه منذ صباه الى الشـعر والأدب ، وكان الشعر طبيعة له وسليقة ، فعكف على المطالعة واكب على كتب الأدب ودواوين الشـعراء المتقدمين يدرسـها ويستوعبها فحاكاهم فى الأسلوب والبلاغة ، واتجهت نفسـه الى نظم الشعر فى المعالى الوطنية ، فجادت قريحته بشعر وطنى من الطراز الرفيع ، ووقف حياته على هذا اللون من الشعر » .

ويتفق عمر الدسـوقى مع هـذا القول فيما كتبـه عن الكاشف وهو يقول : « وقف نفسه على الشعر السـياسى ، وكان دون محرم فى اتساع أغراضه . اذ وقف نفسه على لون واحد من الشـعر .. يمدح الترك حين كان مدحهم دينـا ،

أو سياسة ، ويشن الغارة الشعواء على الانجليز فى عهد كرومر ، وغورست ، وكتشنر ، ويمدح عباسا ، وحسينا ، ويؤيد الثورة بكل قوة حيث اضطرمت فى أرجاء البلاد » (١٩) .

ومن قصائد الكاشف التى اختار له الرافعى بعض أبياتها : الجندى فى المعركة ــ اتفاقية السودان ــ الفلاح المصرى ــ الحق للقوة ــ قريتى .. ومن قصيدة نظمها سنة ١٩٢٥ يدعو فيها الأحزاب لنبذ الخصام والوحدة من أجل مصر قوله :

تنازع قومى اليوم جندا وقادة
فلم ار الأسالب وسليبا

مبادىء أحزاب ارى أم منافعا
توالت صنوفا بينهم وضروبا ؟

تقضت حروب العالمين ولم أزل
أرى بين أبناء البلاد حروبا

بقومى على قومى استعان غريبهم
فصال شمالا واستطال جنوبا

ويعرض الرافعى للشاعر « محمد عبد المطلب » (١٨٧٠ ــ ١٩٣١) قائلا : « هو الشاعر البدوى البليغ ، والمجاهد الوطنى الصميم ، تخرج من دار العلوم ، وتولى التدريس فى مدارس الحكومة ، ونضج علمه ، واكتمل شعره وأدبه ، فصار من فطاحل الشعراء الذين يشار اليهم بالبنان ، ولما شبت ثورة

سنة ١٩١٩ ساهم فيها بشعره وأدبه وجهاده ، وخلد حوادثهـــا بقصائده الغر » •

ومن أشهر قصائده ، مصر أثناء الحرب الأولى ــ اعلان الحماية ــ حضـــارة مصر ــ الوحدة بين عنصرى الأمة ــ وثبة مصر •

ومن قصيدته التى وجهها الى المرشال اللنبى الذى أوفدته انجلترا لقمع الثورة سنة ١٩١٩ منددا بالفظائع الانجليزية فى اخمادها •• قوله :

أيهـــا القائــد المــدل علينـــا
قـــاتل اللـــه من علينـــا ادلا

صلف بين اهل مصر وعجب
كان هذا بأرض (بلجيك) أولى

صلف جد فى مواطن هــزل
فـــاذا جدجــدها عـــاد هــزلا

علم النـــاس ان مصر بـــلاد
لم تكن للحروب والسيف قبـــلا

منعتها الأيـــام حمــل المواضى
وهى رين السيوف هزا وحمـــلا

ويقول عبـــاس محمود العقـــاد عن الشيخ عبد المطلب :
« •• لمـــا شاعت النهضة فى الشرق كله شاع معها الأسف بين

المسلمين على ما أصابهم من الضعف والهزيمة بعد القوة والسيادة، ثم شاع بينهم اليقين بأن لا موئل ، ولا أمل فى تجديد سلطانهم ومنعهم الا بالرجوع الى الاسـلام فى أيامه الأولى : أيام الجد والغلبة والفطرة السليمة من البدع والمحدثات وعوارض العصور الأخيرة وفضول الأعاجم والمتقدمين بهم من المستعمرين والعرب المستعجمين ، فأصبح كل حديث متخلف عنوانا للترف الزائف والعقيدة المدخولة والعربية المشوبة ، وأصبح كل قديم قريبا من الاسلام فى صـدره الأول عنوانا للصحة والمتانة وعصمة من الضعف والركاكة ، وعاد طلاب المعارف الدينية واللغة القومية الى ما كان عليه خلفاء الدولة الأموية والعباسـية حيث كانوا يطلبون لأبنائهم الفصاحة فى البادية ويقرنون بين سلامة لغـة القرآن وسلامة العربية على حال البداوة ، حتى رأينا من غلاة هذا المذهب فى الجيل المـاضى من كان يسخر بالمعرى وأبناء عصره ويرجع باللغة النقية والفصاحة الشعرية ، الى ما قبل ذلك بعصور ، ومن هـذه الوجهة سقطت المحسنات اللفظية والبدع المتأخرة عند أناس لم يسقطوها من وجهة الذوق الأدبى والملكة الفنية ، ولا كان ميسرا لهم أن يسقطوها من وجهة الذوق والفن لو اعتمدوا عليهما دون الاعتمـاد على الغير الدينيـة والنعرة البدوية وليس بين شعراء هذه الفئة من يمثلها ويستغرق فيهـا كما مثلها واستغرق فيها الشيخ محمد عبد المطلب الشاعر المتبدى فى لفظـه وأعراض كلامه ، لأنه سلك الى هـذا المذهب من

طريقين : طريق الأصل العربي وطريق النشأة الدينية ، فلم يكن له متصرف عن مذهب البداوة الى مذهب غيره » (٢٠) .

أما المترجم له الثاني عشر .. فهو الطبيب « أحمد زكى أبو شادى » (١٨٩٢ ـ ١٩٥٥) حيث يعتبره الرافعي « الشاعر المجدد ، والأديب الحر الفكر ، شعره رقيق ممتع ، يمجد الوطنية، وينزع الى الحرية والتجديد والخروج على الأساليب القديمة » .

ويقول الشاعر أحمد محرم عن أحمد زكى أبو شادى : « الدكتور زكى أبو شادى من أكبر أعلام هذه النهضة الأدبية الجديد ، فهو يغذيها بنشاط عجيب ، ويسير فى طليعتها بأقدام نادر ، وشجاعة لا مثيل لها ، وهى تستأثر بقسم كبير من حياته الموزعة على مجموعة غير قليلة من الأعمال والشئون ، وتتحكم فى جانب عظيم من قوته التى تتناهبها عوامل شتى وشواغل كثيرة ، وهذه مؤلفاته الكثيرة العدد المختلفة المواضيع تحدثنا بأفصح لغة وأوضح بيان عن تلك القريحة الخصبة وذلك الشعور الأدبى الفياض اللذين يلتقيان فى نفسه الدائمة الهبوب والاشتعال ، ويتعاونان على تأدية أغراضه وبث أفكاره (٢١) .

ومن ضمن دواوينه العديدة اختار الرافعي بضع قصائد هى : مفخرة رشيد ـ المجاهد الجريح ـ القلب الباكى ـ نداء الحرية ـ أقصى الظنون ـ لماذا ارتحلت ؟

ويقول أبو شادى فى قصـيدته التى أنشـدها فى المهجر بنيويورك عن حنينه الى مصر :

لا تنهروا روحى لفرط ولوعهـا
دمعى الذى تأبون بعض مودعها

ألفت بى الأحـداث دون ربوعها
وأظل أحيـا فى صميم ربوعهـا

تثب الرؤى حولى بأنفاس الروبى
ونوافح الغدران حول ربيعهـا

وتهزنى الذكـرى فأشرق بالأسى
والذكريات وهوبهـا كمنوعهـا

وفى دراسة الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى بوطنية شاعرنا الكبير يقول عنه : « أما وطنية أبى شادى وحبه للبلاد ، فتتجلى فى أروع الصـور فى شـعره وكتاباته وأحاديثه ومحـاضراته ومؤلفاتـه من بدء شـبابه حتى اليوم • ولقـد نوه الأسـتاذ محمد رضـوان أحمد فى كتابه « فى جنة الفردوس » بوطنيـة أبى شادى وبشعره فيها وفى الأخلاق والاصلاح والنقد الاجتماعى تنويها محمودا •• وأذكر دليلا واضحا على وطنية أبى شادى ، هو أنه لمـا قامت الحرب العالمية الأولى ، وكان الشاعر آنذاك يدرس فى انجلترا ، أخذ يدعو لحريـة مصر ، ويؤيد القضـية المصرية ، فراقبته الشرطة هناك ، وانتهى الأمر بتقييد اسـمه فى سجل المذنبين السياسـيين فى اسكوتلنديارد بعد تحقيق طويل

معه ، وأنذر بالطرد فى انجلترا ، لولا تدخل أصدقائه وعارفيه » (٢٢) .

وفى كتاب آخر عن نفس الشاعر يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي فى المقدمة « ويتنوع شعر أبى شادى الى ألوان عديدة ، من الغزلى والوجدانى ووصف الطبيعة والشعر الصوفى أو الفلسفى ، والشعر الوطنى التقدمى ، وكل هذه الألوان طاقة شعرية خصبة ، واستجابة ذاتية للنزعة الحديثة فى التفكير . وهو أول من نظم الشعر التمثيلى فى اللغة العربية ، وكان يحبذ الشعر الحر والمرسل ، وينظم منهما بعض قصائده » (٢٣) .

ومن الشعراء المشهورين حتى الثلاثينات ولا يكاد اسمهم اليوم يطرق الاسماع : الشاعر « عبد الحليم المصرى » (١٨٨٧ ــ ١٩٢٢) الذى يكتب عنه الرافعى : « تعشق الشعر والحرية منذ صباه ، فجاء بقصائد رقيقة فى التغنى بالوطنية والحرية ، وظل يغرد بالشعر ويتغنى به الى أن توفى فى يوليو سنة ١٩٢٢ ، وكان حين وفاته فى ريعان الشباب ، فكان لوفاته وقع أليم فى النفوس . وكانت له فى الشعر مكانة ممتازة » .

ومن قصائده التى أشار اليها الرافعى « فجر الأمل ــ تكريم الشيخ عبد العزيز جاويش ــ اسود النيل » .

ويقول فى احداها مطالبا الخديو عباس حلمى الثانى بمنح مصر الدستور :

رد الوديعه لا مـالا ولا شانـا
لم نرج فى جانب الدستور احسانا

لولا ولاؤك لم نبسط اليك يـدا
من الرجـاء ولم نسألك غفرانـا

ويتابع عبد الرحمن الرافعى شريط الشـعراء الوطنيين ، فيقدم الدكتور « عزيز عبد السلام فهمى » المحـامى الوفدى (١٩٠٩ ـــ ١٩٥٢) قائلا : « من أعلام الحرية والأدب ، وأبطال الوطنية والجهـاد ، كان أديبا وشاعرا ، وخطيبا مفوها ، يجمع بين بلاغة العبارة وسلاسـة الأسلوب ، وقوة التفكير ، وغزارة المـادة ، والشجاعة الأدبيـة ، كان يدافع عن الحرية بقلمـه ولسانه على صفحات الجرائد ، وبلسانه فوق المنابر ، وساحات القضـاء ، وتحت قبة البرلمـان ، كانت وطنيته فوق حزبيتـه وعقيدته أساس شخصيته ، كان يرى فى الحياة السياسية رسالة يؤديها ، لا يبتغى منها لنفسـه مغنما ولا نفعا ، ولا يقصـد الا وجه الله والوطن » .

ومن قصـائده التى اختارها : اسـلمى يا مصر ـــ لحن الموت ـــ يا قارىء الكف ـــ الضمير » .

وكان عزيز شابا يفيض حيوية وثورية دائما ، يشارك دائما

فى الأحداث التى تلم بوطنه ويتعرض بسببها للسجن يشير الدكتور طه حسين الذى كتب مقدمة « ديوان عزيز » ، عن تلميذه القريب اليه عزيز فهمي قائلا : « وكنت لا تسمعنى أقول لك ايه يا عزيز حتى ينطلق لسانك بالحديث عذبا كأنه العين الصافية ينساب منها الماء بين الخمائل والرياض ، أو ينطلق لسانك بالحديث كأنه البركان يقذف الحمم ويشك أن يحرق من حوله كل شيء . وما أكثر ما كنت أقول لك حينئذ : على رسلك يابنى فانك انما تتحدث الى الأستاذ الصديق لا الى المستعمرين ولا الى الظالمين » (٢٤) .

يقول شاعرنا فى يونية سنة ١٩٤٦ ابان اعتقاله بسجن الأجانب :

كفاك عزاء انك اليوم أوحد
وقد يسكن الغمد الجسام المجرد

يهون عذاب السجن والليل موحش
ويذهب عنك الحزن فيه تجلد

وقد يؤسر الليث المنيع عرينه
ويرهب منه الصوت وهو مصفد

اهبت بقومى أن يذودوا عن الحمى
ومازلت أدعوهم ومازلت أشهد

اهبت بقومى والخطوب زواحف
تلم بهم طورا وطورا تهدد

وانذرت حتى بح صوتى ولم أزل
ومصر تناديهم وصوتى يردد

ويختتم عبد الرحمن الرافعى كتابه بشاعر وطنى اتخذت السلطات المصرية فى ظل الاحتلال البريطانى من كتاباته سنة ١٩١٠ سبيلا الى ضرب الحركة الوطنية فى البلاد ، وأثارت قلق الرأى العام المصرى . فعندما أصدر الشاعر على الغاياتى ديوانه « وطنيتى » متضمنا مقدمتين الأولى لمحمد فريد رئيس الحزب الوطنى والثانية بقلم عبد العزيز جاويش الكاتب السياسى الذائع الصيت ، قدم الثلاثة للمحاكمة بتهمة التحريض والعيب فى الذات الملكية ! فحكم على الأول بعام واستطاع الهرب قبل صدوره ، وحكم على الآخرين بستة شهور قاما بتنفيذهما .

ومن القصائد التى حوكم عليها الغاياتى .. طيف الوطنية ، والتى اختارها الرافعى .. قول الأول :

وعداة ملكوا الأمر ولم
يحفظوا للشعب فى حق ذماما

وولاة اقسموا أن يسجدوا
كلما رام العدا منهم مراما

رب ماذا يصنع المصرى أن
جاوز الصبر مدى الصدر فقاما

طال يوم الظلم فى مصر ولم
ندر بعد اليوم للعدل مقاما

هل يرى المحتل انا امة
مذ عرفنا السلم لا ندرى الخصاما

وقال منددا بحكم الخديو عباس الثانى عقب خلافه مع الحزب الوطنى :

اعباس هذا آخر العهد بيننا
فلا تخش منـا بعـد ذلك عتـابا
أيرضـيك فينا أن نكون اذلة
ننـال اذا رمنا الحيـاة عقـابا
ونيـأس من آمالنـا فيك كلمـا
قضيت علينـا أن نكون غضـابا

يقول الشيخ عبد العزيز جـاويش فى مقدمتـه لديوان « وطنيتى » للشاعر ، والتى من أجلها حوكم الشيخ كما أشرنا « وماذا على الشاعر بعد أن يوفى شعره قسطه من الصـدق وثاقب الرأى سوى أن يجيد تأليف العبارات ويحكم مطابقـة المعانى بعضها ببعض فانما الشـعر كالتوقيع واللحن فكما ان اللحن لا يخف على السمع الا اذا تناسبت الأجزاء التى يتألف منها كذلك الشعر اذا لم تأتلف عباراته ولم تتناسب معانيه كان صممها للآذان . وغمة لنفس الانسان . ومن شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعانى وألف بين أحكام التأليف وصـدق العبارة فليقرأ شيئا من (وطنيتى) ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة . والنفوس المتوقدة . والعزائم الصادقة فانها من غراسها وجميل ثمارها » (٣٥) .

ويكتب كامل الشناوى عن « شعراء الوطنية » : قرأت اليوم آخر كتـــاب للأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعى وهو كتاب شعراء الوطنية . وقد استرعى انتباهى أن يخلو الكتاب من اسم شاعر حر هو ولى الدين يكن الذى قضى حياته منفيا مشردا ، مكافحا ضد طغيان السلطان عبد الحميد . ولمـــا استقربه المقام فى مصر ، أمضى البقية الباقية من حياته مريضا ، ثم مات ضحية الامراض التى عاناها فى النفى والسجن وكان ولى الدين يكن الى جانب دفاعه عن حريته السياسية ، مناضـــلا فى رفع راية الحرية الفكرية ، وقد كان نزاعا الى التجديد فى الشعر . وكان أسلوبه فى الكتابة أسلوبا قويا يمتاز بالنبض والحرارة والقوة والسهولة . وهو بلاشك يعد فى طليعة المجددين فى الأدب العربى . واسترعى انتباهى أيضا أن يخلو الكتـــاب من اســـم المرحوم مصطفى صادق الرافعى صاحب نشيد « اسلمى يا مصر اننى الفدى » واسم الشاعر الكبير عباس محمود العقاد صاحب النشيد القومى وفيه يقول : « ان رفعنا الرءوس فليكن ما يكون. ولتعيش يا وطن » .

واسترعى انتباهى كذلك الا تجىء اشـــارة الى الشـــاعر مصطفى لطفى المنفلوطى الذى خاطب الخديو عباس عقب عودته من الحج فقال :

قـــدوم ولكن لا أقول ســـعيد
وملك وان طال المدى سيبيد

وقد حــكم على مصطفى لطفى المنفلوطى بالسجن ســتة أشهر . وصحت نبوءة المنفلوطى فباد ملك عباس ، وبادت أسرة محمد على برمتها ! ولم أجد فى الديوان بيتا واحدا من الشعر الوطنى الحديث . ولست أدرى كيف نذكر الشعر الوطنى دون أن نذكر مثل هذه الأبيات التى قيلت فى معركة القتال ...

أنــا ان سقطت فخــذ مكانى . يا رفقى فى الكفــاح
واحمل سلاحى .. لا يرعك دمى يسيل من السلاح
وأنظر الى شــفتى اطبقتــا على هــوج الريــاح .
وأنظــر الى عينى اطبقتــا على نــور الصــباح ..
أنا لم أمت ..   أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح !

ويحضرنى الآن عشرات الأمثلة من الشعر الوطنى الحديث، وهو شعر يعد من الناحية الفنيــة أقوى من شعر كثيرين عنى الأستاذ الرافعى بسرد أشعارهم وتاريخ حياتهم » (٢٦) .

المراجـــع

١ ـ مخطـوط

٢ ـ **محمد صادق عنبر** : ذكرى امين الرافعى ط ١ ص ٣١٦ .

٣ ـ **دكتور أحمد أحمد بدوى** : مهرجان رفاعة رافع الطهطاوى ط ١ ص ١٣٤ .

٤ ـ **دكتور طه وادى** : ديوان رفاعة الطهـاوى ط ١ ص ٦١ .

٥ ـ **عمـر الدسـوقى** : فى الأدب الحديث ط ٢ ص ٢٧٣ .

٦ ـ **دكتور محمد عبد المنعم خفاجى** : قصـة الأدب فى مصر ج ٤ ط ١ ص ١٣٠ .

٧ ـ **جـرجى زيـدان** : بناة النهضة العربية ـ كتاب الهلال مارس ١٩٥٧ ص ١٤٤ .

٨ ـ **دكتور على محمد الحديدى** : محمود سامى البارودى ـ أعلام العرب مايو ١٩٦٧ ص ٧٨ .

٩ ـ **دكتور طـه حسـين** : ديوان اسـماعيل صبرى ط ١ ص ١٣ .

١٠ ـ **دكتور محمد حسين هيكل** : تراجم مصرية وعربية ط ١ ص ١٧٩ .

١١ ـ **دكتور شـوقى ضيف** : شـوقى شاعر العصر الحديث ط ٢ ص ٣٧ .

١٢ ـ **دكتور طـه حسين** : حافظ وشوقى ط ٣ ص ١٩٨ .
١٣ ـ **أحمـد أمـين** : ديوان حافظ ابراهيم ط ١ ص ٢٨ ، ص ٣١ .
١٤ ـ **رفائيـل مسـيحة** : حافظ ابراهيم الشاعر السـياسى ط ١ ص ٨ .
١٥ ـ **طـاهر الطنـاحى** : حيـاة مطران ط ١ ص ٥٦ .
١٦ ـ **عمر الدسـوقى** : فى الأدب الحديث جـ ٢ ط ١ ص ١٥٠ .
١٧ ـ **أحمـد نسيم** : وطنيات أحمد نسيم جـ ٢ ط ١ ص ٢٤ .
١٨ ـ **محمد عبد الغنى حسن** : خمسة من شـعراء الوطنيـة جـ ٣ ط ١ ص ٨٢ .
١٩ ـ **عمر الدسـوقى** : فى الأدب الحديث جـ ٢ ط ١ ص ١٥١ .
٢٠ ـ **عباس محمود العقاد** : شـعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل المـاضى ط ١ ص ٤٣ ، ص ٤٤ .
٢١ ـ **احمـد محـرم** : ديوان الشعلة ط ١ ص ١٤ .
٢٢ ـ **دكتور محمد عبد المنعم خفاجى** : رائـد الشعر الحديث ط ١ ص ٩٠ .
٢٣ ـ **دكتور احمد زكى ابو شـادى** : ابو شـادى فى المهجـر ط ١ ص ٦ .
٢٤ ـ **دكتور عزيز فهمى** : ديوان عزيز ط ١ ص ٦ .
٢٥ ـ **على الغايـاتى** : وطنيتى ط ٢ ص ١٨ .
٢٦ ـ **كامـل الشـناوى** : زعماء وفنانون وادباء ط ١ ص ١٨٤ .

مؤلفـاته

من حسن خط التاريخ المصرى ، ان مؤرخـه الكبـير عبد الرحمن الرافعى ، لم يتمكن من دخول انتخابات سنة ١٩٢٦، وكان الحضـور البرلمـانى يشكل عند الرافعى العمل السياسى الحقيقى ، ولذلك حاول أن يملأ الفراغ بشىء آخر مفيد .. وهو الكتابة التاريخية التى يحبها . وتفصيل ذلك انه بعد استقالة وزارة سعد زغلول الأولى فى نوفمبر سنة ١٩٢٤ ، وقد عطلت الحياة النيابية ـ بعد انتخابات سنة ١٩٢٥ وحل مجلس النواب فى يوم اجتماعه الأول ٢٣ مارس سنة ١٩٢٥ ـ ثمانية أشـهر وتآلفت جمع الأحزاب . وتم توزيع الدوائر على أن تجرى الانتخابات فى مايو سـنة ١٩٢٦ . وكان الرافعى يظن أنـه سيخصص له دائرة مركز المنصورة وتغلق عليه . ولكن الوفد رفض . وصدم الرافعى بذلك صدمة كبرى .

وبعد أن مرت هذه الأزمة بسلام ، وجد الرافعى ان الفراغ كبير الذى كان يملأ بالعمل السياسى وعضــوية مجلس النواب . وحمد الله ان عدم دخوله المعترك البرلمــانى ، لم يصبه بمثل ما أصاب غيره من الحزب الوطنى فماتوا حزنا ! ففكر فى ان يتجه اتجاها وطنيا آخر يتفق مع منهجه فى الحياة ، ويستكمل ما بدأ بتدوين الأحداث السياسية المعاصرة منذ ســنة ١٩١٤ . وفعل . ويشــير الرافعى فى « مذكراتى » عن هــذه النقــلة الكبيرة : « أحببت التاريخ منذ صباى ، وكنت ولا أزال أراه مدرســة لتقويم أخلاق الشعب والنهوض بتربيته السياســية والقومية ، وزاد تعلقى به أنى رأيت فيه على ضــوء التجارب وسيلة ناجعة لتثقيف العقول ورفع مستوى الوطنيــة والوعى القومى فى النفوس ، فلقد تكشفت لى مع الزمن نقائص كثيرة فى مجتمعنا ، وفى أخلاقنا ، وثقافتنا . لمحت على تعاقب الحوادث ضعفا فى مستوانا الوطنى ، ونقصا فى وعينا القومى ، فكرت فى الوسائل لعلاج هــذا الضعف وتدارك هذا النقص ، فوجدت أن التاريخ وسيلة تلجــأ اليها أرقى الأمم لتربيــة الاخــلاق وتثقيف العقول وغرس روح الوطنية فى النفوس ، ومن هنا جاء تعلقى بالتاريخ ، أردت أن أجعل منه مدرسة للنهوض بالمجتمع .

« عنيت من التــاريخ أكثر ما عنيت بتاريخنا القومى ، وأقصد به تاريخ مصر كوطن ، وتاريخها كأمة لها أهــداف عليا

تنشدها ، فهو يتناول تاريخها السياسى ، وتاريخها الحربى ، وتاريخها الاقتصادى ، وتاريخها الاجتماعي والثقافى ، وأيقنت أن من واجبنا أن نعلم الشعب بمختلف طبقاته تاريخ بلاده فى هذه النواحى ، وأن نبدأ بتعليم أنفسنا ، أى بتعليم الطبقة المثقفة والممتازة تاريخنا القومى ، لأنى أرى مع الأسف أن هذه الطبقة حتى التى بيدها مصاير البلاد لا يعرف كثير من أفرادها من هذا التاريخ الا قشورا سطحية لا تصل الى اللباب ، وهذا النقص هو من أسباب تبلبل الأفكار وارتجال الآراء ، وتأخر الوعى القومى عندنا ، فعلينا أن نعلم الشعب تاريخ بلاده ، وبذلك يقدرها حق قدرها ويزداد تعلقا بها ويفهمها حق الفهم فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها » (ص ٦١) .

وتصديقا لرأى عبد الرحمن الرافعى فى جهل حكامنا بتاريخنا ، نطالع اعتراف صادق وجرىء . لأحد أقطاب السياسة المصرية الذين لعبوا دورا كبيرا فى مقدرات مصر فى بداية القرن العشرين ، يقول اسماعيل صدقى باشا فى مذكراته التى نشرها سنة ١٩٥٠ وهو فى الخامسة والسبعين من عمره ، عندما استرجع ذكرياته عن مفاوضاته مع بيفن وزير الخارجية البريطانية فى لندن فى أكتوبر سنة ١٩٤٦ والتى لم تكلل بالنجاح ، حين تطرق الى مسألة السودان :

« واستميح القارىء بمناسبة التكلم عن التاريخ أن أقول

له كم أنــا آسف اذا اغفلت فى ذلك الحين مستندا له قيمــة بشأن اثبــات حقوقنا فى السودان ، وذلك جهــلا منى اذ ذاك بوجوده ! فقد أرشــدنى الاخصائيون منذ أسبوعين فقط أثناء زيارة جديدة قمت بها لذلك الأثر الرائع المعلن عما بلغته مصر من عظمة ومن مجد وما أحرزته من اتقان فى الفن ، وأقصــد به أثر الكرنك ، أقول أنهم أرشــدونى الى واجهة المعبد الخاص بتحتمس الثالث فى داخل المعبد الكبير ، واذا بالنقوش التى تعلو الواجهــة المذكورة تمثل الملك الفاتح ومن حوله الرموز التى تشير الى فتوحاته ، واذا جانب كبير من هــذه الرموز يتعلق بالمقاطعات السودانيــة التى ضمت فى عهده الى الامبراطورية المصرية ، وهى تمتد من الجنوب الى خط الاستواء ! أليس هــذا المستند الذى يرجع الى بضعة آلاف من الســنوات ، مما لم تفز به دولة أخرى غير مصر فى صــدر الدفــاع عن حقها أمام شره الطامعين ؟ ! » (١)

ومع تفرغ الرافعى أو يكاد لكتابة التاريخ ، الا انه عانى كثيرا كما كتب أكثر من مرة ، فى سبيل طبع مؤلفاته . هــذه المعانــاة التى كادت تثنيه الا انه واصــل المســيرة ويقول : « انى أعترف بأن كتبى لم تقابل فى السنين الأولى مقابلة حسنة ، ولولا ما وهبنى الله من الصبر والاحتمال ، لوقفت عند الجزء الأول أو الثانى ، أو على الأكثر عند كتاب (عصر محمد على)

الذى كان فى طبعتــه الأولى الجزء الثالث من تاريخ الحــركة القوميــة .

« فبالرغم من الجهود المضنية التى بذلتها فى تأريخ الحركة القومية ، وما شــهد به أهل الذكر من أن هــذه الكتب جمعت بين المنهج العلمى البحت والروح الوطنية ، وبالرغم من حرصى الشديد على استقراء الحقائق التاريخية الثابتة ، مهما كلفنى ذلك من عناء ، حتى صارت هــذه المجموعة والحمد لله مرجعا معتمدا، بالرغم من كل ذلك فان هــذه الكتب لم تلق الاقبال ولا أقول الرواج ، الذى كنت أنتظره .

« ان اقبال المثقفين فى بلادنا على القراءة ضعيف جــدا . هذه حقيقة يلزمنا أن نعترف بها ، وهو أقل من اقبال المثقفين فى البلاد الأخرى ، التى فى مستواها الثقافى ، بل انى أستطيع القول بأن سكان الجنوب من هــذا الوادى ــ وأقصــد اخواننا السودانيين ــ أكثر منا اقبالا على القراءة والمطالعة اذا تعلموا وأخذوا بنصيب ولو قليل من الثقافة ، وقد حدثنى غير واحد من الأصدقاء وغير الأصدقاء ان اقبال المثقفين وأنصــاف المثقفين فى السودان على قراءة كتبى أكثر منه فى مصر ، واهتمــامهم باستيعاب محتوياتهــا أكثر من استيعاب اخوانهم فى مصر ، وهم ــ جزاهم الله خيرا ــ يتحدثون عن كتبى بأكثر مما يتحدث

عنها سكان الشمال ، وألمح فى أحاديثهم أنهم قرءوها واستوعبوا ما تحتويه ، بخلاف ما رأيت من المثقفين المصريين ...

« وقد كنت أسائل نفسى أمام الكساد الذى قوبلت به الحلقات الأولى من المجموعة ، واستمراره سنوات طويلة ، كنت أتساءل : ألا تساوى هذه الكتب بعض القصص والروايات التى يقبل عليها الجمهور فى بلادنا ؟ أو ليس التاريخ رواية واقعية مشوقة لمن يريد أن يعرف قصة بلاده ووطنه ؟ ألا يستوجب حب هذا الوطن أن يعرف المواطنون قصته ومراحل حياته البعيدة والقريبة ؟ ان من يحب انسانا ، سواء كان هذا الحب عائليا أو غراميا ، يود أن يتعرف أخباره وأحواله وماضيه وحاضره ، فهلا يستحق الوطن مثل هذا الشعور ؟ ..

« انقضت السنوات والأجزاء الأولى بطيئة الحركة ، وايرادها لا يغطى مصاريفها ، على أنى لم ألق بالى كثيرا الى هذه الناحية ، لأنى عددتها « تضحية » يجب أن أتحملها . ألسنا نخرج صحفا قد لا تلق الرواج والانتشار ، ومع ذلك نثابر على اخراجها مع ما يكتنفها من الخسائر حتى نعجز عن اصدارها ؟ وأنا والحمد لله لم أعجز عن متابعة اصدار هذه المجموعة ، فمضيت فى سبيل اخراجها حلقة بعد أخرى » (٢) .

وصعوبة نشر مؤلفات الرافعى استمرت بعد وفاته أيضا ، وهذا عرض سريع لمؤلفات الرافعى .

١

أصـــدر عبد الرحمن الرافعى أول كتبـــه « حقوق الشـــعب » ـ ٢٠٨ صفحة من القطع الكبـير ـ فى مـارس سنة ١٩١٢ ولم يعد طبعـه بعدها ، كتب عنه فى (مذكراتى) يقول : « .. كان لمدارس الشعب ـ التى انشأها الحزب الوطنى فى القاهرة سنة ١٩٠٩ ـ فضل كبير على ، فهى التى ألهمتنى الفكرة الأولى لتأليف كتابى « حقوق الشعب » فان هـذا الكتاب هو سلسلة دروس ومحاضرات لتفهيم الشعب حقوقه وواجباته ، وكانت دروسى فى مدرســة الشعب بالخليفة نموذجا مصغرا للأسلوب الذى انتهجته فى هذا الكتاب » . (ص ١٦)

ويشتمل الكتاب على أربعة عشر فصـــلا تصور ما دار فى الاجتماعات التى عقدها مجموعة من طـلاب الدقهلية خـلال العطلة الصيفية مع أبنـاء قريتهم كل مســاء لتفهيمهم الحقوق والواجبات السياسية والنظم الدستورية فى البلاد الديمقراطية . وكان أهم دعائم حقوق الشعب فى رأى الرافعى هى الحريـة التى كان المواطن المصرى يفتقدها فى هـذا الوقت من أوائل القرن العشرين : « الحرية الشخصية هى اطلاق الانسان نفسه من كل قيد الا قيد الواجب والقـانون أو بعبـارة أخرى هى استباحة الانسان لنفسه كل عمل لا يمنعه الشرع المنزل من عند

الله ولا يمنعه كذلك القانون الموضوع بمعرفة نواب الأمة أى الذى ارتضته الأمة قيدا لها » • (ص ١٦٥)

٢

وفى يونية سنة ١٩١٤ أصدر الرافعى كتاب « نقابات التعاون الزراعية • نظامها وتاريخها وثمراتها فى مصر وأوربا » ـ ٣٤٨ صفحة من القطع الكبير ـ ولم يطبع ثانية أيضا • تحدث فيه عن التعاونيات فى الخارج ، وهاجم فى الكتاب الحكومة لفشل جمعياتها الرسمية ولعدم اهتمامها بالتعاون من أجل انقاذ الفلاح المصرى من براثن الاحتلال الانجليزى الذى احال البلاد الى مزرعة كبرى لمصانع لانكشير ، ودعى الى انشاء جمعيات تعاونية زراعية فى مختلف المجالات لخدمة الريف المصرى بالاضافة الى جمعيات تعاونية منزلية تحت اشراف أجهزة الدولة الرقابية • وكان الرافعى يعمل أيضا على اشاعة الروح الجماعية ، يقول فى كتابه : « ان استقلال الحركات التعاونية هو قوامها وأساس نجاحها وان اعتماد المتعاونين على قواهم ومجهوداتهم هو أكبر عامل فى ارتقاء الحياة التعاونية بل هو روح تلك الحياة وبدونها يصبح التعاون جسما ميتا رجاء منه ولا خير فيه • فلا حاجة بنا الآن الى اطالة القول فى ان من الواجب أن تظل النقابات فى مصر حرة » • (ص ٣٠١)

٣

وفى يناير سنة ١٩٢٢ يصدر كتابه « الجمعيات الوطنية • صحيفة من تاريخ النهضـات القومية فى فرنسا وأمريكا وألمـانيا وبولونيا والاناضول » ـ فى ٣٩٢ صفحة من القطع الكبير ـ ولم يتكرر نشره بعد ذلك أيضا •• دعا فيه الى المقاومة الوطنية ضد الاحتلال والسير على تجارب البلاد التى تخلصت من نير الاستعمار بعد طول جهاد • ويعد مقدمة مطولة لكتاباته القومية التى تتابعت فى ظهورها •

وكان أهم ما قدمه عبد الرحمن الرافعى فى هـذا الكتاب تقديمه لبطولات الأمم المحتلة فى نضالها ضد مستعبديها ومقاومتها الفدائية فى سبيل استقلالها •• ويكتب مؤلفنا عن تجربة الشعب البولونى فيقول : « لم يخفت صوت بولونيا فى خلال المـائة والخمسين سنة التى تعاقبت عليها وهى عرضـة لاعتداء الدول الثلاث الغاصبة ، بل كان صوتها يرتفع جهيرا فيهز قلب الانسانية فيخفق اعجابا بتلك الأمة التى قاومت عوامل الفناء وحافظت على شخصيتها وسمت الى أعلى درجات الرقى فى العلوم والآداب والاخلاق والحضـارة واحتفظت بميراثها الوطنى وآمالها القومية رغم الاضطهـاد الدائم والعقبـات التى تنوء بهـا الأمم » •
(ص ٢٧١)

٤

وظهر كتيبه « رسائل وخطب ومقالات » الجزء الأول فى عام ١٩٢٣ ــ ١١٩ صفحة من القطع المتوسط ــ لم يصدر منه أجزاء أخرى كما كان ينوى الرافعي ؛ ولم يطبع ثانية ، ويشتمل على مجموعة مقالات نشرها فى الصحف الوطنية بالاضافة الى بعض الخطب التي ألقاها فى مناسبات قومية ، وتناقش مختلف القضايا مثل : مصادرة الحرية فى مصر ــ ارادة الأمة وعدم احترامها ــ الرجعية فى مصر ــ تسلط الاستعمار بأقليته فى حكم مصر ــ تلون الموظفين بسياسة الحكومة والبعد عن الشعب ــ ذكرى ضرب الاسكندرية بعد أربعين عاما ــ عيد ١٤ يوليو ذكرى الاستيلاء على الباستيل ــ ماذا يجرى فى السودان ــ مصر بين أمم الشرق ــ الصراع بين الحرية والاستعباد •

يكتب فيه عن قضية تحرير الشعوب « فالواقع الذى لا ريب فيه ان كل الدلائل والمشاهدات تدعو الى اليقين بأن الأمم الشرقية وفى طليعتها الأمة المصرية ستحقق لا محالة آمالها فى الحرية والاستقلال ولا يمكن أن تطوى صحيفة الدور الذى يجتازه العالم الآن دون أن يتم نهوض الأمم الشرقية جمعاء وتحريرها من ربقة الاستعباد ؟ ومهما تعددت العقبات التى يظنها دعاة اليأس حائلا دون تحقيق تلك الآمال فهى فى الواقع عقبات وقتيه لا تلبث ان تتغلب عليها ارادة الشعوب » • (ط ١ ص ١١١)

٥

وفى المنصورة يصدر فى ٥ يناير ١٩٢٥ كتيب « أعمالى فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ فى دور الانعقاد الأول » بلغت عدد صفحاته ١٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وزعه على أبناء دائرة مركز المنصورة عندما اعاد ترشيح نفسه لمجلس النواب سنة ١٩٢٥ .

ويقول الرافعى فى مذكراته « .. وكان مما لجأت اليه هذه المرة أن طبعت كتابا عن (أعمالى فى مجلس النواب) أوردت فيه مجموعة أعمالى نقلا عن المضابط الرسمية وأقوال الصحف ، ووزعته مجانا فى جميع بلاد الدائرة ليكون شفيعا لى فى اعادة انتخابى ، وألمعت فى مقدمته الى ما سألقاه من المحاربة فى الانتخاب ... » (ص ٥٥) ويعرض الكتيب ما اثاره ابان عضويته الأولى من مناقشات وقضايا .

٦

وفى يناير سنة ١٩٢٩ ينشر مجلده التاريخى الأول عن « تاريخ الحركة القومية وتطور نظم الحكم فى مصر » الجزء الأول بلغت صفحاته ٣٨١ صفحة من القطع الكبير وتوالت طبعاته سنة ١٩٤٤ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥٥ ، تناول فيه بدء ظهور العامل

الوطني والشعبي منذ عهد المماليك ثم حملة نابليون سنة ١٧٩٨ والثورات الشعبية فى الوجه البحرى والقبلى سنة ١٧٩٨ وصلة نظام الحكم بالانقلابات والحركات القومية ، وفى المقدمة يحدد منهجه التاريخي بقوله : « ... بدأت ــ الروح القومية ــ تظهر فى البلاد أواخر القرن الثامن عشر ، فالى هــذا العهد يجب أن يرجع مبدأ الحركة القومية المصرية ، وأول دور من أدوارها هو عصر المقاومة الأهلية التى اعترضت الحملة الفرنسية فى مصر ، فان هــذه المقاومة كانت أول شرارة أشعلت جذوة الروح القومية فى نفوس المصريين ، وهى أول صفحة من صفحات الجهاد الأهلى فى تاريخ مصر الحديث . ولا تكون دراســة الحركة القومية وافية اذا اقتصرت على عصر واحد من عصورها ، بل يجب أن يتناولها البحث بأجمعهــا ، من أجل ذلك عزمت على ان أقرن دراســة عصر مصطفى كامل بالعصــور التى خلت من قبله ، والأدوار التى تلت من بعده ، فانما هى سلسلة متصلة الحلقات من جهاد الأجيال المتعاقبــة لتحقيق آمال مصر وادراك مطمحها الاسمى » . (ج ١ ط ٤ ص ٩)

ثم يصدر فى نهاية ديسمبر ١٩٢٩ الجزء الثانى من « تاريخ الحركة القومية وتطور الحــكم فى مصر » ــ ٤٣٥ صفحة من القطع الكبير ــ ويعاد طبعه سنة ١٩٤٨ وطبعة ثالثة سنة ١٩٥٨ ، دارسا الفترة التى تلت اخمــاد نابليون لثورة القاهرة الأولى

سنة ١٧٩٨ الى أن أعـاد الديوان العمومى والديوان الخصوصى وغزوته لسـورية فى فبراير ١٧٩٩ ـ بعد أن حصـن القاهرة عسكريا خشية ثورتها عليه فى غيابه ـ ورجوعه لمصر منسحبا بعد هزيمته • واهتم المؤلف بدراسة مقاومة الشعب المصرى للاحتلال الفرنسي أثناء غياب نابليون عنها ، فثارت الجمـاهير فى القاهرة والشرقية وبقية البلاد • ويتصالح نابليون مع تركيا ويعود الى بلاده سرا ويخلفه كليبر ثم يتولى مينو آمر الحملة بعد اغتيال كليبر حتى يوقع اتفاقية الجـلاء مع انجلترا والدولة العثمانية فى سنة ١٨٠١ ويرحل بقواته الى فرنسا ، وتنتهى مقاليد الحكم الى محمد على بفضل الزعماء المصريين الذين انخدعوا بمظهره •

ويعد المجلد الأول وتكملته قمة السلسلة القومية جميعها بلا مراء لمـا بذل فيهما من جهد رائع وممتاز لباكورة كتاباته التاريخيـة •

٧

وفى العام التالى يصـدر الجزء الثالث من كتاب « تاريخ الحركة القومية • عصر محمد على » ـ ٦١٥ صفحة من القطع الكبير ـ (وعندما أعيد طبعه للمرة الثانية فى سنة ١٩٤٧ عدل الرافعى واقتصر عنوان الكتاب على عصر محمد على) ، ويعلل

المؤلف ذلك بأن حكم محمد على يعد عصرا قائما بذاته . وتتهم مقدمة الطبعة الثالثة التى ظهرت فى ١٩٥١ ، الكتاب والمؤرخين الذين تناولوا هـذا العصر بعد الرافعى بأنهم لم يأتوا بجديد من دراسات بعده ! يقول مؤلفنا : « وقد ظهرت بعد ظهور الطبعة الثانية سنة ١٩٤٧ بحوث ودراسات قيمة عن عصر محمد على ، لمناسبة الذكرى المئوية لابراهيم باشا سنة ١٩٤٨ ، والذكرى المئوية لمحمد على الكبير سنة ١٩٤٩ ، وراجعتها جميعا فلم أر فيها تعارضا مع ما كتبت ، ورأيت فيها تقصيرا لبعض ما أجملت ، أما الخطوط الرئيسية فهى هنا وهنـاك متطابقة متماثلة ، وهذا ما جعلنى أحرص على أن لا أزيد شيئا على الطبعة الثانيـة ، اللهم الا اضافات يسيرة حرصت على اثباتها فى هامش الكتـاب تحت عنوان (هامش الطبعة الثالثة) . (ص ٣)

وأغلب الظن ان هـذا تجاهل من مؤرخنا الكبير لجهود طيبة بذلت فى هـذا الجانب طوال أكثر من عشرين عاما أى بين ظهور الطبعة الأولى والثالثة . ولعلنا نفسر هـذا الموقف باصرار الرافعى دائما على أنه كتب كل ما يمكن يقال ويدرس وانه ليس هنـاك دافعا يجعله يعيد كتابة تاريخه من جديد . وقـد ظهرت الدعوة الأخيرة أكثر من مرة فى عهد الملكية والجمهورية على السواء ، ففى اللقاء الذى تم بين مؤرخنا الكبير والملك فاروق فى سنة ١٩٤٠ بناء على طلب فاروق ، عرض الملك على

الرافعي اعادة كتابة تاريخ مصر من جديد وانه سيمده بوثائق جديدة لم يكتشفها المؤرخ من قبل ، ولكن الرافعي لم يستجب واعتذر ولعل مؤرخنا بذلك قد تجنب الخوض في أزمات جديدة وهو وقتها في سن الواحد والخمسين عضـوا بمجلس الشيوخ . والمرة الثانية التي اعتذر عن هـذه المهمة كانت بعد ١٩٥٢ وكان أصحابها هم بعض أعضاء ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، فقد عرضـوا عليه بحجـة اكتشاف وثائق جديدة أيضـا ، وان عهد الثورة الديمقراطية هو أكثر حرية من عهد الملكية لاعادة كتابة تاريخ مصر ، ولكن الرافعي اعتذر أيضا ، وترك ذلك لغيره من المؤرخين ان أرادوا .

وكتاب محمد على يشتمل على عرض واف لعصره وأعماله ، ومن الواضح ان الرافعي اغفل تسلط مؤسس الأسرة الملكيـة السابقة وأشار سريعا الى نظـام احتكاره الذى جعل البـلاد واقتصادها بين أصابع الحاكم وحده يستغلها كيفما شاء . ولكن المؤلف يهاجم محمد على في حادث مذبحة القلعة في أول مارس سنة ١٨٦١ ويعدها من سيئاته : « ونحن هنا لا نريد أن ندافع عن المماليك ، فانا عددنا عليهم من المسـاوىء التي ارتكبوها والمضار التي جلبوها على البلاد ما يغني عن البيان ، ولكن مهما بلغت سـيئاتهم فان القضـاء عليهم بوسـيلة الغدر أمر تأباه الانسانية . ولو أن محمد على باشا استمر في محاربتهم وجهـا

لوجه حتى تخلص منهم فى ميادين القتـال لكان ذلك خيرا له ولسمعته ، ولا يسوغ فعلته ان هـذه الوسيلة كانت مألوفـة فى ذلك العصر ، وأن هـذه المؤامرة هى صورة مكبرة لما أمر به الباب العالى سنة ١٨٠٤ من الفتك بالمماليك ، اذ عهد الى الصدر الأعظم والى حسين قبطان باشا أن يقضى عليهم بهـذه الطريقة نفسها ، فان تكرار السيئات لا يبررها ، وبالجملة فمذبحة القلعة كانت نقطة سيئة فى تاريخ محمد على باشا ... ومن ناحية أخرى فان الفتك بالمماليك على هـذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحة القلعـة أدخلت الرعب فى قلوب الناس وكان من نتائجها أن استولت الرهبـة على القلوب ، فلم يعد ممكنا الى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة الى نفوس الناس ، والشجاعة خلق عظيم تحرص عليه الأمم الطامحة الى العلا ، وهى قوام الأخلاق والفضـائل القومية ، فاذا فقد الشعب الشجاعة وحلت الرهبة مكانها كان ذلك نذيرا بانحلال الحيـاة القومية وفسادها ، فالرهبـة التى استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها فى اضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية ، وتلك خسارة قوميـة كبرى ، فانما الأمم أخلاق وفضـائل ، أضف الى ذلك أن هذه الحادثة وقعت فى الوقت الذى كانت فيه النفوس قد تطلعت الى مراقبـة ولاة الأمور ودبت فيها روح الحيـاة والديمقراطية ، وتعددت مظاهر هذه الروح بما رأيت من اجتماعات الشعب واحتجاجاته

على المظـالم ، فنحسب أن مذبحة القلعة قد قضت على هـذه الروح الى زمن طويل ، وأحلت فى مكانهـا روح الرهبـة من الحكام ، ولعل هـذه الروح الجديدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يبد من الشعب فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضـة أو محاسبة أو انتقاد ، وغنى عن البيان انه مع ما أسداه محمد على من الخير للبلاد فى خـلال حكمه فانه لم يعوض على الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية ، ناحيـة الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية ، تلك الناحية التى هى من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية » • (ط ٣ ص ١١٨ ، ١٢٠)

٨

ثم يظهـر « عصر اسـماعيل » جـزءين فى ديسـمبر سنة ١٩٣٢ ــ الأول ٣١٤ صفحة والثانى ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير ــ ويصدر طبعة ثانية سنة ١٩٤٨ ، وعن هـذا الكتاب يقول عبد الرحمن الرافعى فى مذكراتـه « •• بدأت بهـذا الكتاب أدخل فى العصر الذى يشعر فيه من كان فى موقفى بشىء من الحرج فى الكتابة عنه ، فقد وضعته وأخرجته فى الوقت الذى كان المغفور له الملك فؤاد نجـل اسـماعيل فى أوج مجـده

وسلطانه ، وكنت أعلم مبلغ اهتمامه بتمجيد تاريخ والده ، والتعظيم من شأنه ، وبتوجيهه ومساعداته السخية صدرت عدة مؤلفات ترمى كلها الى ابراز الجوانب الحسنة من شخصية الخديو اسماعيل ، وأنا أعرف هذه الجوانب الحسنة ، وقد ذكرتها باسهاب فى كتابى عنه ، ولكننى أيضا أعرف أن لاسماعيل جوانب سيئة ، كان لها أثرها الضار فى حياة مصر السياسية والاقتصادية ، ولابد من تدوينها ، وبعد أن فكرت فى ذلك مليا وجدتنى مدفوعا من تلقاء نفسى الى أن واجبى كمؤرخ للحركة القومية يقتضى منى ان أدون الحقائق كلها عن الخديو اسماعيل ، وأذكر ما له وما عليه ، وهذا فى الواقع هو منهجى فى التراجم والشخصيات ، وأنا بطبعى ميال الى الاعتدال ، ولا أحب التشنيع فى ذكر السيئات ، ولكن لا يصح أن أغفلها أو اتجاوز عنها ، لانى أنشد الحق والأنصاف فيما أقول وأكتب ، وأود أن لا أظلم أحدا ، ولا أرضى لنفسى أيضا أن أحابى أحدا بغير الحق ، وقد وضعت لنفسى هذه القاعدة فى سلسلة هذه المجموعة ، وأتبعتها قدر ما استطعت فى كل حلقة من حلقاتها ، وعلى هذا الأساس وضعت كتاب عصر اسماعيل » . (ط ١ ص ٦٦)

وكما توقع الرافعى فقد نظرت الجهات الرسمية الى الكتاب نظرة عدائية .. ولما كانت الحكومة لا تملك لمؤرخنا ضررا

ولا نفعا الا فى أضيق الحدود ، فقد استغلتها ! ولم تشتر من الكتاب النسخ التى اعتادت وزارة المعارف (التربية والتعليم) ان تمد بها مكتباتها وأرسلت اليه تعتذر بأن مؤلفه هـذا به مآخذ تحول دون ايداعه مكتبات مدارس الوزارة ! وأرسلت طى خطابها صـورة من تقرير ما اسمته (لجنـة فحص الكتب التاريخية لمكتبات المدارس) وفيه تعداد لهذه المآخذ المزعومة ، وقوامها انه تحامل على الخديو اسماعيل !

ويحتوى الجزء الأول من « عصر اسماعيل » على دراسـة لعباس الأول ورجعيته والنهضـة الوطنيـة فى عهد سـعيد واصلاحاته ، وسياسة اسماعيل الخارجيـة والداخلية ووضـع السودان فى عهده ، والاكتشافات الجغرافية ، وحالة الجيش والبحرية والحروب والتعليم والنهضـة العلمية والأدبية والفنية والصحافة واعلام الأدب والعلوم والفنون . واشـتمل الجزء الثانى على أعمال العمران والحركة الوطنية والحياة النيابية فى عهد الخديو اسماعيل ومشكلة الدائنين ، وحالة البلاد المـالية والاقتصادية والاجتماعية وعزل اسماعيل وشخصيته ..

ويشير الرافعى الى مأساة الديون بقوله : « مسألة الديون هى الجانب المظلم من تاريخ اسماعيل ، لأنها المأساة التى انتهت بتصدع بناء الاستقلال ، وتدخل الدول فى شئون البلاد المـالية والسياسية ، فمن الواجب أن نوافى الكلام عنها فى شىء من

الايضاح والبيان • بقيت مصر سليمة من آفه الاستدانة فى عهد محمد على وابراهيم وعباس ، وبدأت حكومتها تمد يدها الى الاقتراض فى عهد سعيد باشا ، فاستدان سنة ١٨٦٢ قرضا مقداره ٣٫٢٤٢٫٨٠٠ جنيه انجليزى ، واستدان عدا ذلك مبالغ أخرى من الديون السائرة ، فبلغ الدين العام عند وفاته ١١٫١٦٠٫٠٠٠ جنيه • أما الخديو اسماعيل ، فكانت آفته الاسراف والاقتراض من البيوت المالية والمرابين الأجانب من غير حساب أو نظر فى العواقب ، حتى كبل البلاد حكومة وشعبا بالقروض الفاحشة » • (ج ٢ ط ٢ ص ٢٥)

٩

وفى فبراير سنة ١٩٣٧ صدرت الطبعة الأولى من « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ــ فى ٥٨٣ صفحة من القطع الكبير ــ وتصدر الطبعة الثانية سنة ١٩٤٩ •

ويكتب المؤلف فى مقدمته « للثورة العرابية ، كما لكل ثورة ، انصار وخصوم ، ولقد بدا لى أزاء هذه الآراء المتباينة ان أدرس الثورة من غير سابق حكم عليها ، لا تنتهى الى رأى يهدى اليه البحث والتمحيص •• وقد اجتهدت من هذه الناحية فى استخلاص الحقائق عن الثورة وحوادثها وأشخاصها • من غير تميز أو محاباة ، ثم بنيت عليها ما عن لى من الرأى ، على أننى حرصت جهد الاستطاعة على آن لا آخلط بين الوقائع

والرأى فيها ، لادع للقارىء حريـة الحـكم على الحـوادث والأشخاص » (ط ١ ص ٥٤)

ويعرض الرافعى الأسباب القريبة والبعيدة للثورة العرابية وتفاصيلها وأسـباب اخفاقها ، محمـلا اياها تبعة الاحتـلال البريطانى ويقف كثيرا عند شخصية زعيمها أحمد عرابى موقفا عدائيا كما يحدث ازاء غير زعماء الحزب الوطنى ! لأن الحزب الوطنى يعتبره سبة فى وجه مصر لأنه جلب اليها بتهوره الاحتلال الانجليزى . « وقد يرجع نزوعه - أى عرابى - الى الثورة الى أصله البدوى ، فانه ذكر عن نسبه أنه ينحدر من سـلالة بدويـة عراقيـة ، ومعلوم أن أكثر البدو يميلون الى التمرد والثورة ، على أنهم سرعان ما ينقلبون خاضعين اذا آنسوا القوة من جانب خصـومهم ، وهذا مع الأسف ما انتهى اليه عرابى ، فقد أذعن للقوة واستسلم لها فى واقعة التل الكبير ، ولم يبذل خلال المعركة أو بعدها من قوة المقاومة والنضـال والتضحيـة ما يسمو به الى مصاف الأبطال . وكان ذكاؤه محدودا ، على انه كان على جانب كبير من الغرور ، والاعتداد بالنفس ، وكان يعول كثيرا على أقوال المنجمين والعرافين ، وهـذه جوانب ضعف كبيرة فى شخصه » . (ط ١ ص ٨٢)

واستعرض مؤرخنا مواقف رجال الثورة فى المحاكمـات وما اتسمت به من شجاعة واستسلام . ويذكر المواقف المشرفـة

لبعض هؤلاء الزعماء مثل على باشا الروبى الذى أنضم للثورة بعد ان كان رئيسا لمحكمة المنصورة . « كان الزعيم الوحيد الذى أجاب بشجاعة وصراحة على ما وجه اليه من التهم ، واحتمل تبعة ما عمل أو اشترك فى عمله ، ولم يسع فى التنصل من المسئولية ، ولم يقبل أن يشارك زملاءه فى الاتفاق مع السلطات البريطانية على مصير المحاكمة وخطة الدفاع فيها ، ولذلك لم يشمله العفو الذى عومل به زعماء الثورة ، وحكم عليه بالنفى عشرين سنة فى مصوع تحت الملاحظة ، فلم يمض عليه بها عامان حتى اعتلت صحته وضعف بصره ، ثم نقل الى سواكن منفيا تحت الملاحظة فيها ، وكانت حرارة الطقس قد أثرت فى صحته ، فأودت ببصره ، وتوفى فى سواكن يوم ١٦ صفر سنة ١٣٠٩ هـ (١٩ سبتمبر سنة ١٨٩١ م) ودفن بها ، ولايزال قبره هناك » . (طـ ١ ص ٥٤٥)

١٠

وفى يناير ١٩٣٩ يصدر عبد الرحمن الرافعى مجلده الضخم عن « مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية » ـ ٥٣٢ صفحة من القطع الكبير ـ وتصدر طبعته الثانية سنة ١٩٤٥ والثالثة سنة ١٩٥٠ والرابعة سنة ١٩٦٢ ، وفى نوفمبر ١٩٥٢ تصدر طبعة موجزة عن الأصل فى سلسلة « كتاب الهلال » .

وقد تأخر ظهور الكتاب فى طبعته الأولى عن موعده المقرر له قبلا حين ابتدأ الرافعى سنة ١٩٢٦ فى الكتابة عن مصطفى. ولكنه اكتشف انه لايمكن اصداره دون العودة الى نشأة الحركة القومية المصرية منذ المقاومة الوطنية لحملة نابليون سنة ١٧٩٨ وكان ان فعل .

وكان اهداء الكتاب بليغا نابعا من القلب وهو يقول : « الى من كانت حياته للأمة بعثا وطنيا . من كان لى أبا روحيا . وسأبقى له تلميذا وفيا . من علمنى أن الحياة بغير المثل العليا عرض زائل . وعبث ضائع . الى « مصطفى كامل » اهدى كتاب « مصطفى كامل » . هدية الوفاء الى روحه العظيمة » .

ويدرس مؤرخنا فى مؤلفه حياة الزعيم الشاب ويتابعه منذ مولده الى وفاته ، ويعرض لفكره ومواقفه مفسرا أعماله مسجلا بعض خطبه المشهورة .

وكان من رأى الرافعى فى الزعيم الشاب .. « لانزاع فى أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال ، ومن زعماء الشعوب وقادتها الأبطال فى ميادين الحرية والاستقلال ، ولا مراء فى أنه باعث الحركة الوطنية التى ظهرت فى مصر عقب الاحتلال البريطانى . ان شخصية مصطفى كامل تتركز فى قوى ثلاث ، هى التى ساعدته على النجاح فى عمله العظيم ، وهى ايمانه

برسالته واخـلاقه وصفاته ، ثم وطنيته الصادقة » . (ط ٤ ص ٤٢٣)

وكعادة الرافعى فى اغفال جوانب الضعف فى الشخصية التاريخية التى يتناولها ، الغى الكثير من هـذه الجوانب فى حياة ومواقف مصطفى كامل . مثل مضارباته . التى يذكر عنها الزعيم محمد فريد فى يومياته بتاريخ ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ « واضطربت ماليته كثيرا بسبب المضاربات التى كان دخل فيها هو وأخيه على » (٣) .

١١

وفى يولية سـنة ١٩٤١ يظهر كتـاب « محمد فريد رمز الاخـلاص والتضحية » ـ ٥٢٥ صفحة من القطع الكبير ـ وتصدر الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ والطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢ وتصدر طبعة مختصرة سنة ١٩٥١ فى سلسلة « كتاب الهلال » .

وكان الرافعى يستشعر دائما خفوت ذكر محمـد فريـد بالذات ، فعمل على دراسة جهاده الوطنى وتسليط الأضواء على أعماله .. لأن فضله كما يقول .. « قد غمر فى زحمة التقلبات التى طرأت على الحركة القومية » ويعنى بذلك قيام ثورة ١٩١٩ وظهور الوفد على رأس المقاومة الوطنية .

ويعرض الكتاب للزعيم الوطنى منذ أن شب عن الطوق

ويتابعه فى حياته الأسرية ويتحدث عن مؤلفاته وترجماته وصلته بمصطفى كامل وتضحياته من أجـل الوطن وخلافتـه للزعيم الشاب وجهـاده الوطنى وجولاته فى أوربا من أجـل الدعوة للقضية المصرية الى أن اضطر الى الارتحال عن بلده ووفاته فى ألمـانيا مساء السبت ١٥ نوفمبر سنة ١٩١٩ وعودة جثمانه الى مصر بفضـل ووطنية أحد تجار الزقازيق ، وكعادة الرافعى اغفل الاشارة الى الحياة الخاصة لمحمد فريد فى أوربا وخاصـة علاقته مع مدام رينه دى روشبرون الفرنسية التى نشرت مذكراتها عن هـذه العلاقة ، وكذلك علاقتـه فى المنفى مع الخديو السابق عباس حلمى الثانى (٤) .

ويهتم الرافعى أحيانا بتفاصيل حياة محمد فريد الوطنية ، كما حدث وهو يعرض لمـا لابس الحكم الذى صدر عليه فى ٢٣ يناير سنة ١٩١١ بسجنه ستة شـهور لكتابته مقدمة ديوان الشاعر على الغاياتى . فعندما دخـل الزعيم المصرى سـجن الاستئناف بالقاهرة لتنفيذ العقوبة دار هذا الحوار بينه وبين كولس باشا مدير مصلحـة السجون : « .. بدأ كولس باشا يتحدث اليه بالفرنسية قائلا : انى أسعى للعفو عنك اذا وعدت بتغيير خطتـك ، فأجابه الفقيد ان ما تطلبـه مستحيل ، فعدل كولس باشا وقال : انى لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك ، فرفض ، فقال له كولس باشا : أنت تريد اذن قضـاء الست الشهور فى السجن ، فقال الزعيم : وأزيد عليهـا يوما

ان أردتم ، فأدرك كولس باشا ان لا سبيل الى مساومته وانصرف » . (ط ٣ ص ٢٨٤)

وقد تصدى كثيرون من الكتاب لأسلوب الرافعى فى تجاهل الجوانب السلبية فى حياة الزعماء . يقول محمد صبيح فى كتابه : « كفاح شعب مصر » الذى يجابه فيه الرافعى ــ وقد كان حيا ــ بما أغفله فى مذكرات محمد فريد التى اطلع عليها . ويقول صبيح « ان تقدير الأستاذ الرافعى لزعيميه مصطفى وفريد ، جعله يعطيهما فيما كتبه عنهما صفة العصمة فى كل رأى أو عمل قاما به .. وهو الأمر الذى تنكره طبيعة الأشياء والاحياء .. وهو نفس الأسلوب الذى اتبعه المرحوم الأستاذ العقاد فى تأريخه لسعد زغلول » (٥) .

١٢

وفى يونية ١٩٤٢ أصدر الرافعى كتابه « مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال . تاريخ مصر القومى من سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٩٢ » ــ ٢٨٢ صفحة من القطع الكبير ــ وظهرت الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ ، والطبعة الثالثة سنة ١٩٦٦ . يعرض فيه للسنوات العشر الأولى للاحتلال الانجليزى على مصر ، مشيرا الى ضياع الامبراطورية المصرية حيث تم شطر السودان بعد أن ضحت مصر فى سبيل الوحدة بعشرات الألوف من أبنائها وبملايين الجنيهات من أموالها وبجهود عشرات السنوات من

تاريخهـــا • ويذكر الدعائم التى أرستها السياسة البريطانيـــة لافساد العلاقات الوثيقة بين البلدين الشقيقين • ويهتم الرافعى بالاشارة الى آثار الاحتلال فى النفوس « •• فلا عجب ان ظلت الأمة سنين عديدة تتردى فى هوة الانحلال الوطنى ، وهو نتيجة حتمية لاخفاق الثورة الأهلية ووقوع الاحتـــلال الأجنبى » •
(ط ٣ ص ٢٠٩)

١٣

وفى أبريل سنة ١٩٤٦ يصدر الرافعى مجلدين عن « ثورة ســنة ١٩١٩ » • تاريخ مصر القـــومى من ســـنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ ـ الجزء الأول ٢٠٧ صفحة والثانى ٢٣٢ صفحة من القطع الكبير ـــ وتصدر الطبعة الثانية فى مجلد واحد سنة ١٩٥٥ والطبعة الثالثة تصـــدر سنة ١٩٦٨ فى أربعة أجزاء فى سلسلة كتاب الشعب ، ويترجم الى اللغة الروسية سنة ١٩٦٧ •

عرض فيهما المؤلف لحالة مصر أثناء الحرب العالمية الأولى ثم بواعث الثورة السياسية والاقتصـــادية والاجتماعية وأثبت تطور الأحداث ووقائعها فى القاهرة والاقاليم ودور عبد الرحمن الرافعى فى المنصـــورة ابان اشتعالها • والافراج عن ســـعد ثم استمرارها ومحاكماتها وتنتهى الدراسة بلجنة ملنر ومفاوضاتها •

يكتب الرافعى عن تفجـــير الثورة « لم يكد يترامى نبـــأ

القبض على سعد وصحبه ، حتى أخذت سمات الغضب ترتسم فى محيط العاصمة ، وتسرى منها الى الأقاليم . كانت روح السخط كامنة فى الجوانب ، والنفوس مغيظة محنقة من تصرفات السياسة البريطانية ، القديمة والحديثة ، متحفزة للثورة على هذه التصرفات ، وجاء هذا الحادث كالشرارة أشعلت النار فى النفوس المضطرمة . كان هذا الاعتقال جديرا بأن يهيج الخواطر ، ويدفع الأمة الى الثورة ، لأنه حلقة من تصرفات جائرة اتخذتها السلطة البريطانية لاذلال الشعب ، والحيلولة دون حقه فى الحياة ، وقد بلغ التحدى لأمانيه غايته ، بحيث يعد السكوت على ذلك رضاء واستسلاما ، فجاءت الثورة معلنة ان الأمة لا ترضى بالذل والعبودية » . (ج ١ ط ٢ ص ١٧٠) .

١٤

وفى أول يولية سنة ١٩٤٧ ظهر « فى أعقاب الثورة المصرية » الجزء الأول ــ ٣٣٦ صفحة من القطع الكبير ــ وفى نوفمبر سنة ١٩٤٩ يصدر الجزء الثانى ــ ٣٨٦ صفحة من القطع الكبير ــ وفى أكتوبر سنة ١٩٥١ يصدر الجزء الثالث ــ ٣٤٤ صفحة من القطع الكبير ــ .

يشمل الجزء الأول تاريخ مصر القومى من أبريل سنة ١٩٢١ الى وفاة المغفور له « سعد زغلول » فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ حيث عرض الانقسام الداخلى سنة ١٩٢١ والموقف السياسى بعد

قطع مفاوضـــات عدلى وتصريح ٢٨ فبراير ســـنة ١٩٢٢ ، ثم الوزارات المتعاقبة ، ودستور سنة ١٩٢٣ والانتخابات العامـــة والبرلمـــان الأول وذكرياته وانتخابه عضـــوا فى مجلس النواب عن دائرة مركز المنصورة • ثم وزارة سعد وحوادث الســـودان ومقتل السيرلى ستاك سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام ، واستقالة سعد ، وتأليف وزارة زيور والتسليم بمطالب الانجليز ، وتعطيل البرلمـــان وانتخابات سنة ١٩٢٥ وحل مجلس النواب الجديد يوم انعقاده ، ثم اجتماع البرلمـــان من تلقـــاء نفسه بفندق الكونتننتال يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٢٥ بعد اغـــلاق الحكومة البرلمـــان بقوات الجيش ، وعودة الحياة الدستورية • ثم الوزارات الائتلافية • ويعرض فى فصـــل خاص دراســـة عن شخصية سعد زغلول ، وفصل عن الدستور والحكم المطلق • وقد أشـــاد بزعامة ســـعد ـــ بالرغم من المـــآخذ التى عددها عليه ـــ حين قال : « ان الزعامة هى قدرة الانسان على أن يقود الجماهير وان يجمع حوله أكثر ما يمكن من الأنصار والمؤيدين أو المعترفين بزعامته • ولاشك أن سعدا قد جمع حوله منذ أواخر سنة ١٩١٨ الى أن توفى سنة ١٩٢٧ أكبر ما يمكن من الأنصار • وكانت له مقدرة عجيبة فى اقتياد الجماهير ، وقد جمع حوله بغير منازع الغالبية العظمى من الأمة ؛ على اختـــلاف طبقاتهـــا وطوائفها ، فزعامته أصبحت حقيقة من حقـــائق التاريخ القومى لمصر الحديثة » • (ج ١ ط ١ ص ٢٩٣)

ويعرض الجزء الثانى لتاريخ مصر القومى من وفاة سعد زغلول فى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ الى وفاة الملك أحمد فى ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ حيث يتحدث عن استمرار الائتلاف بعد وفاة سعد زغلول ، ونقض الائتلاف وتعطيل الدستور • ومفاوضات محمد محمود وهندرسن ، ووزارة اسماعيل صدقى والحوادث الدامية فى عهده فى الأقاليم ، والغاء دستور سنة ١٩٢٣ واعلان دستور آخر • ثم عودة الحياة الدستورية بعد الغاء دستور صدقى ، وشخصية الملك فؤاد • والمامه بالنهضة الاقتصادية والنهضة الاجتماعية •

ويشتمل الجزء الأخير على تاريخ مصر القومى (بعد ارتقاء الملك فاروق عرش مصر) من ٦ مايو سنة ١٩٣٦ الى ١٠ أكتوبر سنة ١٩٥١ ويتناول المؤلف الحالة السياسية فى أوائل عهد فاروق ، ثم معاهدة سنة ١٩٣٦ ورأيه فيها باعتبارها وصمة فى جبين مصر ، والغاء الامتيازات الأجنبية • ثم وزارة محمد محمود الثانية ، ومصر فى الحرب الثانية ، ثم حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ ووزارة مصطفى النحاس الخامسة • ثم وزارة أحمد ماهر ، ومصر بعد انتهاء الحرب الثانية • ويكتب الرافعى عن اشتراكه فى وزارة حسين سرى الائتلافية سنة ١٩٤٩ وزيرا للتموين ثم يتابع الوفد فى الحكم أو ما يسميه عودة الحكم المطلق ، واخراج المعارضين من مجلس الشيوخ وهو من بينهم • وترحيبه بما أعلنه مصطفى النحاس بالبرلمان مساء يوم الاثنين ٨ أكتوبر

سنة ١٩٥١ من قطع المفاوضات المصرية البريطانية ، والغاء معاهدة ٢٦ أغسطس سنة ١٩٣٦ ، واتفاقيتى ١٩ يناير ، ١٠ يولية سنة ١٨٩٩ بشأن ادارة السودان ، وتعديل الدستور وجعل لقب الملك « ملك مصر والسودان » . « ولا ريب ان قطع المفاوضات التى طال امدها ، واعلان الحكومة الغاء معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقيتى سنة ١٨٩٩ ، هو كسب كبير للقضية الوطنية ، وهو اعلان باستئناف الجهاد والكفاح فى سبيل تحرير الوادى . واننا لنرحب بهذه الخطوة فى الجهاد ، ونغتبط بها اغتباطا عظيما ، ونؤيد الحكومة فيها ، وفى خطوات الجهاد كافة ، ونساهم فيها بكل قوانا وجوارحنا ، وندعو الى تضامن الشعب والحكومة فى مراحل هذا الكفاح ، وفق الله الوادى فى جهاده ، وأمده بروح من عنده فى سبيل تحقيق أهدافه » . (ج ٣ ط ١ ص ٣٣٥)

والكتاب بأجزائه الثلاثة لم يقدر أن يعاد طبعه كاملا ، لكن قامت دار الشعب بطبع الجزء الأول منه فى سلسلة « كتاب الشعب » سنة ١٩٦٩ ولم تكمله .

١٥

وفى فبراير سنة ١٩٥٢ يصدر اعترافاته وذكرياته تحت عنوان « مذكراتى » فى الفترة من سنة ١٨٨٩ الى سنة ١٩٥١ ـ

١٦٠ صفحة من القطع الكبير ـ ولم يعاد طبعه • واشتمل الكتاب على شريط حياته العائلية بسرعة واهتمامه الشديد بأمه ثم يتحدث عن أبيه واخواته وتعليمه وتلمذته لمصطفى كامل ومحمد فريد • واشتملت الاعترافات على عمله فى المحاماة بقدر ضئيل وصلته بالحزب الوطنى ومقالاته الصحفية الأولى ومجموعة كتبه التى أصدرها وكذلك عن اعتقاله وذكرياته عن ثورة ١٩١٩ وتحدث عن زوجته ، ونشاطه ومشاركته فى انشاء الجمعيات التعاونية ابان الحرب الأولى ثم تحدث عن حياته البرلمانية سنة ١٩٢٤ بمجلس النواب ثم ابعاده عن النشاط السياسى منذ ١٩٢٦ الى ١٩٣٩ حيث دخل مجلس الشيوخ الى أن انتهت مدته سنة ١٩٥١ • وروى كيف أبعد عن الحياة السياسية سنة ١٩٢٦ واتجاهه الى التأليف •

١٦

وفى سنة ١٩٥٢ يصدر مؤلفه « الزعيم الثائر أحمد عرابى » عن دار الهلال ولكن هذا الكتاب لا يقدر له أن يرى النور فقد صادرته السراى ولم يفرج عنه الا بعد قيام ٢٣ يولية بموافقة قائدها اللواء محمد نجيب ، وتصدر طبعته الثانية فى ذات السنة ، وفى سبتمبر سنة ١٩٦٨ تصدر طبعته الثالثة عن دار الشعب ـ والأخيرة ٣٢٤ صفحة من القطع المتوسط ـ •

وتشتمل الدراسة على حياة عرابى وأعماله ونهايته وشخصيته ، ويعد هذا الكتاب صورة مركزة لما نشره الرافعى فى كتاب « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » الصادر سنة ١٩٣٧ ، ولكن الجديد فى الكتاب انه رفع كافة الفقرات الحادة التى كتبها وهو فى الثانية والأربعين والتى تدين عرابى بالخيانة والهروب من ميدان المعارك حتى بدا كأنه اعتذار عما سلف ، وبعد أن قوبل رأيه السابق بالانكار وبعد ما حفلت المكتبة العربية بدراسات عن عرابى من بينها كتاب محمود الخفيف « عرابى المفترى عليه » . وكتابات الرافعى الجديدة وهو فى سن الثلاثة والستين عن عرابى خير دليل لتعديله لموقفه على مر الأيام فرفعه من الحضيض الى السماء وهكذا احاله أيضا عندما ارتد من الثورية سنة ١٩١٩ الى حد انكاره للاغتيالات التى قام بها أبطالنا المجهولون حين كتب عن هذه الفترة فى كتب « ثورة سنة ١٩١٩ ـ فى أعقاب الثورة المصرية ـ مذكراتى » .

والكتاب يشتمل على أحد عشر فصلا طالعنا منها عناوين على سبيل المثال « عرابى الزعيم القومى » و « الزعيم فى المنفى » ومقارنة بين كتاباته سنة ١٩٣٧ وسنة ١٩٥٢ ، نراه فى الأولى يكيل التهم وفى الثانية يتحدث برقة . يكتب مثلا (عام ١٩٣٧ « فان الحرص على الحياة كان رائده ـ أى عرابى ـ فى كل هذه الأحداث ، وقديما قالوا (اذل الحرص أعناق

الرجال) » (٦) • أما فى عام ١٩٥٢ فتتحول هـذه الفقرة الى « فشخصية عرابى كانت تجمع بين المحاسن والاضداد ، حقا ان الرأى فى شخصيته قد يتغير لو كتب له الفوز والنجاح •• فلو ان الثورة قد انتصرت لتضاءلت عيوبه الى جانب مزاياه ومحاسنه ، وهكذا شأن الحوادث والأحداث لها دخل كبير فى تقدير الرجال والأشخاص •

والناس من يلق خيرا قائلون له
ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل(٧)

١٧

وفى عام ١٩٥٤ يصدر عبد الرحمن الرافعى كتابه « شعراء الوطنيـة » ـ ٣١٦ صفحة من القطع الكبير ـ وأعيد طبعـه سنة ١٩٦٧ ، ويعرض لرفاعة رافع الطهطـاوى وعبد الله نديم ومحمود سامى البارودى واسـماعيل صبرى وأحمد شـوقى وحافظ ابراهيم وخليل مطران وأحمد محرم وأحمد نسـيم وأحمد الكاشـف ومحمد عبد المطلب والدكتور أحمـد زكى أبو شـادى وعبد الحـليم المصرى وعزيـز فهمى ثم أخـيرا على الغاياتى •

ومع أن موضوع الكتاب له صله بشكل غير مباشر بالتاريخ والوطنية ، الجانب الأثير عند الرافعى •• الا أن القارىء ربما

يدهش لاهتمام مؤرخنا بالشعر • ولكن الدارس لحياته يعرف انه كان فى شبابه شديد العشق للشعر العربى القديم بالذات •

١٨

وفى أكتوبر ١٩٥٥ يظهر كتـاب « أربعـة عشر عاما فى البرلمـان » ــ ٥٥٢ صفحة من القطع الكبير ــ يعرض فيه للفترة التى قضاها عضـوا بمجلس النواب من سنة ١٩٢٤ الى ١٩٢٥ والفترة التى قضاها عضـوا بمجلس الشيوخ سنة ١٩٣٩ الى سـنة ١٩٥١ من واقع مضـابط المجلسين البرلمـانيين ، وكان الرافعى يوزع كتابه بالمجان •

ومن المعروف أن الحديث عن الفترة الأولى سبق أن طبعها سنة ١٩٢٥ فى كتيب « أعمالى فى مجلس النواب سنة ١٩٢٤ فى دور الانعقاد الأول » •

١٩

وفى مارس ١٩٥٧ يصدر كتاب « مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ » ــ ٢٤٠ صفحة من القطع الكبير ــ ويعيد طبعه سنة ١٩٦٤ • يشير فى مقدمته الى ان هـذا الكتاب هو فى سلسلة التاريخ القومى خلقة جديدة تبدأ حيث انتهى الجزء الثالث من

كتابى « فى أعقاب الثورة المصرية » ، « ثورة سنة ١٩١٩ » وهو يتناول الكفاح فى منطقة القنال وحريق القاهرة ووزارات الموظفين وأسباب الثورة وفاروق يمهد للثورة وقد عرض الرافعى جوانب كثيرة سبق ان نشرها بالحرف الواحد فى مجلداته السابقة .

والانطباع الذى يخرج به القارىء فى هذا المؤلف ، انه ما كان يجدر بالمؤرخ الكبير أن يدون شيئا عن ثورة ١٩٥٢ والسبب انه كان صحيا فى حالة لا يقوى فيها على الكتابة الممتازة ولذلك اعتمد الكتاب على النقل من الصحف والمجلات !

وقد توقف عبد الرحمن الرافعى باهتمام عند حريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وكان له رأى يخالف الكثيرين وهو ينفى مسئولية الانجليز والقصر فى الحريق ! يقول : « قرأت فى بعض الصحف والمجــلات تلميحات الى ان الانجليز هم الذين دبروا حريق القاهرة ، مثلما دبروا مذبحة الاسكندرية التى وقعت يوم ١١ يونية سنة ١٨٨٢ . وزعم آخرون أن لفاروق يدا فى هذا التدبير . وكنت أود أن يســفر البحث والاســتقراء عن تدبير الانجليز أو فاروق حريق القاهرة ، ولقد مضت عدة سنين وأنــا أعاود البحث لعلى أصــل الى بينات أو مجرد قرائن تثبت هذا التدبير ، مثلمــا انتهى بى البحث والتحقيق الى ثبوت تدبير الانجليز لمذبحة الاسكندرية سنة ١٨٨٢ . ولكن الأمر فى حريق القاهرة جاء على خلاف مذبحة الاسكندرية ، وتبين لى مع شديد

الأسف أن حريق القاهرة كان عملا محليـا قامت به العناصر الرديئة من الشعب » • (ط ٢ ص ١٢٢)

٢٠

وفى أكتوبر ١٩٥٩ وعبد الرحمن الرافعى فى سن الواحدة والسبعين يصـدر « ثورة ٢٣ يولية ١٩٥٢ تاريخنا القومى فى سبع سنوات ١٩٥٢ ـ ١٩٥٩ » يقول فى مقدمته : « فى هذا الكتاب تأريخ لثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ • أؤرخها فى سـبع سنوات منذ عـام قيامها الى سنة ١٩٥٩ • وبذلك يتاح لى ان أؤرخ الثورات التى تعاقبت على مصر فى تاريخها الحـديث ، خلال نيف ومائة وخمسين عاما » • (ط ١ ص ٣)

والكتاب خفيف للغاية فى مادته وحكمه على الأشـياء •• حيث جامل السلطة الجديدة التى كرمته وكان من أبرز عيوبه فيه تجاهله الكامل لدور محمد نجيب !

ويقول الدكتور وحيـد رأفت فى كتابـه « فصـول من ثورة ٢٣ يوليو » : « وللأستاذ عبد الرحمن الرافعى وأمثـاله من الكتاب والمؤرخين أن يشيدوا بذلك النصر (يشير الى كتابة الرافعى عن قرارات مارس سنة ١٩٥٤ ، متخذا جانب السلطة) بلا تحفظ ويتغنوا بكل ما فى ذلك العهد ، ويحرقوا للسـلطة البخور ، ويؤلهوا الحاكم الذى حولوه بخنوعهم وسكوتهم الى

طاغية ، فانهم قوم كانوا قد فقدوا الوعى فوجدوا حسنا ما ليس بالحسن ، وعميت أبصارهم عن رؤية السلبيات والسيئات » (٨) .

٢١

وأصدر فى مايو ١٩٦٣ كتاب « تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة من فجر التاريخ الى الفتح العربى » ٣١٣ صفحة من القطع الكبير ــ بلغت فصوله خمسة عشر ، تناول فيها : الوحدة القومية والدولة القديمة ، الثورة الاجتماعية فى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد ، الدولة الوسطى ، ثورة الشعب على الهكسوس ، الدولة الحديثة من الأسرة الثامنة عشر الى الأسرة الثلاثين ، أوج المجد . مصر فى عصر تحوتمس الثالث اخناتون وثورته الدينية ، رمسيس الثانى وحروبه الدفاعية ، الدفاع عن كيان مصر فىعهد خلفاء رمسيس الثانى ، وتحرير مصر من الاحتلال الآشورى ، الغزو الفارسى وثورات الشعب عليه . الأسرات الملكية فى مصر القديمة ، الاسكندر الأكبر فى مصر . جلاء الفرس سنة ٣٣٢ ق.م ، البطالمة فى مصر وثورات الشعب عليهم ، مقاومة مصر للاستعمار الرومانى وعصر الشهداء ، الفتح العربى لمصر وحالة البلاد قبله .

والكتاب فى مجموعه لا يعدو الا أن يكون مدرسيا وموجزا أيضا يكتب عن الخمس محرز مصر من الهكسوس

ثلاثة سطور ! « هو ابن سقنن رع وأخو كامس • وقد خلفه فى قيـادة حرب التحرير • واستمر يحارب الهكسوس حتى قضى عليهم واسـتولى على عاصـمتهم (أواريس) • وتعقبهـم فى فلسـطين • وقضى على فلولهم فى (شاروهـين) وفـروا الى سوريا » • (ص ٧٧)

٢٢

وبعد سبعة أيام من وفاة مؤرخنا الكبير عبد الرحمن الرافعى يصدر كتاب « جمال الدين الأفغانى باعث نهضـة الشرق » فى ١٠ ديسمبر ١٩٦٦ فى سلسلة « أعلام العرب » ــ ١٨٦ صفحة من القطع الصغير •

يعرض فيه نشأة الزعيم الاسلامى الكبير ، ومجيئه لمصر وفكره ثم عمله فى أوروبا بعد نفيه من مصر ابان حكم توفيق ومقـالاته فى العروة الوثقى التى أصـدرها فى منفاه فى باريس ونشاطه فى بلاد الشرق وأوروبا وصفاته وأخلاقه وشخصيته • ويعده الرافعى ملهما للثورة العرابية بأفكاره وتعاليمه التقدمية بمقياس عصره والتى حفز بها النفوس الى الحرية والتمسـك بها • وفى ذلك يقول : « فجمال الدين هو من الوجهة الروحية والفكرية أبو الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها هم من تلاميذه أو مريديه ، وحسبك أن خطيب الثورة العرابية عبد الله نديم

كان تلميذا له . ومحمود سامى البارودى رئيس وزراء الثورة كان من أصدقائه ومريديه . والشيخ محمد عبده هو تلميذه الأكبر ، والثورة فى ذاتها هى استمرار للحركة السياسية التى كان لجمال الدين الفضل الكبير فى ظهورها فى عهد اسماعيل » .
(ط ١ ص ٤٧) .

٢٣

ويشير الرافعى فى مقدمة كتابه « الحركة القومية فى مصر القديمة حتى الفتح العربى » عن رغبته فى أن يستكمل كتاباته عن الفترة من الفتح العربى حتى قبيل الاحتلال العثمانى سنة ١٥١٧ أو بالأحرى الحقبة الأخيرة التى لم تغطها كتاباته القومية . وبدأ مؤرخ مصر الحديثة يعد مسودات هذا الكتاب ولكن لم يطل به الأجل ليعده للمطبعة ، وحقق آله من بعده رغبته ودفعوا بالمسودات لصديقه الدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور أستاذ تاريخ العصور الوسطى بكليه الآداب جامعة القاهرة ، الذى أصدره فى طبعته الأولى سنة ١٩٧٠ مقدما اسم الرافعى على اسمه ــ ٥٢٨ صفحة من القطع الكبير ــ تحت عنوان « مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى » .

وقد عالج دكتور عاشور العناصر التى خططها الرافعى

لاعداد كتابه بقوله فى المقدمة « على اننى أجد لزاما على أن اعتذر لعشاق كتابات الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ومقدرى علمه وفضله ، لما سيجدونه فى هذا الكتاب من اختلاف فى المنهج والأسلوب وطريقة العرض عما لمسوه وعهدوه فى مؤلفات الفقيد الكبير . ذلك ان لكل كاتب منهجه وأسلوبه وذوقه ، وهذه كلها نواحى تتفق وعقلية المؤلف ونفسيته وبيئته وعصره .. وخلاصة القول انه كان على أن أقدم للقارىء فى هذا المؤلف خلاصة عديد من المصادر والمراجع ، ولذا حرصت دائما خلال صفحات هذا الكتاب على أن أعطى القارىء صورة واضحة موجزة للعصر الذى أقدمت على علاجه من مختلف جوانبه الرئيسية ، دون الدخول فى التفصيلات التاريخية والحوادث الثانوية ، التى ربما تفسد عرض التاريخ فى كتاب مجمل من هذا النوع أكثر مما تخدمه » . (ط ١ ص ٧)

ولم يشأ الدكتور عاشور فى أن يحجب عن القارىء المقدمة التى كان قد أعدها الرافعى لآخر كتاباته فنشرها .

والكتاب يشتمل على ست أبواب تعددت فصول كل باب وتناولت بصورة أكاديمية ممتازة . مصر ولاية عربية ، مصر فى عهد الطولونيين ، الدولة الأخشيدية ، الدولة الفاطمية ، الدولة الأيوبية ، دولة المماليك .

٢٤

وبالاضافة الى الكتب السابقة ، فقد رغب وزير التربية والتعليم كمال الدين حسين سنة ١٩٥٨ فى أن يقدم لطلبة المدارس كتبا قومية فى متناول أيديهم ، فكلف عبد الرحمن الرافعى بتقديم هذه الطبعة المبسطة ، فكان أن ابتدأ اعتبارا من أغسطس سنة ١٩٥٨ فى تقديم سلسلة « مصر المجاهدة فى العصر الحديث » بلغت ستة كتيبات وهى :

١ ـ من عهد الحكم العثمانى المملوكى الى ثورة الشعب على الوالى التركى سنة ١٨٠٥ ـ ١٧٥ صفحة من القطع الصغير .

٢ ـ من ولاية محمد على سنة ١٨٠٥ الى نهاية حكم سعيد سنة ١٨٦٣ ـ ١٧٧ صفحة من القطع الصغير .

٣ ـ من بدء حكم اسماعيل الى مقدمات الثورة العرابية سنة ١٨٦٣ ـ ١٨٨٢ ـ ٢١٩ صفحة من القطع الصغير .

٤ ـ الثورة العرابية والاحتلال واخلاء السودان ـ ١٧٧ صفحة من القطع الصغير .

٥ ـ التراجع والانتكاس فى السنوات العشر الأول للاحتلال ومراحل البعث الوطنى الى نهاية ثورة ١٩١٩ ـ سنة ١٩٥٩ فى ٧١٢ صفحة من القطع الصغير .

٦ ــ من نهاية ثورة سنة ١٩١٩ الى بداية ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ــ سنة ١٩٥٩ فى ١٨٥ صفحة من القطع الصغير •

وقد أعادت هيئة الاستعلامات المصرية فى عامى ١٩٧٩ ، ١٩٨٠ اصــدار بعض هذه الكتب الستة فى سلسلة « دراسات قومية » تحت عنوان جديد هو « الرباعية الكبرى فى تاريخ مصر القومى » لعبد الرحمن الرافعى • وقد جاءت الطبعة الجديدة على النحو التالى :

١ ــ مصر فى مواجهة الحملة الفرنسية ــ ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط ــ الذى حمل فى الطبعة السابقة اسم » من عهد الحكم العثمانى المملوكى الى ثورة الشعب على الوالى التركى سنة ١٨٠٥ » •

٢ ــ مصر والثورة العرابيــة ــ ٢٣٢ صفحة من القطع المتوسط ــ وحمل قبلا عنوان « الثورة العرابية والاحتــلال واخلاء السودان » •

٣ ــ مصر البعث الوطنى ــ ١٧٦ صفحــة من القطــع المتوسط ــ وهو بذاته « التراجع والانتكاس فى السنوات العشر الأولى للاحتلال ومراحل البعث الوطنى الى نهاية ثورة ١٩١٩ »•

٤ ــ مصر بين ثورة ١٩١٩ وثورة يولية ١٩٥٢ ــ ٢٠٨ صفحة من القطع المتوسط ــ وسبق أن حمل عنوان « من نهاية ثورة سنة ١٩١٩ الى بداية ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ » •

المراجـــع

١ ـ **اسـماعيل صـدقى** : مـذكراتى ط ١ ص ١١٩ .

٢ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : مـذكراتى ط ١ ص ٧١ .

٣ ـ **محمـد فريـد** : مذكراتى بعد الهجرة (١٩٠٤ ـ ١٩١٩) ط ١ ص ٥٧ .

٤ ـ **أحمـد شـفيق** : مـذكراتى فى نصف قـرن ج ٣ ط ١ ص ٣٣ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ٧٢ .

٥ ـ **محمـد صـبيح** : كفاح شعب مصر ط ٢ ص ١٢ .

٦ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : الثورة العرابية ط ١ ص ٥١٧ .

٧ ـ **عبد الرحمن الرافعى** : احمد عرابى ط ٣ ص ٢١٦ .

٨ ـ **دكتور وحيد رأفت** : فصـول من ثورة ٢٣ يوليو ط ١ ص ١٩٠ .

شخصيات فى حوار

كان عبد الرحمن الرافعى واحد من أعلام مؤرخينا الكبار الذين ساهموا باخلاص فى كتابة تاريخنا فى مختلف العصور .. مشاركا فى المسيرة التى سبقه اليها ابن اياس والمقريزى وابن أبى السرور البكرى وعبد الرحمن الجبرتى وعلى مبارك وأحمد شفيق وغيرهم . وكانت عظمة الرافعى انه تصدى لهذه المهمة المقدسة فى وقت كان المسرح يخلو تماما من مؤرخ مصرى صميم ! ونلتقى فى عدة لقاءات شخصية مع بعض أصحابه ومعاصريه .

مصطفى امين

يقول الأستاذ مصطفى أمين :

« صلتى قديمة جدا بعبد الرحمن الرافعى منذ كنت طفلا .

نسكن فى دمياط فقد كان شريكا لوالدى فى مكتبى المحاماة اللذين انشأهما معا فى دمياط والمنصورة ! وكانت لافتة كل من المكتبين ، تحمل الأسمين عبد الرحمن الرافعى ومحمد أمين يوسف • واستمرت شركتهما حتى عودة أبى الى القاهرة ، ومن هنا كنت اشاهد الرافعى فى بيتنا كثيرا عندما يجىء من المنصورة ويزور دمياط •

ومما أذكره أن سعد زغلول عرف عبد الرحمن الرافعى وشقيقه أمين الرافعى الصحفى المشهور ، عن طريق أبى • وكان والدى متحمسا جدا للاخوين ويؤمن بوطنيتهما ايمانا كبيرا واجدا فيهما عنصرين ممتازين للعمل مع سعد زغلول • وقد كان •• ولذلك عندما رشح زعيم ثورة ١٩١٩ نفسه لانتخابات الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ عن دائرتى السيدة زينب وبولاق معا ، ساعده الاخوان مساعدة عظيمة وانضم اليهما فى ذلك شباب الحزب الوطنى نفسه ! ومن الطريف أن والدى كان عضوا مع الأخوين فى الحزب الوطنى !

وكان بين سعد والأخوين صداقة قوية جدا واتى حين من الدهر ، كان لسعد توجيه كبير للكتابات التى يسطرها أمين الرافعى • وعند تأليف الوفد المصرى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ — لحضور مؤتمر الصلح فى باريس بعد انتهاء الحرب الأولى للمطالبة بتقرير مصير مصر — رشح أبى الشقيقين عنصرين فى

الوفـد • ورحب سـعد زغلول بهـذا الترشيح ، كمـا رحب عبد الرحمن الرافعى وشقيقه أمين كل الترحيب بالانضـمام ، على أن يحصلا على موافقة حزبهما • ولكن اللجنة الاداريـة للحزب الوطنى رفضت ! وأبلغ الاخوان سعدا بهذه النتيجة • وان أبديا استعدادهما للعمل تحت امرته ، وهـكذا اختـار سعد زغلول أمين الرافعى سكرتيرا للجنة المركزية للوفد كما اختار عبد الرحمن الرافعى عضـوا بالمجلس الأعلى للعمليات السرية • وكان كل من الاختيارين بلا شك أعظم وأخطر من عضوية الوفد التى رغب فيها الاخوان •

« ثم حدث خلاف بين سعد زغلول وعبد الرحمن الرافعى الذى يرجع الى أكثر من عامل • أولها تمسـك الرافعى بآراء الحزب الوطنى ، ولذلك فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٣ أراد أبى اقناع سعد بترشيح عبد الرحمن كوفدى أو يترك له دائرة مركز المنصـورة ، ولكن الزعيم رفض الاقتراحين • ويرشح عبد الرحمن الرافعى نفسه ، ضد على عبد الرازق أحد أغنياء المنصـورة ومرشح الوفـد ، وبالرغم من ان أبى كان مرشحا عن الوفد فى دائرة كفر صقر الا أنه وجد من واجبـه أن يساعد صديقه الرافعى لاعتقاده بأهمية وجوده فى الحيـاة البرلمـانية ، وكان سعد يثور على أبى الوفدى الذى يؤيد مرشحا للحزب الوطنى على حساب مرشح الوفد ! على آية حال

ينجح الرافعى فى هـذه الانتخابات بزيادة صوت واحد على منافسـه !

« وأحد أسباب الخلاف بين سعد والرافعى أيضا ، كان أحمد عرابى ، لأن رأى عبد الرحمن طبقا لرأى الحزب الوطنى انه .. خائن ! ولمـا كان سعد زغلول يعتبر نفسه ممثلا للشبان فى الثورة العرابية التى سجن من أجلها ، فقد آلمـه أن يتهم زعيمه بالخيانة . ودارت بين الاثنين مناقشات طويلة فى هـذا الشأن ، ومن الغريب أن الطبعـة الأولى من كتـاب « الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » للرافعى حملت هجوما عنيفـا جدا من صاحبه على عرابى ، ولكن الطبعة التى ظهرت قبل وفاته عن « الزعيم الثائر أحمد عرابى » خفف فيها صاحبها هـذا الهجوم .

وترجع مهاجمة الرافعى للوفد الى ما أصابه من جرح منه ، فهو أحد رجال ثورة سنة ١٩١٩ ومع ذلك لم يذكر له أحد دوره فيهـا .. فكان متألمـا للأمر جدا . وفى جلساتنا الكثيرة شعرت باحاسيسه . والحقيقة أنه لم يستطع أن يغفر محـاربة سعد له فى انتخابات مجلس النواب سنة ١٩٢٦ ـ وكان ذلك ردا على ما أثاره الرافعى عضو مجلس نواب ١٩٢٤ من معارضة شديدة ضد حكومة سعد زغلول ، رآها الزعيم اضعافا للقوى الوطنية والاحتلال جاثم على البلاد ـ فسعد زغلول كان يرى

بوصفه قائدا للثورة أن الثورة لا تحتمل الخلافات بين صفوفها وعلى الجميع أن يمشوا صفا واحدا حتى تحصل البلاد على الاستقلال .. ان الخلاف هنا بين عبد الرحمن وسعد هو خلاف بين رجل يريد أن يستقل رأيه ، وزعيم ثورة يجد انها تفرض على كل من فيها أن يترك رأيه الشخصي ويحترم رأى الأغلبية .

« وبالمصادفة اكتشفت ان سعد زغلول كان محتفظا بين أوراقه بتلغراف واحد — وهذه ليست عادته — من عبد الرحمن الرافعى أرسله اليه أثناء وجود الزعيم فى جبل طارق أو بعد الافراج عنه يقول فيه « أنا منضوى تحت لواءك وأنا معك وانى أؤيدك » ولست أدرى ما هو قصد سعد فى الاحتفاظ بهذا التلغراف الوحيد .

ويختتم مصطفى أمين حديثه قائلا .. ولى رأى فى عبد الرحمن الرافعى كمؤرخ ، انه لم يكن كذلك بل كان رجل حزب وطنى يكتب التاريخ برأيه الحزبى كما أنه اعتمد على الصحف ولم يعتمد على ما يعرفه هو . وفقد بذلك دلالة الكثير من الأحداث الهامة التى لم تنشر أما لأن الرقيب شطبها أو لأن الصحفى نفسه لم يجرؤ على نشرها . وهكذا لم يأت تاريخه محايدا أو دقيقا كما يجب مع أن الرافعى رجل مخلص ومؤمن .

« ولما كان عبد الرحمن الرافعي ليس رجلا سياسيا ، فهو لم يقو على كتمان عواطفه أبدا كان يقول ما يؤمن به عندما كان يغضب يزيد احمرار وجهه وهو أحمر من الأصل .

« وأصدقاؤه جميعهم من رجال الحزب الوطنى وكذلك الشعراء . وكان يكره مكرم عبيد وينتقد الوفد طالما آن مكرم بالحزب ! ولما خرج منه أصبح يعطف على الوفد ولا أعرف السبب !

فكرى أباظة

حدثنى الأستاذ فكرى أباظة قائلا :

« ذكرياتى عن الرجل العظيم عبد الرحمن الرافعي ذكريات طويلة ألخصها بقدر فيه عناء ، تخرجت من مدرسة الحقوق سنة ١٩١٧ ، وكنت أعرف عنه انه من رجال الحزب الوطنى الكبار وعاصر مصطفى كامل ومحمد فريد وتحمل مسئوليات كبيرة فى الحزب .. فأحببته . وعندما دخلت اللجنة الادارية للحزب سنة ١٩٢٣ وجدته الرجل الثالث بعد حافظ رمضان رئيس الحزب ومحمد زكى على سكرتير الحزب . وكنت معجبا به كمحام حيث ابتدأ عمله فى الزقازيق والمنصورة وكان من كبار المحامين بهما . كما كان شخصية لامعة فى المحاكم الأهلية والمختلطة ، وعرف بصوته الهادىء ذى الرنين الجميل ، وانه

فى غاية الدقة والأمانة فى سرد الوقائع وفى الاستناد الى الكتب الفقهية الفرنسية وغيرها • وما من قضية وطنية كبيرة تنظرها المحاكم الا ونجده مرافعا فيها ، وعندما اختلفنا فى الحزب حول فكرة دخول حافظ رمضان الوزارة سنة ١٩٣٧ وانقسمنا فريقين، انضمت الى معسكر الرافعى •

« وحدث ان قتل أحمد ماهر ــ رئيس الوزراء فى سنة ١٩٤٥ ــ عقب استجواب تكلمت فيه فى مجلس النواب ضد الحكومة عندما كان فى طريقه الى مجلس الشيوخ • وظهر أن قاتله هو محمود العيسوى المحامى بمكتب الرافعى • وقد حدث أمرا مستغربا أثناء انعقاد لجنة ادارة الحزب صباح ذات اليوم برئاسة عبد الرحمن الرافعى ، وهو دخول العيسوى علينا وهو فى غاية التهيج ودهشنا كل الدهشة حين تكلم فى موضوع كيف تدخل مصر الحرب مع الحلفاء فأفهمناه ان هذا الرأى يبديه أحمد ماهر وهو رأى له أنصار وله منطق ولم نفهم أبدا أو نتصور أو نتنبأ بأنه سيرتكب جريمته فى الطريق الفرعونى بين مجلس النواب والشيوخ ! وبعد ذلك ساء موقفنا جدا كأفراد حزب وطنى بالنسبة لأن هذا الشاب كان منتسبا لمكتب الرافعى بالذات ، بالرغم من انه لم تتسرب أية فكرة بأن الحزب ضالع فى هذه المسألة الخطيرة •

« وقد استطاع عبد الرحمن أن يحرر ويبحث ويصدر

سلسلة مجلداته القومية للتاريخ المصرى من زمن بعيد من أيـام الفراعنة الى الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ وكان مدهشا ، ولكن الأدهش من هـذا انك لا تجده يسطر رأيه ، ونجده يشير الى المراجع الانجليزية والألمـانية المترجمة فكانت وثائق مستندات لا يصل اليها الشك ، وهـذه قدرة عجيبة جدا وجهد بشرى لم أشهد له مثيل • وقد كانت لى مع الرافعى معاملات شخصية ، فهو رجل أمين وصديق للجميع » •

محمد ابراهيم جمعـة

ويتحدث محمد ابراهيم جمعة عن ذكرياته مع الرافعى قرابة الثلاثين عاما ، منذ عرفـه بالمنصـورة حتى وفـاته • ويقول : « ان أهم شىء فى حياة الرافعى هما الاستقامة وتنظيم الوقت ، فهو يقرأ القرآن قبل الفجر وعقب الصلاة يبدأ فى كتاباته حتى تبزغ الشمس • وفى السابعة يتناول افطاره ثم يذهب الى مكتبه سيرا على الأقدام من الدقى لشارع عدلى ، ثم يذهب الى المحاكم وان لم يكن لديه مرافعـات نجده يطـالع الصحف والمجـلات ويحتفظ بها للاستفادة بها فى كتاباته ولا يجلد كتابا قبل قراءته • وبعد ذلك يعد مذكرات قضاياه • وفى الحادية عشر ظهرا يطوف فى الأماكن المجاورة لمكتبه ويلتقى بأصدقائه فى قهوة سفنكس ويتناول بها القهوة أو الكوكاكولا • وبعدها يعود لمكتبـه ، ولا يبرحه الا فى الثانية الى منزله • وعقب تناول غذائه ينام حتى

الخامسة ويصحو للمطالعة • وكان يجيد من اللغات الفرنسية ويهبط مكتبه بسيارته ويعود لمنزله قبل العاشرة حيث لا يسهر بعدها » •

« وقد سهل له أصدقاؤه بدار الكتب بالقاهــرة امداده بكافة المراجع ولا سيما فى الفترة التى كان فيها منصور فهمى رئيسا للدار • وكان محمود العمرى رئيس قسم الترجمــة بدار الكتب ، زميل الأديب الكبير والمترجم الشهير محمد السباعى فى مكتب واحد للترجمة وقد ترجمـا لعبد الرحمن كل ما طلبه فى ذلك الحين من الانجليزية للعربية • وبالرغم من اصابة الرافعى بالشلل بيده اليسرى الا أنه لم ينقطع عن الهبوط الى مكتبــه بالدور الأول بفيلته بمساعدة ابنته الكبرى للاطــلاع والكتابة وقد كان يشكو فى الفترة الأخيرة من برودة الليل •

أما كيف يقضى الرافعى أوقات فراغه : « ففى أيام الجمع والعطلات كان يقضيها فى عدة أماكن ، اما أن يصطحبنى مع محمود سويلم العمرى ونذهب صباحا بالقطار الى حلوان ونلتقى بأصدقائه فى الحديقة اليابانية أو نزور صديقــه شميس حيث يلعب الطولة ونعود بعد صــلاة الجمعة • وفى الأيام الأخرى كنت أذهب معه صباحا الى قهوة تريومف بمصر الجديدة • ولم يقتصر برنامج الرافعى فى فراغه على الزيارات بل كان يتصــل

بى تليفونيا لنشاهد بعض الأفلام التاريخيــة فى سينما ريڤولى أو مترو بعد أن يكون قد حجزلنا سويا •

« وكان عبد الرحمن يصطاف ابان عمله بالمنصورة بمصيف رأس البر وكنت ألقاه عندما أكون بالمعسكرات المقامة هنــاك ، فى الساعة الحادية عشرة صباحا ونسير طويلا على الشاطىء ، وعندما انتقل مع أسرته للقاهرة سنة ١٩٣٢ اتخذ من الاسكندرية مصيفا جديدا وكان يستضيفنى أسبوعا قبل أن تصــل عائلته وعقب افطارنا ننزل للشاطىء وبعد سيرنا الطويل يعكف على قهوة بترو ليلتقى بأصــدقائه مصطفى فهمى وتوفيق الحــكيم ومحمود الدسوقى وآخرين •

ويختتم محمد جمعة حديثه بقوله : ان الرافعى كثيرا ما كان يتساءل هل سيأتى من يكتب عنى ؟ !! » •

الدكتور مصطفى الحناوى

ويقول الدكتور مصطفى الحناوى المحامى ورجل الأعمال :

« كنت طالبا بكلية الحقوق ، عندما التقيت بعبد الرحمن الرافعى بمكتب داود بركات رئيس تحرير جريدة الأهرام وقد سعيت اليه لنشر مقالة عن مصطفى كامل فى ذكرى مرور ربع قرن على وفــاته • ومن يومهــا بدأت صــداقتنا • وعقب تخرجى

سنة ١٩٣٩ عملت بمكتبه محاميا تحت التمرين لمدة عام ، كنت أباشر خلالها قضايا بنك التسليف وكنت عقب اعدادى لمذكراتى أعرضها عليه لمراجعتها ثم أدفعها لكتابتها على الآلة الكاتبة .

« وقد زاملنى بمكتبه مجموعة كبيرة من المحامين تحت التمرين منهم مصطفى المنزلاوى وزهير جرانة وآخرين ، وكان الرافعى يباشر قضاياه بنفسه ويعد مذكراتها دون الاستعانة بأحد . وعندما افتتحت مكتبا مستقلا كنت أطلب منه الاشتراك معى فى القضايا ، وكان شديد الايمان بالله » .

الدكتور عبد العزيز الشناوى

ويقول الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى أستاذ ورئيس قسم التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الدراسات الاسلامية بجامعة الأزهر فرع البنات بالقاهرة :

« لقد ابتعد عبد الرحمن الرافعى عن الصغائر وارخ لمصر الحديثة وكتب كثيرا وكتبه معروفه فى كل أنحاء العالم العربى، وهاجم كل الأحزاب وعلى رأسها الوفد ، واشاد بالحزب الوطنى ووظيفته كمؤرخ تلزمه أن يكون محايدا ، وقد عارض الملك فؤاد والملك فاروق وكتاباته قبل الثورة كانت صريحة مهاجمة . أما كتاباته بعد الثورة فكانت مستكينة وممالئة . لأنه فى كتابته عن الثورة غير منهجه القديم وليته لم ينشرها . وهو لا يعد

مؤرخا ، لأنه اعتمد على سرد الحوادث أو نقل الأحداث ويمكن ان نعتبره فقط جامع أحـداث •• ويأخذ عليه عداؤه للوفـد بلا مبرر » •

مصـطفى المنزلاوى

وأسأل مصطفى المنزلاوى المحامى عما اذا كانت مرافعته فى قضية الحزب الوطنى الجديد التى رفعها عبد الرحمن الرافعى ضـد فتحى رضـوان قد أثرت فى علاقتهمـا الشخصـية ؟ اجـاب : « بعد أن حلت الثورة الأحـزاب سـنة ١٩٥٣ وبعد فترة لا تزيـد على سـنة ، رأيت أنـه من الواجب أن أزور أستاذى فذهبت اليه مع صديقى محمد ابراهيم جمعة • وقلت له أن القضية أمرها قد انتهى وهـذا اختلاف فى وجهات النظر وأنـا أكن لك كل تقدير واحترام ولا أنسى الأيام الجميلة التى قضيتها فى مكتبك حيث تعلمت من المحاماة الشىء الكثير على يديك •

« وعبد الرحمن الرافعى شأنه شأن غيره من السياسيين ، ترك السياسة بعد قرار ١٦ يناير سنة ١٠٥٣ بحل الأحزاب • ولكن لم يفته هو وزملاؤه أن يكتبوا بيانا يعارضون فيه اتفاقية السودان الموقعة فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ التى جعلت للسودان حق تقرير المصير اما الاستقلال واما الوحدة مع مصر • وكان رأيهم انه

لا يجوز أن يقرر السودان مصيره لأن شأنه شأن محافظة أسيوط
ومحافظة الغربية • فهل يجوز أن نقول لمحافظة أسيوط قررى
حق الانفصال أو الوحدة ، فاعترضوا فى البيان على الاتفاقية
لاثباتها من الناحية التاريخية ، ولما كان عدد من أعضاء
الحزب الوطنى الجديد بالوزارة فلم يسمح باصدار هذا
البيان • وان كنت أنا ضد هذه الاتفاقية •

« وكنا اذا التقينا عادة ، فحديثنا فى مسائل تاريخية
أو اجتماعية ، وكان الحديث عن الحالة السياسية اليومية هو أقل
الحديث ! لأن النفوس أصبحت وقتها فى ضيق ولا نجد ما نقوله
لأن النشر فى الصحف محجوب كما منع عقد الاجتماعات
السياسية » •

حلمى شاهين

والقضية التى يرويها حلمى شاهين تعكس ما كان يحمل
مؤرخنا الكبير من مبادىء • يقول : « كان عبد الرحمن الرافعى
يتولى قضايا البرنس محمد على توفيق ولى العهد ، وقد وزع
الأخير يوما على جميع موظفيه قطع أرض بسيدى بشر
بالاسكندرية وخصص لعبد الرحمن قطعة وقدم من حمل العقد
للرافعى لتوقيعه وفرحت لأنه سيكون لنا قطعة أرض بالاسكندرية
نقيم عليها عشة وشروط البيع دفع خمسين جنيها مقدما وبقية

الثمن سيصدر به فرمانا باعفاء الجميع من الســداد • ولكن الرافعى رفض التوقيع وكان الثانى بعد سعيد لطفى السكرتير الخاص للأمير ، وعندما سألته عن سبب رفضــه قال : « ازاى يا أستاذ نقبل حاجة زى كده نأخذ أرض علشان يقولون الناس ان عبد الرحمن الرافعى اللى بيهاجم أسرة محمد على الحاكمة ، يأخذ من حفيدها أرض شبه هدية ! » •

فى مرآة معاصريه

حظ المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى دراسة أعماله وتكريم ذكراه ، حظ الكثير من نابغينا .. التجاهل ان لم يكن الجهل أيضا بنواحى عظمتهم . وهكذا بينما توفر المؤرخ الكبير لأكثر من خمسين سنة على كتابة تاريخ مصر القومى ، حتى بلغت مؤلفاته ثلاثة وعشرين كتابا تتناول الفترة من العصر الفرعونى الى السنوات السبع الأولى من ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ .. لم يحظ الرجل العظيم بكتاب واحد يعرض لشخصيته العصامية ومنهجه وأسلوبه وما قدم من عشرات الآلاف من الصفحات . ويكون كل الذى كتب عنه مقالات متفرقة ، أغلبها سريع لا يتعمق حياة وتاريخ عبد الرحمن الرافعى .

وفى السطور التالية بعض ما قيل عن الرافعى عند وفاته .

يقول محمد زكى عبد القادر :

« كثيرا ما تساءلت ماذا كان يكون تاريخ مصر الحديثة لو لم يكن عبد الرحمن الرافعى ، ولم تكن كتبه التى سجلت هذه الحقيقة بأمانة وافاضة وشمول ؟ وصحيح انه ـ رحمه الله ـ جرى على تسجيل الوقائع المادية وقصرها على الجانب السياسى دون أن تشمل دراسته النواحى الاجتماعية والاقتصادية ، ولم يعمد الى التحليل الا فى مواضيع قليلة ، ووسم تحليله فى بعض الأحيان بميوله وأحكامه الشخصية ، فانه مع ذلك قام بعمل وطنى جليل ، وقام بخدمة كبرى للتاريخ عامة ولتاريخ وطنه خاصة .

واقتضاه هذا العمل دأبا وبحثا ووقتا وموازنة واستخلاصا للحقائق .. وليس أشق من مهمة المؤرخ يسجل حوادث عاشها وكان طرفا فيها ، وغبار المعارك والمواقع أمام عينيه ، الا أن المرحوم عبد الرحمن الرافعى استطاع وسط هذه الظروف جميعا أن يقدم كتبا جديرة بالاحترام وسردا للحوادث يشعر القارىء له بأمانة الكاتب وحرصه الشديد على تحرى الحق ، جهد ما يستطيع انسان أن يفعل .

« لقد تساءلت فى أول هذه الكلمة ماذا يكون تاريخ مصر الحديثة لو لم يكن عبد الرحمن الرافعى ؟ واجيب هنا أنه كفاه فخرا ان لم شتاته وجمع أطرافه وصاغه فى كتب تعطى من يأتون بعده من المؤرخين مادة صالحة جدا لدراسة أعم وأشمل ،

فله فضل الرائد الذى مهد الطريق وفتت الصخر واضاء الكثير من الظلمات ، وتحمل العنت والاضطهاد وهو بعض الثمن الذى يدفعه المؤرخ الصادق ، حينما يكتب عن جيل عاشه .

« ولقد أفدت من كتب عبد الرحمن الرافعى ، كما أفاد غيرى منها وكما يفيد كل جيل قادم ، فله فى أعناقنا جميعا فضل لا يقدر ومكانة من الاحترام عالية . أجزل الله ثوابه وعزى فى فقده الوطن وأجياله » .

(الأخبار — ٥ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب الدكتور حسين فوزى : « عاش الأستاذ الرافعى حياة خصبة منتجة ، حافلة بالنضال الوطنى والذهنى فأسهم فى الحياة السياسية بدور مشرق ، كما كتب موسوعته التاريخية الكبرى فى ستة عشر جزءاً ، فكانت المرجع الأول لدراسة تاريخنا الحديث ، ونقطة الانطلاق لدراسات المتخصصين والباحثين .

« كان للأستاذ الرافعى منهجه فى دراسة التاريخ ، وهو منهج يقوم جمع التفصيلات والاهتمام بالنواحى الفكرية والاجتماعية الى جانب الاهتمام بالأحداث ، والتعليق على الأشخاص والمواقف من وجهة نظر منصفة سديدة » .

(الأهرام — ٩ ديسمبر ١٩٦٦)

ويقول الدكتور حسين فوزى النجار : « احياء المـآثر التاريخية من تاريخ الوطن ، أو ما يثير الطموح فى الأمة المصرية من تاريخ الأمم الأخـرى ، كان بعض ما قامت به مدرسـة مصطفى كامل لاثاره الوعى القومى فى الأمة ، وآمن الرافعى بهذا الاتجـاه •

« أقدم عبد الرحمن الرافعى على ما لم يقدم عليه المؤرخون المدرسيون ممن احترفوا تدريس التاريخ فى الجامعـة وفى غير الجامعة ، فحين قصرت جهود هؤلاء على المحاضرات الجامعيـة حمل وحده الجهد •

« وقد نجد الرافعى متأثرا الى حد ما بالنظرة الاخلاقيـة للتاريخ ، وهى النظرة التى سادت فى القرن التاسع عشر ممثلة للقيم الاخلاقية للمذهب الفردى ، الا أن الرافعى لا يتصـدى للتاريخ كفيصـل بين القيم الاخلاقيـة بل يتخذه أحيانا منبرا للوعد والارشاد » •

(الفكر المعاصر — ١ فبراير ١٩٦٧)

ويقول أحمد بهاء الدين :

« عاش الرافعى فترة حافلة وفاصلة فى حياة مصر ، وشـهد تحولا هائلا فى تاريخها ، فقد ولد بعد الاحتلال الانجليزى لمصر بقليل • وشب على مشاهد خيانة الحكم الملكى وبطانتـه بعد

هزيمة الثورة العرابية • ثم عاش وسجل انتفاضات مصطفى كامل ومحمد فريد ، كما عاش وسجل ثورتين : ثورة ١٩١٩ التى خاض أحداثها وساهم فيها ، ثم ثورة ١٩٥٢ التى سجل أحداثها وان كان قد تقدمت به السن وعزلته عن مجرى الأحداث •

« لقد اشتغل المرحوم الرافعى بالحزبية والمحاماة • والثورة والوزارة • وقد عرف السجن والانتخابات والنجاح والفشل • ولكنه سوف يذكر فى التاريخ بشىء واحد عظيم هو هذه الأجزاء الستة عشر لكتاب « تاريخ الحركة القومية » •

« كذلك لم تكن مهمة عبد الرحمن الرافعى سهلة • كانت هناك صحف ، وتعليم وحياة أكثر تحضرا ، وكان كتابه أقرب الى مناهج كتابة التاريخ العصرية ، ومع ذلك فقد واجه فى تأليفه صعوبات هائلة •• خمس سنوات من هذا الجهد الهائل ، حتى استطاع أن يكتب لنا جزءين من الستة عشر جزءا عن ثورة ١٩١٩ هكذا ، كان عبد الرحمن الرافعى يعمل ، بجهد مؤسسة نشر كاملة ، لكى يدون لنا تاريخه العظيم •

« ولا أعرف بالضبط ماذا يا ترى يكون وقع كتاب مثل كتاب الرافعى على شاب عمره خمس عشرة سنة مثلا يقرؤه لأول مرة اليوم • قد يستطيع أن ينظر الى الكتاب نظرة ناقدة ، لأنه قد يرى فيه أشياء كثيرة عادية • ولكن هذا لم يكن

شعوري وشعور غيرى عندما كنا فى سن الخامسة عشرة ، قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ .

« كثيرا ما كان كتاب الرافعى هذا واحة فى صحراء النفاق الهائلة التى كانت سائدة . فهو الوثيقة الوحيدة المتكاملة التى كانت لدينا ، تدين الملكية بالخيانة والتبعية للانجليز ، وتحمى ثقتنا بأنفسنا وبشعبنا وبقدرته على المقاومة والانتصار .

« فالأجزاء التى كتبها فى سنوات الشباب « اسخن » من الأجزاء التى كتبها فى سنوات الشيخوخة » .

« ولا أريد أن افتعل وجود شبه بين الرافعى والجبرتى .. ولكن الرافعى ، بعد مائة وخمسين سنة من الجبرتى ، كان مثله لا يأخذ بفلسفة معينة أو مدرسة معينة فى كتابة التاريخ . وهو مثله فى أنه يؤرخ للوطنية المصرية دون نظر لأى تحليل اجتماعى. وهو مثله فى انه لم يعط أثر الطقس العالمى والأحداث العالمية على الأحداث المحلية نصيبها الحقيقى . وقد انتهى من كتبه الى عبرة عن علة البلاد ، هى فى الواقع أمر شخصى غير موضوعى .. اذ لخص الداء فى انعدام ما سماه « بالاستقامة السياسية » بين رجال الحكم والسياسة فى مصر .. قال هذا وركز عليه وهو يحلل التفسخ العام فى سنوات ما قبل الثورة مباشرة ، واضعا فى المؤخرة ما كان يجب أن يوضع فى المقدمة

من ظروف موضوعية وتحليل اجتماعى ، هو العلة الحقيقية ، لا « الاخلاقية الشخصية » التى ركز عليها .

« واذا كان الرافعى رحمه الله قد أخذ بالمنهج الأخلاقى فى تفسير التاريخ ، فقد أخذ بالمنهج الأخلاقى فى حياته أيضا . فقد كان على الدوام ، وسط تيارات السياسة المحملة بشتى أنواع العشب السام ، جزيرة من الصفاء والنقاء والأمانة . مؤمنا فى قرارة نفسه بأن شيئا واحدا يجب أن يتم قبل أن يمكن عمل أى شىء وهو : الجلاء .. جلاء الانجليز ..

« ولا أعرف اذا كان عبد الرحمن الرافعى قد ترك أوراقا خاصة ، ومسودات ، غير ما استخلصه وسجله فى كتبه المنشورة أم لا . ولكننى أعتقد أن كل ما كتبه الرافعى ولم ينشره لابد أن يكون محل دراسة . فحتى الوقائع اليومية البسيطة يمكن أن تكون مادة لفهم الجو الاجتماعى والعقلى والنفسى العام فى الحقبة التى اكتفى بأن يؤرخ لها سياسيا .

« وقد كتب الرافعى منذ سنوات ، معبرا عن شعور دفين بالأسى وعدم عرفان من الناس بفضله ، ولكن نفسه رضيت حين كرمته الدولة بجائزتها التقديرية منذ سنوات . ورضيت نفسه رضاء أكبر حين رأى أحلام الجلاء والاستقلال الوطنى تتحقق بعد أن ظل يكتب من أجلها ما يقرب من نصف قرن » .

(المصور — ٩ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب أنيس منصور :

« رأيت عبد الرحمن الرافعى لأول مرة فى حياتى فى الصيف الماضى . ذهبت وفى نيتى أن اترافع أمامه عن قضية : وهى أن يظهر فى التليفزيون رغم مرضه . لكى يراه الناس فى صورة حية واضحة . وقد أعفانى المحامى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى من المرافعة . لأنه موافق . أما أقاربه فقد اعترضوا خوفا على صحته . ثم اقنعوا وظهر فى التليفزيون . وقد ظن الكثيرون انه مريض جدا ، وانه عاجز عن الكلام . وخيل الى بعض الناس أنه كان قد مات .

« وجلست الى عبد الرحمن الرافعى ساعات طويلة أتحدث اليه . أما هو فكان يخطب . كلامه كله ما يزال يحتفظ بلهجة الرجل الذى يخطب أو الذى ينفعل أثناء الكلام . ولم يكن واضحا على وجهه شىء مما يقول . فصوته نحيف ووجهه شديد الاحمرار وابتسامته حلوة صافية . وتحس لأول لحظة ان هذا الرجل : هو أبوك أو جدك . أو تربطه بك صلة قوية جدا وتتحول بسرعة الى أحد أقاربه . وتخاف عليه أن ينتقل من هذا المقعد الى السيارة الى التليفزيون وتمنيت أن اتراجع عن موقفى واقنعه هو بالعدول عن الذهاب الى التليفزيون .. وان يجىء اليه التليفزيون كما فعل مع العقاد وطه حسين . ولكنه كان أكثر حماسه وأكثر حرصا على أن يذهب وان يتحدث وان يخطب وان

يضحك . فهو رجل عاش طول عمره فى زحام الناس وضوضاء التاريخ . وأطال الاستماع فى صبر وفهم وعبر فى عشرين كتابا هى مراجعنا الأولى فى دراسة التاريخ المصرى الحديث .

« ففى كتب عبد الرحمن الرافعى قرأنا جميعا تاريخنا .. وبعينه نظرنا جميعا الى ماضينا القريب .

« وكانت لعبد الرحمن الرافعى طريقة خاصة فى كتابة التاريخ . هى طريقته هو . وأسلوبه هو . فهو يعتمد على الوثائق التاريخية فى الدرجة الأولى ، ويعتمد على المنهج الاخلاقى فى تفسير التاريخ وهو لاشك رجل مثالى . يريد أن يرى كل شىء جميلا صادقا مخلصا . ويضيق بكل ما هو قبيح زائف شائن .

« وفى حياته الخاصة كان رجل اخلاق . وعندما كنت اداعبه واسأله : ما رأيك فى الحب ؟ كان يتعجب ويقول : كلام فارغ ! وعندما استطرد فى المداعبة واسأله : وكيف تزوجت ؟ كان يرد بقسوة أب على تلميذ شقى فيقول : مش ضرورى حب . يكفى أن تكون الزوجة واعية ووطنية .

« وهو ولاشك يختلف فى أسلوبه عن زميله المؤرخ الكبير توينبى الذى ولد معه فى نفس السنة . فتوينبى يرى ان الدين أو الايمان بشىء قوى هو الأساس الحقيقى لكل حركات التاريخ المتدفقة والمترددة والمضادة .

« وعندما قابلت عبد الرحمن الرافعى وجدتـه يقول نفس العبـارة التى قالها لى الأديب سومرست موم : لم يعد عندى شىء : قلت كل ما أستطيع . والبركة فيكم أنتم !

« لقد عرف عبد الرحمن الرافعى متى يتوقف عن الكلام . والذى قـاله لنا قبـل ذلك كان كثيرا ومشرقـا وصادقـا .. يرحمه الله » .

(الأخبار ـ ٥ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى :

« فقدت مصر أحد أعلام الوطنية وأحد التلاميذ المخلصين للزعيمين الكبيرين مصطفى كامل ومحمد فريد . عنهما أشرب حب مصر والتفانى فى سبيل استقلالها ورفعتها ، وعنهما تلقن أهمية التاريخ بالنسبة الى الحركات الوطنية والقومية ، ومنهما استمد وحيه والهامه ، ولذكراهما ظل وفيا حتى آخر انسام حياته : هـذا الحب الكبير لمصر ، وهـذا الوفـاء لذكرى أسـتاذيه وزعيميه ، هما اللذان الهما عبد الرحمن الرافعى وزوداه بالطاقة الدافعة التى مكنته من تغطيـة تاريخ مصر الحـديث وكذلك تاريخها المعاصر من زاوية نضالها فى سبيل الحرية والاستقلال والتقدم .

« فقد جعل شغله الشاغل أن يدرس تطور الشـعب ونمو الحركة القوميـة ، مع الاهتمـام بنواحى التاريخ السـياسى

والاقتصادى والاجتماعى ، وهو يمثل مدرسة التاريخ الوطنى المصرى التى نمت فى ابان الكفاح للحصول على الاستقلال ، وهى المدرسة التى جمعت بين النضال السياسى وبين الاهتمام بالدراسات المتصلة بالكفاح الوطنى ، فالقانون الدولى والتاريخ والاقتصاد ــ وغير ذلك ــ خاصة وان كثيرين ممن كتبوا التاريخ فى هذه الفترة قد تخرجوا فى مدرسة الحقوق الخديوية .

« ولما كان الرافعى من تلامذة الحركة الوطنية التى ركزت اهتمامها فى الحصول على الاستقلال ، فانه برغم عنايته بالنواحى الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، الا انه لا ينتمى الى المدرسة الاجتماعية فى تفسير التاريخ التى لم تعرفها مصر الا بعد أن انفتحت معالم التناقضات الاجتماعية التى كادت تفتت الحركة الوطنية من أعلى لولا يقظة الشعب .

« ومما يدل على شدته فى الاستقلال بالرأى انه لم يشأ أن يلجأ الى السراى فى جمع المادة الأولية عن عصر اسماعيل ــ فقد رأى انه اذا أحكم الصلة بينه وبين هذه الجهات وأكثر من التردد على مكتبة القصر الملكى ، صعب عليه أن يكتب عن عصر اسماعيل كتابة نزيهة ، ولكن هذا الاتجاه منه انما هو من قبيل التزمت العلمى ــ اذ لا ضير فى أن يجمع المؤلف مادته من شتى المصادر ما دام يزمع فى نهاية الأمر أن يكتب بما يرضى ضميره العلمى . واتجاه الرافعى هذا هو الذى يفسر عدم اعتماده

على الوثائق غير المطبوعة ، خاصة وانه أقنع نفسه بأن الوثائق الجديدة لايمكن أن تغير من الخطوط الرئيسية للتاريخ • وهذا بطبيعة الحال يتضمن اسرافا فى حسن الظن بالمادة التاريخية المطبوعة التى قد لا تخلو من الميول والاغراض الخاصة ، حتى وان كانت وثائق منشورة •

« ورغم أن منهج الرافعى يتصف بالأمانة والصدق والصراحة فى الحكم على أحداث التاريخ وشخصياته ـ وهى كلها أركان لا غنى عنها بالنسبة الى البحث التاريخى العلمى ـ الا أن تاريخه يتصف بالاستطراد وعدم الترابط وان يكن من ناحية أخرى من القليلين الذين حاولوا تسجيل تاريخ الشعب المصرى واطراد نموه وتقدمه على تعاقب السنين والأجيال •

« اذ ان المؤلفات الأخرى التى عاصرت موسوعته كانت تهتم اهتماما كبيرا بالحكام والانقلابات السياسية والوزارية ؛ وبالشخصيات الكبرى التى عرفها التاريخ المصرى الحديث • وهو يهتم بالشخصيات البارزة التى كثيرا ما توجه سير الأحداث ، بادئا بالفرد الصالح والقلة الموجهة ، لهذا نجده يهتم اهتماما خاصا بالمقومات الاخلاقية باعتبارها الأساس والمنبع •

« ولهذا فاننا حين ننعى عبد الرحمن الرافعى ، ونسجل أهميته البالغة بالنسبة الى تاريخ مصر الحديث ، نسجل فى نفس

الوقت حاجتنا الى مدرسة جديدة تعيد كتابة تاريخ مصر الحديث على أساس الفهم الواعى لتطور البلاد الاقتصادى والاجتماعى الذى بدونه لا يمكن فهم أحوالها السياسية أو الثقافية . فتاريخنا ليس سجلا للبطولات الفردية ، وان كان زاخرا بالبطولات التى ارتبطت ارتباطا عضـويا بتطور البلاد » .

(مجلة الهلال أول يناير ١٩٦٧)

ويقول : فتحى خليل :

« هو أقرب الناس الى شاعر الربابة .. أما سيرته التى رواها فكانت حركتنا القومية .. كل مؤرخ يقول عادة انه سيروى التاريخ بروح محايدة وموضوعية وذلك بالطبع أمر مستحيل .. ورواية تاريخنا القومى لم تخرج عن هـذه القاعدة ، أعلن عن نيته فى رواية موضوعية محـايدة ـ وخرج كما هى العادة ـ عن المنهج الذى تمناه .

« كان عبد الرحمن الرافعى رجـلا حزبيا ، وقـد تركت الحزبيـة بصماتها على صـورة السيرة التى رواها ، فقد كان شخصية مرموقة فى الحزب الوطنى وظل على رأس فرقة منه حتى صدر قرار الثورة بحل الأحزاب . وقد كتب كتابه عن الثورة العرابية تحت تأثير نظرية الحزب القديمة عن الثورة باعتبارها مأساة تسبب فى وقوعها رجل مغرور ، عسكرى ليس من رجل السياسـة .

« وقد روى الرافعى ملحمة الثورة العرابية وهو يتمنى فى كل فصل من فصولها لو كان على رأس الأحداث رجل آخر ، بل لقد بحث الرافعى فعلا عن بديل لعرابى ووجده ، شريف باشا، وتصور أن التاريخ كان يمكن أن يغير مجراه لو تغير الرجال .

« كذلك تبنى الرافعى رأى حزبه فى الحكم على ثورة ١٩١٩، ويمكن أن نعتبر روايته عن الثورة وأعقابها نقدا حزبيا مريرا للوفد .. ولكنه فى الثورتين لم يبخس الشعب حقه ، فروى التضحيات بحرارة وبكى على الشهداء بحزن عميق .

« ويمكن أن نرى ملامح الحزبية حتى روايته لأحداث السنين السبع لثورة ١٩٥٢ .. هو يعدها تحقيقا لبرنامج الحزب بلا زيادة ولا نقصان ، وحين تجاوزت الثورة أقصى أحلامه الحزبية .. عاد ليؤرخ فترة قديمة عابرة .

« وعميد رواة سيرتنا القومية ، وطنى تقليدى بكل معنى الكلمة .. يتوجس من الأجنبى الا نادرا .. ولا تتعدى أحلامه عن العدل الاجتماعى حدود الملكية الزراعية وتحديد أرباح الرأسماليين دون التعرض لأساس النظام وخاصة النظام الرأسمالى .. وهو يطمح فى حياة برلمانية نظيفة لا أغلبية وأقلية وبينهما احترام متبادل ، وفرقة تؤيد بحكمة وأخرى تعارض فى شجاعة مهذبة .

« ولو كان له الخيار فى أحداث التاريخ لتمنى أن يكون رواية لا ترد على لسانه واقعة عنف ولا تئن احشاؤه على شهيد ، هو وان كان مؤرخ الثورات الا أنه فى أعماقه لا يعشقها ويفضل عليها التدرج والتطور بما هو قائم فى جو من المناقشات الشريفة .

« ومن هنا كانت الثورات تفاجئه على غير موعد لأنها لم تكن تراود أحلامه بل تفرض نفسها عليه فيحبها على مضض وهو يرويها ، ويدور على البيوت المجهولة والسجون والدواوين ليبحث عن اسماء الشهداء والسجناء ليسجلهم واحدا واحدا فى روايته .. وهو يروى عن التضحيات بحزن وعن المنجزات العمرانية بسعادة وفرح طفولى ومن التضحيات والمنجزات ينسج السيرة ويروى فى هذين العنصرين مادة الحياة لتاريخنا الوطنى .

« وهو صاحب منهج مثالى فى روايته .. يتصور دائما ان الأحداث كان يمكن أن تتغير من جذورها لو تغير الرجال . وكان راوية سيرتنا الشعبية شجاعا » .

(روزاليوسف ــ ١٢ ديسمبر ١٩٦٦)

وينصفه طارق البشرى وهو يقول :

« لعج مؤرخا معاصرا لم يحظ بمثل ما حظى به عبد الرحمن الرافعى من تقدير واهتمام . فالرافعى استطاع بجهد متواصل ودأب نادر أن يقدم للمكتبة العربية دراسة متكاملة لتاريخ

مصر الحديث • بل لعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا انه قد قدم الدراسة الوحيدة المتكاملة حول هذا الموضوع • ومن هنا يصبح استطلاع النوازع الفكرية والسياسية للرافعى ودراسة منهجه فى دراسة التاريخ ضرورة ملحة ، ذلك أن كتاباته تمثل ــ بالرغم من كل شىء ــ أحد المحاور الأساسية التى تشكل فكرة المثقف العربى عن تاريخ مصر الحديث •

« واذا كانت أجيال الحاضر المعايش ترى فى كتابات الرافعى ــ رغم الاقتناع بنزعته الوطنية والتقدير البالغ لهذه النزعة فى جميع ما كتب ــ ترى فيها قدرا من « التبسيط » للمشاكل والتيارات ، ونظرة « محدودة الجوانب » فى تحليل الأحداث التاريخية • فان هذه الأوصاف لا تلحق فكر الرافعى وحده ، ولكنها تشير أيضا الى اختلاف الصياغة السياسية لعقلية الأجيال الحاضرة على اختلاف تياراتها ، من الصياغة المماثلة لجيل هذا المؤرخ الكبير ، وذلك نتيجة اختلاف المشاكل وتطور الأوضاع السياسية والاجتماعية • فاذا كان الفكر السياسى للرافعى ما يزال مقروءا للآن ، فتلك ميزة امتاز بها الرجل لتآليفه التاريخية ، ولكن هذه الميزة أردفت فى ركابها شيئا من سوء الحظ ، اذ نظر جمهور الحاضر الى فكره كعنصر فى الحياة السياسية المعيشة لا كفكر ينتمى الى الجيل السابق ، وتطرف كثيرون فقيموه بميزان الحاضر فطغت كفة الرجل ظلما •

« وأن من أفضل ما تثبته مدرسة التاريخ المصرى للرافعى المؤرخ ، ان مجموعتــه التاريخيــة تكاد تكون أجمع مجموعة صدرت فى عصره والى الآن تغطى حقبة التاريخ المصرى الحديث كاملة •• كما تثبت ما قدر للرافعى من أن يضــع نقطة البداية للحركة الوطنية فى العصر الحديث ، وهى المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية التى غزت مصر فى نهــاية القرن الثامن عشر • وكان تعيينه لهذه البداية تعيينا علميا ذكيا يشير الى حاسة سياســية تاريخية مرهفة • كما تثبت له انه صاغ تاريخ هــذه الفترة على مدى مائة وستين سنة صياغة وطنية تتسم بالأصالة رغم ما يظهر فيها من نواحى القصور » •

(الطليعة ـ ١ ديسمبر ١٩٧١)

ويقول أحمد صالح :

« وقد عرفت أستاذنا الرافعى من خلال ١٦ جزءا كتبها عن تاريخنا القومى •• ومن خــلال لجان كثيرة فى مجلس الفنون لمست أثناءها صلابة رأيه رغم طيبة قلبه •• واصراره فى الحق رغم بساطة حديثــه •• لقد عــاش الرافعى يبحث فى كتبه عن الحقيقة •• وكان يقول : ان الحقيقة الوحيدة فى هــذه الحياة هى الموت » •

(آخر ساعة ـ ١٤ ديسمبر ١٩٦٦)

ويكتب محرر فى « صباح الخير » عن ذكرى لقاء قــديم

بالرافعى ، قائلا قلت له لك طول العمر ، قال الرافعى صـــدقنى يا ابنى ، ان المؤرخ لا يخاف الموت ، بل ان الانسان ذا الرسالة والهدف السامى يرحب بالموت ، ان الموت هو الحقيقــة الوحيدة فى هذه الحيـــاة •• وأنـــا عشت عمرى •• لقد كنت من جيل كان يلهو ويبكى ! دعنى أقول لك ، يوم أموت ، أكتب عنى ، خذ كتبى الآن ، واقرأها •• وتأملها واستوعبها • طالع يابنى تاريخ ملوك •• قف عند كل حادثة •• استنبط منها شيئا • ما يعز على أن أبناء بلدى الشباب ، هؤلاء الذين فى عمرك •• لا يعرفون عن تاريخهم سوى اليسير ! هــذه القطرات التى شربتها بمرارة من مدرس التاريخ • آه من مــدرس التاريخ ! أرجوك لا تكتب هــذا الكلام لا أريد أن أغضب أحدا ! بينى وبين القبر سنوات ، لا أريد أن أبدو عنيفا • علمتنى الأيـــام الاعتدال •• أهو من سمات المؤرخ ؟ لا أدرى • ولكنى أستطيع أن أقول لك أن المؤرخ انسان محـــايد •• اسجل الأحداث فى حينها حتى لا تفقد نبضها الحى ! ••

قلت للرافعى •• ان حديثى معك حول التاريخ وعمـــل المؤرخ • قال : التاريخ ؟ مجموعة حوادث وتفاصيل يومية لها أهمية •• وهى فى متناول كل يد • وعمل المؤرخ •• تدوين هذه الحوادث •• أنا شاهد الرؤية أمـــام التاريخ • ولابد لشاهـــد الرؤية ان يكون أمينا ، دقيقا ، والا كان شاهد زور !!!

قلت للرافعى •• ان حديثك العفوى هنا يغرينى بالتحقيق الصحفى • قال : صدقنى ، لن تجد عندى جديدا • اقرأ كتبى تصل الى مرادك •• قلت مرادى ، أن اسجل بعضا من مذكراتك ! قــال : مذكراتى أو تاريخى كما تقول : مجموعة خواطر نفسية ، ليست قصة تشغل بها قراءك !

وأمسكت بقلمى وكانت هــذه الســطور مدخلى ومرت السنين ، وفتحت عينى هذا الأسبوع على خبر وفــاة عبد الرحمن الرافعى •• وتذكرت كلمــاته • فجاءت « حــاضره » وأصبح الرافعى « خبرا » يدونه التاريخ من بعده !

(٨ ديسمبر ١٩٦٦)

ويقول أنيس منصور « والرئيس السادات له رأى فى هذا المؤرخ انه رجل منصف •• فعلى الرغم من أن له لونــا سياسيا معروفا فانه كان يعرض وجهة نظره الحزبية الخاصــة • وفى نفس الوقت يعرض وجهات النظر الأخرى بمنتهى الأمانــة • ولذلك فعبد الرحمن الرافعى هو رجــل معتــدل • وهو ينقل التاريخ والأحداث كما هى • ويعلق عليها برفق •

وأهمية هــذا الموقف الفكرى من عبد الرحمن الرافعى ، انه ليس صاحب فلسفة معينة • هذه الفلسفة تفرض عليه أن يلوى أحداث التاريخ وأشخاصه ليتفقوا مع وجهة نظره • فكانه

بذلك قائد كبير ، وأحداث التاريخ جنود يرتبهم ويجمعهم ويصرفهم على هواه . وبذلك يكون التاريخ القوى ، ليس الا التاريخ الذى يراه هو وليس تاريخ مصر .

ولكن عبد الرحمن الرافعى يبرأ من هذا العيب المذهبى الضيق .

وأذكر اننى قدمت المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى برنامج تليفزيونى وجلست اليه ساعات قبل أن يظهر على الشاشة . أما الذى بهرنى فى هذا الرجل فهو هذا القدر الهائل من الصفاء الروحى والمثل الأخلاقية العليا .

ومعنى ذلك أن ما كتبه عبد الرحمن الرافعى لم يقصد بأن يحكى لنا حكاية وانما يقدم لنا عبرة وعظة ، من أجل مجتمع أفضل وأكرم .

(الأهرام ٢٨ أكتوبر ١٩٨١)

كلمات لعبد الرحمن الرافعى

ـ ان العاطفة الوطنية ليست بمنيلة أمة الاستقلال ما لم تبلغ فى النفوس مكانة تلهم صاحبها ـ الاستقلال ـ وايثاره الموت على حياة فى استعباد •

ـ الجمعيات أول مظهر عملى للشعور الوطنى الصحيح وأجل طريقة نخدمه بها وتحميه من العبث والتبدد •

ـ رأس مال الاحتلال فى قلوبنا ان شئنا استبقيناه وان شئنا نزعناه من بين جوانحنا فلا يعود له مقام بين ظهرانينا • فصرح الاحتلال قائم على عمادين : حسن الظن به من جهة والوهم من جهة أخرى • فبحسن الظن ترضى الملايين من البشر

بتحكم الأجنبى فيهم فيثبتون سلطانه • وبالوهم يعطون له قوة لم يكن يحلم بها فيخافون من شىء هم خالقوه •

حقــوقى

((تبدد الشعور الوطنى وتجمعه))

اللواء ٩ مارس ١٩٠٨

ـ الرسميات فى نفسها لا تؤيد حقا ما لأنهــا لا تحــكم الواقع ولكن الواقع يحكمها مثلها فى ذلك كمثل القوانين بين الأفراد اذا لم تلائم الظروف والاخــلاق اضــطر واضعوها الى تبديلها أو يهمل تطبيقها بالفعل ، فنحن أمامنــا أحــد طريقتين (أولا) أما ان نجارى أولئك اليائسين الذين يمالئون الواقع فيكسبونه صبغة شرعية لم يكن يحلم بهــا • (ثانيا) وأما أن تتمسك بحقوقنا فيجب علينا أن نسرع فى تغيير الواقع حتى يلتئم معهــا •

عبد الرحمن الرافعى ـ متخرج من الحقوق

((آمالنا فى الدستور/١)) ـ اللواء ٤ أكتوبر ١٩٠٨

ـ ان الوسائل التى يتبعها أى احتلال أجنبى تتبدل بتبدل حالة الأمة التى يريد اذلالها لأن هنــاك مبدأ استعماريا جعلته الدول الاستعمارية رائدا لها فى سياستها مع الأمم التى وقعت فى قبضتها وهو أن القوة المسلحة لا تصلح لأن تكون دعامة ثابتة لارضاخ الشــعوب وان أقوى أســاس للحكم الأجنبى ما يشيد على عيوب الأمة والحكومة •

ـ فاذا أردنا أن نعرف أين صرح الاحتلال الذى شـيده فى بلادنا وعـلام أقامه فلننظر الى صميم قلوبنا • هنـاك نرى رأس ماله الذى عليه يعتمد ومنه يستمد قوته •

« آمالنا فى الدستور/٣ » ـ اللواء ١١ اكتوبر ١٩٠٨

ـ ان المصائب والآلام خير أستاذ للانسان وخير سائق له فى طريق الكمال •

ـ ان حب المـال اذا تسلط على فكر الانسان واستحوذ على وجدانه صرفه عن الآمال الكبيرة وأورثه اخلاقا دنيئة تدعو اليها ضرورة الاستزادة منه •

« آمالنا فى الدستور/٤ » ـ اللواء ١٧ اكتوبر ١٩٠٨

ـ ان قلوبنا قد أصبحت علقا لا تحركها صيحات الدعـاة المرشدين والنفوس لا تتحرك الا اذا أحست فما دام الاحساس ينقصنا فقل على كتابة كتابنا ألف سلام •

ـ أصبحنا نرى الكاتب يظهر بمظهر الجندى المستبسل فى خدمة بلاده واذا أطل الانسان على داخل قلبه رآه مأوى لأسـوأ النيات وميدانا لأفظع الجرائم والمنكرات •

« آمالنا فى الدستور/٥ » ـ اللواء ٢١ اكتوبر ١٩٠٨

ـ ان الطريقة المثلى فى الكلام على عيوب الأمة هى اشعار الناس بها وحملهم على اتباع طريق عملى للتخلص منها • فعلى

الذين يريدون مداواة عيوب أنفسهم أن يرجعوها الى عيب اخلاقى رئيسى (كضعف العزيمة أو الجبن مثلا) ليسهل عليهم مداواة ذلك العيب الرئيسى • فاذا ما تخلصوا منه رسخ فى قلوبهم مبدأ التخلص من عيوبهم فداووها بعد ذلك واحدا بعد واحد •

« رجال الغد » ـ اللواء ٢٠ يونية ١٩٠٩

ـ فلنأخذ بأسباب القوة تقو حجتنا أمام خصومنا وننل حقوقنا التى نجاهد فى سبيلها •

« حقوق الشعب » ص ٦٥ ط ١

ـ الحكومة التى تغتصب من الأفراد حريتهم وتسلبها منهم حتى لا تدع لهم حرية أو سلطة ما ثم تستبد فى استعمال تلك السلطة المسلوبة من الأمة •• مثل هذه الحكومة حكومة ظالمة غير شرعية يحل للأفراد أن لا يسلموا لها فى سلطتهم التى تحاربهم بها وان يستردها منها لتكون سلطتهم بيد مجموعهم •

« حقوق الشعب » ص ٣٨ ط ١

ـ الحق والقوة توأمان أو كائنان متلازمان خلقا معا وعاشا معا فلم يفترقا فى خلال القرون الماضية لحظة واحدة ، وسيظلان متلازمين الى ما شاء الله •

« حقوق الشعب » صبط ١

ـ فالناس منذ خلق الله العالم لم يحافظوا على حقوقهم

ولن يحافظوا عليها الا بمقدار ما لديهم من شـدة وبأس وقوة •
وكذلك الأمم تتصارع وتتنازع فى معترك الحياة العامة
ولا يسود فى تنازعها الأبدى مبدأ أيدته الحوادث قديما وحديثا
مثلما يسود بينها مبدأ القوة • فكم ديست للأمم حقوق لأن القوة
تنقصها • وكم انتهكت لها حرمات لضعفها وقلة حولها •

« حقوق الشعب » ص أ ط ١

ـ ذهب أولئك الشهداء العظماء ـ فى الثورة الفرنسية ـ
ضحية ظلم مواطنيهم • ولم يعرف الشعب خطأه الا بعد أن
أنفذ فيهم سهمه • فأدرك انه أساء الى من أحسنوا اليه وقابل
بالجحود جميل من وقفوا حياتهم على خدمته واعلاء كلمته فسمع
فيهم أقوال الوشاة والكذابين • وأخذهم بسعايات الدساسين
والمرجفين وهكذا :

يقضى على المرء فى أيام محنته
حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

« الجمعيات الوطنية » ص ٦٤ ط ١

ـ فان خير الحقائق وأبلغ العظات ما تنطق به حوادث
التاريخ • وجدير بنا ونحن أمة تجاهد فى سبيل حريتنا
واستقلالنا أن تتتبع خطوات الأمم التى سبقتنا الى تحقيق آمالها
الوطنية •

« الجمعيات الوطنية » ص ب ط ١

ـ ان استبداد حكومة أهليـة فى بلاد يحتلهـا الأجنبى بجنوده ويتغلغل فيها نفوذه هو اضعاف للحركة الوطنيـة التى ترمى الى تحرير البلاد وفل لأسـلحة الجهاد القومى وخدمـة للنفوذ الأجنبى فى البلاد •

« رسائل وخطب ومقالات » ج ١ ص ٣ ط ١

ـ أصبحت حركتنا المصرية فى حـكم التاريخ أنموذجـا صالحا لنهضة الشعوب التى تجـاهد فى سبيل حريتها جهـادا سلميا • ولا يجمل بنا بعد أن نالت بلادنا تلك المنزلة أن نقف فى منتصف الطريق ونقبل الهوادة فى حقوقنا ونرضى بالنكوص على الأعقاب والرجوع الى الوراء بل يجدر بنا كلما تضاعفت العقبـات وتعددت الصعاب أن نروض أنفسـنا على مقاومتها وتذليلها والمضى فى سبيلنا لأننا عندما أخذنا على أنفسنا تبعة الجهاد القومى لم نكن نعتقد أن نجد السبيل أمامنا مذللة والغاية سهلة المنال بل وطنا النفس على استمرار الكفـاح والنضـال والتذرع بالثبات والمثابرة •

« رسائل وخطب ومقالات » ج ١ ص ١١٠ ط ١

ـ نحن لا نكره المعاهدات التى تصون حقوقنا ، ولكن اذا كانت الظروف والمشاهـدات تدلنا على ان هـذه المعاهدة المعروضة علينا مضيعة لتلك الحقوق فأولى بنا أن نترك باب

المسألة المصرية مفتوحا لو اضطررنا الى تأجيل البت فيها الى الجيل القادم • فهنالك تبقى حقوق الوطن سليمة من العبث والضياع ولا نكون قد جنينا على ذلك الجيل أو قيدناه بقيود بسلاسل ينوء بها ويئن من ثقلها •

((رسائل وخطب ومقالات)) ج ١ ص ٩٥ ط ١

ــ ان من حق كل دائرة انتخابية أن تطلب من نائبها أن يقدم لها حسابا عن أعماله فهأنذا أؤدى واجب الأمانة وأقدم حسابا عن أعمالى فى دار النيابة •

((اعمالى فى مجلس النواب)) ص ب ط ١

ــ لكل أمة صفحة من الحياة القومية تحتوى تاريخ الجهود التى بذلتها والآلام التى عانتها فى سبيل حريتها واستقلالها • تلك الصفحة أول ما تعنى كل أمة بتدوينه ، ففيها ذكريات بجهاد الماضى ، وعبر لجهاد الحاضر ، وعظات لجهاد المستقبل ، فيها بيان لنصيب الأجيال المتعاقبة فى أداء الأمانة القومية ، تلك الأمانة المقدسة ، وديعة السلف للخلف ، ووصية الآباء للأبناء •

((تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر))
ج ١ ص ٧ ط ٣

ــ ولكن مهما بلغت سيئاتهم ــ أى المماليك ــ فان القضاء

عليهم بوسيلة الغدر أمر تأباه الانسانية ، ولو أن محمد على باشا استمر فى محاربتهم وجهـا لوجه حتى تخلص منهم فى ميادين القتال لكان ذلك خيرا له ولسمعته ولا يسوغ فعلته ان هـذه الوسيلة كانت مألوفة فى ذلك العصر • ومن جهة أخرى فان الفتك بالمماليك على هـذه الصورة الرهيبة قد كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحة القلعة أدخلت الرعب فى قلوب الناس وكان من نتائجها ان استولت الرهبـة على القلوب ، فلم يعد ممكنا الى زمن طويل أن تعود الشجاعة والطمأنينة الى نفوس النـاس ، ولعل هـذه الروح الجديـدة قد جعلت محمد على باشا أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، فلم يبد من الشعب فى خلال السبع والثلاثين سنة التى قضاها فى الحكم بعد تلك الحادثة روح معارضـة أو محاسبة أو انتقاد ، وغنى عن البيان انه مع ما أسداه محمد على من الخير للبلاد فى خـلال حكمه فانه لم يعوض الشعب ما فقده من تلك الناحية الخلقية ، ناحية الشجاعة الأدبية والروح الديمقراطية ، تلك الناحية التى هى من أركان عظمة الأمم ومن دعائم حياتها القومية •

« عصر محمد على » ص ١١٨/١٢٠/١٢١ ط ٣

ـ فالى عهد إسماعيل ترجع اذن مقدمات الثورة العرابية ـ وهى تطور للحركة الوطنية التى ظهرت فى ذلك العهد ، وعندى أن هذه الحركة كانت أسلم عاقبة وأدعى الى الاعجاب والتقدير

من الثورة العرابية ، ذلك أن الحركة الأولى كان قوامها نهضة الأفكار والآراء ، ونضج العقول والقرائح ، وتبادل الرأى والمشورة ، على حين جاءت الثورة العرابية وقوامها الاعتداد بقوة الجيش وحسب ، فتضاءل العامل الفكرى والمعنوى ، فى طورها الأخير ، وخفت صوت الحكمة والتعقل ، الى جانب صوت السيف والمدفع ، ومن ثم تنكبت الحركة سبيل الرشاد ، وركبت متن الشطط ، وانفسح المجال للدسائس الأجنبية تنصب أشراكها ، والمطامع الاستعمارية تدير مكايدها ، حتى انتهت الثورة بالاحتلال الانجليزى الذى مازلنا نعانيه الى اليوم (سنة ١٩٣٢) .

« عصر اسماعيل » ج ١ ص ٧ ط ١

ـ ان العرابيين والخديو كلاهما لم يقدر مضار الانقسام ولم يتبين عواقبه ، وكلاهما يحتمل تبعته ومسئوليته ، ففى الحق أن تبعاتهما من هذه الناحية تكاد تكون متعادلة متكافئة .

« الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٨ ط ١

ـ على أن الذى يؤخذ على العرابيين فى مدة الحرب انهم لم يبذلوا من المدافعة والاستبسال فيها ما يثير فى الأمة روح الاقدام والتضحية ، مما هو أخص واجبات زعماء الثورة فى ساعة الخطر ، كما انهم بعد وقوع الهزيمة ، وفى خلال محاكمتهم ،

لم يقفوا الموقف اللائق بمن جعلو أنفسهم قدوة للأمة ، بل استحبوا الحياة وآثروها على الواجب الوطنى ، فتضاءلت فى صفحة الثورة روح البطولة والتضحية ، تلك الروح التى هى غذاء الحركات القومية ، ومادة الحياة فيها ، وسبيل الأمم الى المجد والعظمة •

« الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٨ ط ١

ـ ان دراسة الثورة العرابية تقتضى أن نستجلى حسناتها واخطـاءها ، ونوفيها ما لها وما عليهـا ، وبذلك نستطيع أن نتفهمها على حقيقتها ، ونؤدى الواجب نحوها •

« الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٨ ط ١

ـ فشخصية عرابى لم تساعد على انجاح الثورة ، بل كان بها من نواحى الضعف والنقص ما جعلها من أهم العوامل فى اخفاقها •

« الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى » ص ٥٢٠ ط ١

ـ شخصية عرابى كانت تجمع بين المحاسن والاضداد ، حقا أن الرأى فى شخصيته قد يتغير لو كتب له الفوز والنجاح •• فلو أن الثورة فد انتصرت لتضاءلت عيوبه الى جانب مزاياه ومحاسنه ، وهكذا شأن الحوادث والأحداث لها دخل كبير فى تقدير الرجال والأشخاص •

والناس من يلق خيرا قائلون له

ما يشتهى ، ولأم المخطى الهبل

((الزعيم الثائر احمد عرابى)) ص ٢١٦ ط ٣

ـ لم تقدر الأمة بعد ((محمد فريد)) حق قدره ، ولا عرفت له عظيم منزلته ، ولقد غمرت الحوادث تاريخه وفضله على الحركة الوطنية ، فمن الحق على الذين ساهموا فى الجهاد تحت لوائه ، أن ينشروا للملأ هذه الصفحة المجيدة من تاريخنا القومى ، صفحة محمد فريد وعصره .

((محمد فريد رمز الاخلاص والتضحية)) ص ٣ ط ١

ـ عمت الثورة ـ ١٩١٩ ـ ارجاء البلاد ، دون أى تدبير أو تنظيم ، لم تكن ثمة هيئة أو جماعة تدعوا اليها أو توجهها ، بل شملت البلاد فجأة ، وعلى غير انتظار ، وكان ذلك من مظاهر جلالها وروعتها ، وظهر فيها فضل الشعب ، اذ أدرك بفطرته السليمة أن الحركة الوطنية انما قامت ضد الاحتلال الأجنبى ، وكان مقصودا منها بداهة جلاء الاحتلال عن البلاد ، وان الاستقلال الصحيح لا يتحقق الا بالجلاء ، وعلى هذا الأساس قامت الثورة ، فبرنامج الثورة كان أوسع مدى من برنامج الوفد .. ولم تكن الثورة وليدة الوفد ، ولا وليدة سعد ، بل كلاهما وليد الثورة ، هذه حقيقة يقتضينا الانصاف

أن نذكرها ، تقريرا للواقع ، وابرازا لفضـــل الشعب فى ثورة سنة ١٩١٩ .

« ثورة سنة ١٩١٩ » ج ١ ص ٥ ط ١

ـ وكان أهم ما شغلنى انى تساءلت هل يؤمن المؤرخ أن لا ينحرف عن جادة الانصاف والاعتدال اذا هو أرخ فترة عاصرها وساهم فى حوادثها ، وهلا يكون متأثرا الى حد ما بشـــعوره الشخصى فى هـــذه الحوادث ، وبعد أن فكرت فى هذه الناحية ، وجدت أنه ما دام الحق رائد الانسان ووجهته ، فلا يصح أن يتأخر عن تأريخ الحوادث التى عاصرها ، ولا تصرفه عن هـــذه المهمة خشية التأثر بشعوره الشخصى ، فان هـــذا الشـــعور قد يكون أدعى لتحرية الصدق والحق ، لكى يطمئن ضـــميره الى أن شعوره لم يكن له دخل فى عرض الحوادث وايرادها وتفسيرها بعيدا عن التحيز أو التحامل ، ومن ثم اعتزمت ان أؤرخ هـــذه الفترة ، وأخذت نفسى بأن التزم الصدق والانصاف فى تدوينها وشرحها وتفسيرها ، ما استطعت الى ذلك سبيلا .

« فى أعقاب الثورة المصرية » ج ١ ص ٣ ط ١

ـ وفكرت ثم قدرت ، وانتهى بى البحث الى أنه لا يجوز لمن يتصـــدى لكتابة التاريخ أن يدخل عنصر المجاملة فيما يكتب، وكل ما يملك اذا أراد أن يجامل أن يدع الفترة المحرجة ، ويرجىء تأريخها حتى حين ، ولكن الى أى أجل يرجئها ؟ ولمـــاذا يرجئها ؟

واذا كان فى مقدوره أن يؤرخها كما أرخ المراحل التى سبقتها ، ففيم اذن يتنحى عن تأريخها ؟ لقد فكرت فى هــذا الأمر مليا ، ولم أكتم عن نفسى دقة الموقف وما يلابسه من حرج ، وانتهيت الى أنه ليس من حقى أن أقف بالكتابة فى تاريخنا القومى عند حد قديم أو حديث ، وما دمت قد حملت نفسى مهمة وضع هذا التأريخ ، فعلى أن أؤدى الرســالة كاملة ، قدر ما وســعنى الجهد .

« فى أعقاب الثورة المصرية » ج ١ ص ٤ ط ١

ـ وهنا أرى واجبا على أن أوجه النصح الى الشباب المثقف أن لا يتورطوا فى اعتناق الأفكار والنظريات الشيوعية الهدامة تحت تأثير الوهم بأنها السبيل الى النهوض بالبــلاد اقتصاديا واجتماعيا ، فان هــذه النظريات انما ينشرها دعــاة مغرضون يرمون الى هــدم النظم الاقتصادية والاجتماعية كافة ، واثارة الحرب بين طبقات المجتمع ، وليس هذا الهدم هو السبيل الى زيادة ثروة البلاد الاقتصــادية ، ولا الى تحقيق العــدالة الاجتماعية ، فان ثروة البلاد الحالية اذا هى وزعت بالتساوى على جميع السكان ، كما ترمى الى ذلك النظريات الهدامة ، لمــا خص كل مواطن شىء يذكر ، ولبقيت مشكلة الفقر مضروبة على البلاد . والعلاج الناجع لهذه المشــكلة هو أولا فى زيادة موارد الثروة العامة للبلاد ، لأن هذه الزيادة تعود حتما بالنفع

على جميع المواطنين مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ، ويجب الى جانب ذلك تنظيم هذه الموارد وتطبيق النظم التى تقلل الفوارق بقدر المستطاع بين الطبقات ، وتفرض على الأغنياء الالتزامات التى تقتضيها العدالة الاجتماعية .

فالنظريات الشيوعية تسىء الى حياة البلاد القومية ، وخاصة لأن لها طابعا خطرا ، اذ تقوم عليها هيئات تتسم بالدولية . وتعمل على اضعاف روح الوطنية فى نفوس الشعوب، واحلال النزعات الدولية محلها ، بحجة أن التعصب للوطنية Chauvinisme هو من أسباب انتشار الحروب ، وبالتالى من عوائق استتباب السلام فى العالم ، وهى دعوى باطلة ، يدخلها الشىء الكثير من التضليل والمغالطة ، ويراد منها تفكيك الروابط الوطنية بين أبناء الأمة الواحدة ، وبالتالى اضعاف روح المناعة فيها تمهيدا للسيطرة الأجنبية عليها .

ان التعصب للوطنية الذى كان فى بعض المواطن من أسباب الحروب ، هو المرادف لسياسة الطغيان والفتح والتوسع ، تلك السياسة التى انفردت بها الدول الاستعمارية ، أما نحن الضعفاء ، الفقراء فى الوطنية ــ لأننا لا نزال مع الأسف نشكو انخفاض مستوى الوطنية فى نفوسنا ــ فمن الخطر على كياننا وعلى نهضتنا أن نغلب عليها الدولية واذا نحن قوضنا عوامل الوطنية فى نفوسنا ، فماذا يبقى لنا من عدة نناضل بها عن كياننا

فى هــذا الخضم من المعترك العالمى الذى لا تسود فيه الا القوة، ولا يحترم فيه للضعيف حق ولا كيان ٠

ومن عجب أن تصــدر الدعوة الى طرح العقائد الوطنية عن بلاد (روسيا) عرفت فى تاريخها القديم والحديث بنزعــة التوسع فى الفتح والسلطان ، والدأب على السيطرة على الدول المجــاورة وغير المجاورة ، وهى لا تقل فى الطغيان والعدوان عن أعرق الدول فى التوســع والاســتعمار ، ولا تختلف روســيا الشيوعية عن روسيا القيصرية فى هذه الناحية ، ولكن دعاتهــا يرجون مبادئهم الهدامة تحت ستار براق ، يستهوون به البسطاء، لكى تنحل عقــائدهم الوطنية ، فيجد أولئك الدعــاة منفذا الى التسلط على بلادهم ٠

فهذه الدعاية اذا تسربت الى صفوفنا ، كان فيها القضــاء على الروح الوطنية التى نحن أحوج ما نكون اليها ، هــذا الى انها ترمى الى القضاء على الملكيات الزراعية المتوسطة والصغيرة ، فضــلا على الكبيرة ٠ لأن الشيوعيــة ترى فى صــغار الملاك الزراعيين طبقة من الرأسماليين تجب محاربتهم وتجريدهم من أملاكهم ٠ وهو أســاس ينــاقض على خط مستقيم الأســاس السليم الذى يجب أن نسعى اليه وهو الاكثار من الملكيــات الصغيرة والمتوسطة لكى يرتفع المستوى الاجتماعى فى بلادنا ٠

فليحذر الشباب المثقف هذه الدعايات الضارة بنا وطنيا واجتماعيا ، الهادمة لاقدس شعور فى الانسان ، وليحرصوا على روح الوطنية ، وليعملوا على اذكائها وارساخها فى نفوسهم ونفوس مواطنيهم ، ولا يكونوا عمال هدم لهذه الروح العظيمة التى هى الأساس الوطيد لنهضة البلاد ، وهى الحصن الأول والأخير لكيانها وحياتها ، ولا يعملوا بقصد أو بغير قصد على تحويل الجهاد القومى ، من جهاد فى سبيل الوطن والمجموع ، الى نضال بين الطبقات ، فان هذا النضال يضعف ولا ريب جبهة مصر فى جهادها القومى العام .

« فى أعقاب الثورة المصرية » ج ٢ ص ٢٧٨ ط ١

ــ يجب على الشباب أن ينتظموا جماعات تعمل على الرقى الاجتماعى ويؤسسوا هذه المنظمات ان لم تكن موجودة .

وعلى الشيوخ أن يرعوا هذه المنظمات ويمدوها بالعون والمساعدة ، لقد رعى المرحوم الدكتور على ابراهيم باشا جهود الشباب فى مشروع القرش ، فكان لرآسته للجنة هذا المشروع فضل كبير فى حسن توجيهها وما نالته من مكانة فى المجتمع ، وكذلك يجب أن يفعل الشيوخ بالنسبة لمنظمات الشباب .

على هذه المنظمات واجب كبير وهو أن يساهموا قدر ما يستطيعون فى اصلاح حالة المجتمع من الوجهة الاجتماعية والاخلاقية والصحية والرياضية .

ولعل فى وجود هــذه المنظمات ما يصون اخــلاق الجيل الجديــد من التبذل ويجنبه الخروج على أوضــاع الفضــيلة والآداب ، انى أرى ظواهر وبوادر يؤسف لها تدل على هــذا الخروج ، وتبدو هــذه الظواهر فى تفــكير بعض الشــباب ومسلكهم وآدابهم فى المجتمعات ، وفى حياتهم الخاصة والعامة .
فلو وجدت هــذه المنظمات فقد تكون وسيلة لرد هؤلاء الشباب الى الأخلاق القويمة ، وهى أيضا وسيلة تصرفهم عن النظريات الهدامة الشيوعية التى تهدف الى تفويض دعائم القومية والأخلاق فى نفوس المواطنين .

ان جهود الشباب فى المنظمات الاجتماعية والاقتصادية هى بلا مراء أجدى على البلاد من المنظمات والأعمال الارهابية التى اجتذبت فى فترات متقطعة بعض الشــباب وغرست فيهم نزعة الأجرام والاغتيال ، تلك النزعة التى تتملك النفوس الضعيفة الخالية من العلم والأخلاق والايمان والوطنية .

على كل شاب أن يساهم فى بيئته أو قريته فى الحــركة التعاونية ، وفى مكافحة الامراض والوقاية منها فى محاربة الأمية، ونشر التعليم والثقافة . وعلى الشــباب أن يتعمقوا فى الدرس والبحث والاستقصاء ، اذا تكونت فئة من الشــباب المزودين بالعلم والأخلاق وتوافروا على المساهمة فى النهضــة الاجتماعية

وجدت منهم البلاد مواطنين صادقين مخلصين وجندا مجاهدين فى سبيل تقدم المجتمع وتحريره مما ينتابه من العلل والآفات •

« فى أعقاب الثورة المصرية » ج ٢ ص ٣٦٩ ط ١

ـ والحـركة القوميـة كما قصـدتها وعنيتها فى كتبى السابقة هى الجهود التى بذلها الشعب المصرى بمختلف طبقاته فى سبيل تكوين مصر الحرة المستقلة والزود عن كيانهـا والدفاع عن استقلالها والثورة على كل من يتعدى على هـذا الاستقلال، ومقاومته بكل ما أوتيت من حول وقوة •

« مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى » ص ١١ ط ١

ـ اننا أحوج الأمم الى تعزيز جيشنا ، لاننا فى الواقع تأخرنا كثيرا عن الأمم الأخرى فى تكوين الجيش نحو خمسين سنة • ولا أقول اننا مسئولون عن هـذا الاهمال الذى امتد خمسين سنة • بل أقول اننا منعنا من تعزيز الجيش طوال هـذه السنين • فاذا كنا منعنا عن أن نكون جيشنا • فيجب أن نعوض هذا التأخير بأن نعزز الجيش بكل ما استطعنا من حول وقوة ومـال •

فاذا ما طلب منا اقرار اعتمادات اضافية ، فمن العدل أن ينفرد بتحملها طبقة الأغنيـاء ، متوسط اليسار • فالطبقـات

الغنية والمتوسطة اليسار هى التى يجب أن تتحمل هذه الاعتمادات الاضافية ، ويكفى ما تتحمله الطبقات الفقيرة من أعباء •

« اربعة عشر عاما فى البرلمان » ص ١٥١ ط ١

ـ ان من يهوى التاريخ لا تفارقه هـذه الهواية ، بل تلازمه على تعاقب السنين •

« اربعة عشر عاما فى البرلمان » ص ٣ ط ١

ـ والرأى عندى أن مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ ترجع الى سيرة الملك السابق فاروق فى الحكم ، فان حكمه كان هو التمهيد للثورة ، أما أسباب الثورة وبواعثها فترجع الى أبعد من ذلك وأعمق ، اذ هى تمتد الى بدء الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ ، لأن ثورة ٢٣ يوليو هى قبل كل شىء ثورة على الاحتلال والاستعمار •

« مقدمات ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ » ص ٣ ط ١

ـ ولا غرو فالسيد جمال الدين هو قبس من نور العترة الحسينية العلوية ، فكأن روح الامام على تمثلت فيه ، وتجلى أثرها فيما يكتبه أو يمليه •

« جمال الدين الأفغانى باعث نهضة الشرق » ص٤٩ ط١

ـ تضاءلت الروح الوطنيـة فى النفوس ، وصـار عـدم الاكتراث للوطنية شعار هـذا الجيل ، والجيل الذى تلاه ،

وأصبح سبيل النجاح سواء فى مناصب الحكم أو فى الحياة الاجتماعية عامة ، وهو الولاء للاحتلال الأجنبى ، والزراية بالمبادىء الوطنية ، وقلة الاخلاص للبلاد ، ودرج الناس على هذه الحالة وألفوها ، حتى عدوها كأنها حالة عادية ، وكأن الخروج عليها ضرب من السخف أو الجنون ، وهكذا يمسخ الحكم الأجنبى نفسية الأمة ويفقدها روح القومية والكرامة ، وينشىء نفوسا مريضة ، يروضها على التفريط فى حقوق الوطن ، وتضحية مصالحه ، فى سبيل التهافت على موائد المناصب .

« مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال » ص١٧٥ ط٢

ـ .. فتاقت نفسى عندما تخرجت من مدرسة الحقوق وانتظمت فى سلك الحياة العملية أن أنشد المثالية فى حياتى الشخصية والعائلية والاجتماعية ، وان أنشدها فى الحياة السياسية أيضا ، ولم أكن أخفى على نفسى أن الحياة المثالية ليست من اليسر ولا من السهولة بحيث تغرى شابا مثلى فى مقتبل العمر أن يسلك سبيلها ، ولكن هكذا شاءت الأقدار أن انشدها لنفسى ، ولست أدرى مبلغ ما حققت منها ، والى أى مدى كنت مثاليا أو غير مثالى ، وهل الحياة المثالية ممكنة أم لا ، نافعة أم ضارة ، وهل هى ـ بوجه خاص ـ ممكنة فى الحياة السياسية أم لا ، وهل اخطأت أم أصبت فى نشدانى لها ؟

كل هذه أمور لست أستطيع بعد طول السنين أن أجيب

عنها ، وما فائدة البحث فيها الآن ؟ لكن الذى يمكننى الافضاء به انى اجتهدت أن آخذ من الحياة المثالية أقصى ما أستطيع ، ويمكننى أن أقول أن نصيب الانسان منها يتبع مبدئيا الوسط والبيئة التى يعيش فيها .. على أن الارادة الشخصية لها دخل فى توجيه المواطن اليها ، وهى على أى حال تحتـاج الى ذخيرة من الصبر ، ومن الصـوفية الوطنية ، تجعل المرء غير مكترث لمـا يلقاه من العقبات والمتاعب .. كل هـذا لم يصرفنى عن التمسـك برأيى ، وقد يكون تمسـكى بهذا الرأى أمرا غير ارادى ، ولكن هكذا اتجهت نفسى هـذه الوجهة ، ولقد كان لها أثرها فى مختلف مراحل حياتى .

« مـذكراتى » ص ١٩ ط ١

ـ ان فى قيثارة الشعر سلوى للقلب ، وغذاء للروح ، وانها لتوحى الى النفوس أسمى معانى الانسانيـة ، وما أجمل هذه القيثارة حينما تغرد للناس ألحان الوطنية .

« شـعراء الوطنيـة » ص ١ ط ١

ـ أمامنا مشـكلة خطيرة يجب أن نجد لها حـلا وهى مشكلة زيادة عدد السكان ، فان مصر من أكثر البلاد ازدحاما بالسـكان بل ان الاحصاءات الأخـيرة تدل على انها تفوق كل البلاد فى هذا الازدحام .

« أربعة عشر عاما فى البرلمـان » ص ١٤٦ ط ١
(جلسة ٢٦ مارس سنة ١٩٤٠)

ـ ولكن أليس لى ـ بعد أن ترجمت لمئات من الشخصيات فى تلك الحقبة من الزمن التى أرختها والتى تزيد على مائة وخمسين عاما من تأريخ مصر الحديث ـ ان أترجم لنفسى ؟

حقا ان من أشق الأمور على الانسان أن يترجم لنفسه ، فقد يحمل هذا على محمل المباهاة والأنانية ، ولكنى ما قصدت الى شىء من هذا قط ، وانما أقصد الى أن مثل هذه المذكرات فيها من الحقائق والخواطر ما لا تتسع له كتب التاريخ، وهى مع ذلك قد تفيد لمن يريد أن يتفهم العصر الذى عشت فيه وشاهدت حوادثه وحقائقه ، ثم انى أرى أن نشرها قد يكون مساهمة منى فى تكوين المواطن الصالح ، ربما أكون مصيبا فى هذا الظن أو مخطئا ، ولكن هذا هو الغرض الذى أنشده .

((مذكراتى)) ص ٣ ط ١

الفهـــرس

الصفحة

رقم الايداع ٨٧/٢٣٥٠
الترقيم الدولى ٨ ـ ١٢٨٢ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب